# كما ينبغي لهم

رواية

منهل السرّاج

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory

# كما ينبغي لنهر

النص الفائز بالجائزة الثالثة/ الرواية
جائزة الشارقة للإبداع العربي
الدورة السادسة

# كما ينبغي لنهر

## روايـة

منهل السراج

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

**الطبعة الأولى**
**1428هـ - 2007م**

**ردمك 978-9953-87-125-7**

**جميع الحقوق محفوظة للناشرين**

**منشورات الاختلاف**

14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com

**الدار العربية للعلوم ـ ناشرون** ش.م.ل
**Arab Scientific Publishers, Inc.** S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 ـ 785108 ـ 785107 (1-961)
ص.ب: 5574 ـ 13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الالكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

**إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين**

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم - ناشرون، بيروت - هاتف 786233 (9611)

# الإهْـــدَاء

لا تسألوا متى يعود.

إلى أخويّ: مصطفى ومخلص

رفعت فطمة غطاء الصندوق الخشبي وأسندته إلى الجدار الشرقي. جلست "ركبة ونصف" على حصيرة صغيرة موجودة، منذ دهر، بجانب الصندوق. تطاولت بعنقها كي تحتوي قلب صندوقها ببصرها الفضولي. عبثت بأصابع نحيلة بين أشياء مختلفة وكثيرة. أبعدت شمعة ذائبة، أزاحت مقص أبيها، هوّيته، سبحة الجدة وغطاء رأسها، جلبابها، مفتاح السطح، مفتاح قبو القبو، علبة هدية فارغة، أغلفة رسائل ممزقة أطرافها، مخباط الغسيل[1]، صورة للميا المجنونة. طوت ورقة تقويم وأخرجت كيساً ورقياً تنبعث منه رائحة عتيقة، ألصقته بصدرها واستندت بظهرها إلى الصندوق الخشبي.

**"غداً تعود فطمة طفلة تحمل الخبز والجبن في الصرة البيضاء المزهرة باللون الأسود. تقطع الجسر الصغير بين الضفتين حتى تصل إلى البرية. تختبئ بين الشق الشقيق[2] مستنشقة رائحته غير العطرية، وتركض بين سنابل أرض صاحب الفرن القريب. تقطع رغيف الخبز لقيمات، وفوق كل قطعة خبز قطعة جبن (عشا مشى) ومع كل لقمة قضمة من الخيار الطازج. تعود إلى البيت مع بنات عمها اللواتي ينصرفن لعرايسهن القماشية المحشوة ببقايا الثياب البالية، وهي تمضي إلى كيس القنب حيث قصص ألف ليلة وليلة. تختار كتب التاريخ، كما شاء أبوها، تعدّ القهوة له مثلما كان يحب، تشعل المدفأة على طريقته، ترتب أشياءها في الخزانة، القبقاب أمام الحمّام، الصلاة في غرفة الصلاة وعلى السجادة التي لا تطؤها إلا الأقدام الطاهرة. سوف تشرب حليب عنـزة نمشة البدوية، بعد غليه**

(1) أداة تستخدم حين كانت تغسل الثياب على طرف الساقية.
(2) شقائق النعمان.

في السطل النحاسي، كما كان يفعل، وسوف تجلس على مصطبة الدرج، حيث كان أبوها يلبس حذاءه النظيف، منتظرة الفرنك الذي يناولها من الجيب الصغير لبنطاله. تنـزع ورقة التقويم بهدوء آخذة بحكمة اليوم بلا تذمر. متجاهلة قضية أرامل الحارة، مزغردة لزواج فتيات في الثالثة عشرة من عمرهن، ناسية أحداث أبو شامة ورجاله".

أحداث عديدة، أخبار كثيرة وقعت في هذا الصندوق، وحوله. فيه فضح العم عبد الحكيم أخاه جميل. كان يحلو لجميل ممارسة سره في الصندوق، وهو ابن ثلاثة عشرة منتشياً ببلوغه وباكتشافه لذة جسده. بين حنايا الصندوق وضعت الجدة، بقجة كفنها، وربما عمامة ابنها نذير حين كان أبو شامة يبحث عنه بهستيريا. فيه أخفت فطمة صورها مع رفيق الدرج.

الصندوق مطعّم بصفائح نحاسية وسجادة مزركشة بألوان النهر والضفتين، أخضر، بني، أحمر ترابي، عسلي، تصاعدت بين هذه الألوان خطوط خضراء كالسنابل.

تلمّست الكيس الورقي الذي يحتوي صور العائلة، قديمها بالأبيض والأسود، وحديثها بالألوان الشاحبة. مثل كل مرة، فتحته بوجل، فبرزت زاوية إحدى الصور، أثارت لديها فضولاً: من صاحب هذا السالف والشعر السميك؟ أحد أولاد عمها المفقودين واقفاً تحت شجرة ليمون مرتدياً ثياباً جديدة: مؤكد أنه ظهر يوم عيد. كانت أم الحب جالسة على دفة خشبية، أمامها أسياخ الشواء الكثيرة على منقل الفحم، تشير إلى حامل الكاميرا بضحكة تمانع فيها تصويرها، مهددة بسيخ تحمله. تطل أم فطمة من باب المطبخ، بوجه باش ومتعرق حاملة وعاء مملوءاً بالسلطة. أم الصافي، زوجة محمود عم فطمة، تنهر ابنها الباكي، متجهة إلى المرحاض

الملاصق للباب الكبير، متجنبة النظر إلى الجدة، حماتها.

في الظهيرة نفسها، والمكان نفسه التقطت الصورة التالية. يحتشد الشباب والأعمام، منهم الجالس ومنهم الواقف، صانعين نصف حلقة، محورها العم نذير الذي يبتسم برصانة وثقة، فهؤلاء الشباب، أولاد أخوته وأولاد أعمامه، في استعداد تام لخدمته وتنفيذ أوامره. شاركت أشجار الأحواض وأزهارها في حفل الطاعة هذا فأحنت أغصانها المتعالية كي تظهر في إطار الصورة الملتقطة. على يمين العم نذير قعد العم محمود العاجز في كرسيه الخاص، حاجزاً مساحة واسعة. كفّه العريضة المتوضئة تمسح رأس أحمد أخ فطمة الصغير الذي فقد مع من فقدوا. إلى اليسار ظهر العم جميل ضاحكاً بخديه المرحين، وعينيه المنكسرتين في سخرية ناعمة، لكأن الكاميرا امرأة جديدة يهم أن يعرّفها على نفسه، منتظراً أن تستجيب لنظرته التي لم تخيبه أبداً، غير عابئ بأخيه عبد الحكيم الذي يحاول حشره مخرجاً نصفه العلوي، ناظراً إلى الأعلى برأس مملوء بهوس الحمام، مرتدياً خفاً بإصبع واحد وبنطالاً قصيراً، ربما كان يخص العم نذير ذا القامة المتوسطة. يستغني نذير عن ثيابه حين يملّها، وأخوته مستعدون لارتدائها برضى تام. أما بقية الشباب، فبثياب العيد المتشابهة، قمصان موضة، أحزمة جيدة، بنطالات مكوية على أحذية نظيفة. قضت أم الحب ليلة العيد، تلمّعها بدهن اللوز وتجدّدها بلهاثها. وجوههم متراكبة في نظرة واحدة، حلم، أمل، خضوع واحد لعمامة العم نذير.

كانت فطمة تحدق في أغصان الليمونة التي ظهرت في أعلى الصورة، عندما تنبهت لخدر قدمها تحتها. دائماً تنوي الجلوس لدقائق، ثم تنسى نفسها ساعات، هي المشغولة حتى الثمالة بتاريخ وتأريخ الأحداث.

طرقت سمعها هسهسة ما، تلفتت في أنحاء غرفة الجلوس متيقظة لأي صورة، أو صوت، أو رائحة لم تخضعها لسلطان اهتمامها. وقعت عينها على ذيل الجرذ منسلاً من تحت كرسي جدتها الخفيض. تركت غطاء الصندوق يهوي وخرجت إلى أرض الدار وراءه.

شاهدت طائرين واقفين على غصن الياسمينة، ملتصقين وكل منهما ينظر باتجاه معاكس للآخر، فكرت:

"كأنهما لا يدريان أنهما متلامسان، وأن أحدهما بحاجة للآخر".

قفز أحدهما برفق إلى غصن أعلى، بينما الآخر ظل ساكناً ومستسلماً للمراقبة المهيمنة من الطائر الأول. حط طائر ثالث على الغصن السفلي، فراحا ينظران إليه ببطء وحياد شديدين.

"هذه الطيور اللعينة توسخ حديد الشرفة، إنها فضلاتها، فهي موزعة بنسق واحد تبعاً لحركتها".

قامت من مكانها متجهة إلى المطبخ:

"أووف! قبضة الباب مغبّرة ودبقة، لا بدّ أن ابن بنت خالتي الصغير قد لمس كل شيء قبل أن ينهي قطعة النمورة، يجب أن أعدّ محشي الكوسا لزوج أختي فهو يحبه، ولأختي التبولة، ولابنهما الصغير شوربة المرضى. أووف.. كيف لي أن أنظف القبو والجرذ ما زال يسرح ويمرح؟".

تتعب كثيراً عندما تصعد أو تنزل الدرج، فهي، رغم اعتيادها صعوبة العيش في البيت الكبير، إنما لقدرتها حدود. يقول فارس:

- هل قدرك أن تجربي إعادة الحياة لتراب الحديقة، وتنظيف ضفة النهر؟ ألا تملين من التجارب، أعطال كثيرة وموت كثير.

اعتادت نزق مزروعاتها وتمردها عليها. تقول فطمة:

"زرعاتي مثل أيامي".

إلا أن الكرمة لم تخذلها عمرها. هنالك تفاهم خفي نشأ بين فطمة وبين أغصانها، ربما لقدرتها على إعطائها ورقاً أخضر نديا يصلح لإعداد المحشي الذي يحبون ويصلح أيضاً خبزاً لأكلة تبولة. إلا أن أحداً لم يمتدح عنبها الذي يمتصه العصفور قبل أن يحمرّ وينضج. حديقتها التي لا تشبه شيئاً في وحشيتها تعطيها عكس كل ما تتوقع، فأوراق الورد المعروفة بمخمليتها، تخترقها أشواك أغصانها لتخز الأنف الفضولي، أما النباتات التي تنمو بعافية مدهشة فتتطفل على الحيطان، تملؤها بأوراقها أولاً، ثم بالنمل وبحشرات أخرى. ما لا يمكن لهذه الحديقة أن تغيّره من عاداتها القديمة هي كثافة فضلاتها، ففي كل شتاء تحتاج فطمة إلى تعزيل مصارف البيت. يقوم العامل بواجبه عن ظهر قلب، قائلاً بنزق:

- سبب هذا كله هو جذور أشجار الحديقة. تمتد حتى تخترق مجاري هذا البيت العتيق، تسدها. ثم يستأنف متأففاً، يجب أن تقطعي هذه الأشجار الهرمة وترتاحي، وإلا فسوف تسطمين[1] النهر أيضاً.

يملأ كيسين من نتاج التعزيل ويمضي.

تغلق الباب وراءه متمتمة:

"الحمد لله، اليوم تنتعش الأشجار بعد أن تخلصت من فضلاتها، وكذلك النهر سوف ينتعش".

تنزل كل صباح إلى حديقتها، تتأملها متناولة الثمار الساقطة، وبعض الورود الخمرية، تصعد درج قبوالقبو، ثم درج القبو، والدرج ذا الدرابزين الفستقي المفرغ. تستريح عند الدرجة الرابعة كي تهدأ ركبتها اليمنى، ثم تتابع الصعود حاملة باقتها الواهنة، وثمارها

(1) تسدين مجراه.

**الضعيفة.**

**تملصت** من بين الأجساد المتلاصقة على الفرش المتزاحمة، أنهكها النوم بين الفرشتين، على الحافتين، مرتدية قميصها الأزرق الطويل المزين محيطه بالكشكش. صعدت الدرج كل ثلاث درجات معاً، قطعت حافية ثلاثاً وستين درجة، وصلت السطح. كانت السماء صافية باردة، غطى الثلج السور، وأرض الدار، شجرة الليمون، الياسمينة، تماهت ضفة حديقة قبو القبو مع ضفة النهر فبدت كيد بيضاء ممتدة للضفة الثانية المزدحمة بالبيوت. نظرت وراءها فلم تجد أحداً، ارتجفت من شدة البرد، تمتمت:

"لا وقت".

قطعت السطح مرتين تاركة أثر قدميها الصغيرتين على الثلج، تمنّت أن تستلقي بذراعين ممدودتين على هذا البياض، لكنها خافت من البرد. نزلت الدرج متزحلقة على الدرابزين الناعم، غير آبهة بالثلج الذي سحبته معها في رحلتها. عادت إلى مكانها بهدوء ملتصقة بالأجساد النائمة، علّها تعطيها قليلاً من الدفء. تململت بنت عمها مردّدة في نومها: أعطني بندقية.. هذا ما كانوا يرددونه في لعبهم، يقولون: "ديغول خبّر دولتك باريس مربط خيلنا". شعرت فطمة بالنصر، ربحت الرهان، كانت أول من داس ثلج ذلك العام.

عندما استطاعت أخذ أفضل حقيبة مدرسية، وأفضل مقعد خشبي بين بنات أعمامها وأولادهم، نادوها "يهود خيبر". أما أمها فقد نادتها "بستانية" لأنها تشد شعر أختها ليلى، وتكزّ على أسنانها، وتصيح بصوت عال. كانت تقفز عابثة حين داست على الصوص الأصفر الصغير، التصقت أمعاؤه بقدميها، بكت كثيراً في حضن أم الحب، وظلّت ليالي طويلة تراه في حلمها يركض وراءها، يقفز بضعف وذعر. وقضت صيفية كاملة تعاني حين تمشي أو تدوس

الأرض بقدميها.

ذات ظهيرة صيفية سديمية مغبرة، كانت مختبئة بين الأغصان العليا لشجرة الليمون، عندما هدرت الطائرات الحربية فوقها.كانت تجلس القرفصاء مع عمر الذي يرتدي قميصاً مقلماً وعاصم الذي يرتدي "شورتاً" أسود مكوياً وقد لاحت عليه أمارات الجد. تراكض أهل البيت الكبير إلى القبو، راح الأب يقلب موجات الراديو، والأعمام تجمّعوا ينصتون للأخبار. ظلت فطمة تحت أصوات الطائرات في الأعالي، ممسكة الأغصان الخشنة بكفيها الصغيرتين، تستمع من الولدين إلى حكاية فيها الكثير من التلميحات الممتعة والمحرّمة، غير عابئة بخوف الجميع من الموت القريب جداً.

**أمضت ساعة أمام الجحر والجرذ لا يخرج:**

**"أيها اللعين".**

**شتمته، وهي تكز على أسنانها.**

**سدت مخبأه باللبنة، ريثما تنتهي من قص أوراق الكرمة. وعدت بيت أختها بأكلة "يبرق"، مع رؤوس الثوم وشرحات اللحمة، لكنها نسيت أن تنقع الرز. باتت تنسى الكثير من الحيل التي تجعل أكلاتها مختلفة.**

**منذ أعوام تعد أطعمتها لمن حولها، تقول ابنة خالتها:**

**- أظنك تستخدمين الميزان.**

**مع أن كل ما تضيفه لطبخاتها، ملح، فلفل، خضار.. ترشها بأصابعها من دون تقدير أو قياس، جميع أكلاتها معروفة منذ مئة عام، أو أكثر، يكاد معظمها أن ينقرض، لكنها تعدها كما لو كانت قد اكتشفتها للتو. حيّرت نساء العيلة بحيلتها.**

**فتحت الخزانة التي تضع فيها سلة الثوم والبصل، عنبر السمنة**

وتنكة الزيت، همّت أن تتناول رأس ثوم، فقفز الجرذ، لمس قدمها بجلده الرطب المتقرن. لعنته ألف لعنة، شتمت عمره كأي ابن آدم يشاكسها أو يمازحها مزاحاً ثقيلاً. اتجهت إلى الحمّام تفرك قدميها، وتفكر بالطريقة التي استطاع فيها أن يدخل خزانة سلة الثوم: يجب علي أن أتخلّص من زيت القلي المكشوف فربما يكون قد لمسه، وأن أصلح قفل خزانة المطبخ التي تآكل خشبها وخرج النمل منها. صمد خشب المطبخ طويلاً، منذ أن كانت الجدة عروساً صغيرة، تختار بدلال الرخام الإيطالي، وخشب الزان.

قرع الباب، إنه ابن عمر جارها:

- نريد أن نقتطع بعض الأغصان من النخلة، سنـزور قبر عمي.

- ستقوم أنت بهذا العمل، فأنا متعبة، احذر من الجرذ، إذا رأيته نادني، لا توسخ الأرض، لا تقس على النخلة.

نـزل الولد متململاً من الدرج الأول والثاني ومن توصياتها التي باتت محفوظة، راح يقلدها:

- لا تقس على النخلة، ثم استأنف: النخلة هي التي تجرح أصابعي في كل خميس.

عادت إلى مطبخها تحاول تثبيت "جوان" طنجرة الضغط القديمة، كي تعد طبختها التي لن تنجح إلا في هذه الطنجرة. "صولت" الرز، ثم خلطته بالملح والفلفل هازئة بهؤلاء الذين اخترعوا خلطة البهار. أضافت اللحمة الناعمة، ثم ملعقة من السمنة البلدية، وزّعتها على سطح الخليط، أخذت تقلبه بأصابعها مدققة في لونه: زهري. وضعت ربطات ورق الكرمة في الماء، جففتها على خرقة نظيفة. جلست على السجادة تعد محشي "اليبرق"، مراعية أن تكون القطع كلها متناسقة الحجم، متشابهة، صغيرة رفيعة متماسكة باعتدال، ولاتكون صلبة في الأفواه. قد تقسم الورقة الواحدة عدة

أقسام، تلصقها بقسم سابق لورقة أخرى لتشكل لفافة جديدة.

رغم أنها تعد طبخة "اليبرق" عشرات المرات كل عام، ورغم أنها تزوّد بيوت أهلها بمؤونة ورق اليبرق، لكنها لم تستطع مرة أن تتناسى ما تعنيه ورقة الكرمة لها، فعندما تفرد الورقة الخضراء ذات العروق على الدفة الخشبية، وتضع فوقها الأرز باللحمة على هيئة إصبع، لا تملك إلا أن تتذكر أكف أعمامها، وأصابعهم المنفرجة على آخرها مغطاة بدمائهم، حين قتلهم رجال أبو شامة، وأخذ أولادهم فصار مصيرهم مع الغائبين، تفكر بأبو شامة:

"تراه يعلّق صورته في قصره، كما هي معلقة حول النهر بتالولته[1] الساقطة والباقية؟"

لا تملك إلا أن تتذكر فارس النحات القادر، رغم كل الظروف، على أن ينحت أدق التفاصيل وأصعبها بصبر غير محدود، دونما انتظار لشهرة أو مال، رغم حاجته لهما، والحاج عمر الذي يسيطر عليه هاجس البعث في اليوم الآخر، آملاً أن ينشر نظريته، وينتصر على قوى الشر في العالم. وتهجم صورة لميا المجنونة تجري على الجسر الصغير من أوله إلى آخره ولا تتعب، تبصق في النهر تارة، وعلى بناء "الخلية الذكية" للاتصالات تارة أخرى. تتدلى من سور الجسر بنصف جذعها ناظرة أسفل القناطر، تبحث عبر ضياعها عن ابنها الذي رمته، هنا تتذكر صحن طعام لميا. والأستاذ عاصم الذي يعيش مع أمه وأطفاله منصرفاً لكتبه ومكتبته، حالماً بعالم يحيا برؤيا جبران خليل جبران، وصوت فيروز. تتذكر عمها جميل فتردد مع نفسها: جميل النسونجي، تضحك: ما زال يعشق النسوان وينشغل بهن، يفرد القماشة، أمام الزبونة متغزلاً باللون كأنه لون عينيها، بالملمس كأنه ملمس وجهها. نجا عمها عبد

(1) ثؤلول

الحكيم من هجوم أبو شامة بفضل حبه لتربية الحمام. غاب ليلتها باحثاً عن طائره المنقط في الضيعة المجاورة، ليساوم عليه.

تتخيّله يرشق حبات الزيتون في فمه، كأنه يصوّب على طيوره، قالت له:

- عمي كل حبة بحبتها.

فأجابها:

- المكدوس كل حبة بلقمة.

ابتسمت بشوق، ربما تنوي أن ترسل له قطرميز المكدوس الذي أعدته لمؤونتها. تتذكر ليلى أختها المنصرفة تماماً لمجتمعها المخملي، تبتسم بأسف: المخملي، "شو" سلالة الملكة اليزابيث؟ أختها ليلى ذات الجمال المطلوب: فم صغير، أنف دقيق، خدود زهرية تحت عيون عسلية مدبلة، توحي لمن تنظر إليه أنها تحتاجه، أن من واجبه رعايتها. مدللة منذ صغرها، طلباتها تأتيها قبل أن تسأل عنها. توشك على البكاء إن تأخر ثوبها عند الخياطة، تحتج بشدة إن لم تنل الحظ الأكبر من دلال محيطها، اعتادت على ذلك من أبيها الذي حملها على كتفيه، حتى صارت أطول منه، ومن أمها التي كانت تلملم بيجامتها وراءها، حين تترك بنطالها مكوماً دائرتين على الأرض بعد أن تخلعه وتقفز منه.

تهاجمها ذكرى أحمد أصغر الشباب الذين غابوا، أحرق قلب أمه عليه، أمسكوا به: أنأخذه أم نتركه؟ بال الصبي على نفسه وهو يرجوهم: أنا صغير. وراح ينتظر بتوسل جواب المعلم الذي كان يقود رجال أبو شامة، لكنهم دفعوه أمامهم. تردد بكاؤه وارتجافه في كل زاوية من البيت.

"تراه يعود؟ يجب أن يعود، الولد لم يعش حياته بعد".

تداهم فطمة الذكريات من دون استحضار فتجد نفسها تسرع في

إتمام لفافة يبرق جديدة. أما لميس حبيبتها، ابنة ليلى فإنها الآن في درس اللغة الفرنسية، ترجو الله أن يحفظها ويحميها، تعيد الدعاء عشر مرات حتى تعطش، تشرب من القهوة التي بجانبها دائماً في فنجانها المفضل، روميو وجولييت وركوتها الزرقاء، تعود للفافات "اليبرق". لقد أنجزت كومة لا بأس بها، تستدعي كل من حولها إلى قلبها، رأسها، دنياها. ساعة أخرى، تكون قد أنجزت الكومة الثانية، تذكرت أبو رحمون المؤذن، لن تنسى حصته أيضاً:

"سوف يتأخر غذاؤه اليوم". لكن سيعذرها عندما يعرف أن الطبخة: يبرق".

وضعت شرحات اللحم في أسفل الطنجرة، ورؤوس الثوم بقشرتها، فالثوم الناضج تحت هذا التنسيق سوف يدفع بالأصابع، فيبدو كأفضل "مايونيز"، هكذا تفكر. صفّت القطع بترتيب هندسي كأن المحشي سيخلّد في طنجرتها. تتركه لينضج على نار شمعة وإن استغرق أكثر من ساعتين، سيجدون الطعام ساخناً في أي وقت يصلون، من دون أن تعرف ليلى كيف تستطيع أختها فعل ذلك.

فكرت:

"ما زال الوقت مبكراً لصلاة الظهر".

جهزت سجادة صلاتها، منشفتي الوضوء، واحدة جديدة زاهية لليدين والوجه، والأخرى قديمة مخصصة للقدمين. نظرت إلى كرسي الجدة تتفقد الجرذ الذي باتت تتوقع خروجه من كل زاوية سبق أن خرج منها، لمحت صورة هاربة من الكيس الذي أعادته على عجل، ابتسمت، ليلى هنا لم تتجاوز الثالثة من عمرها، مرتدية ثوباً قصيراً مبتسمة برقة بين خصلات ناعمة من شعرها الأسود. كانت واقفة بجانب حوض "السجادة" في يدها جورب ذو كرات ملونة، تضعه في وجه الكاميرا كي تشاركها الفرحة به. لولا تأنيب

**أمها، ودّت يومها أن ترفع سروالها الداخلي الجديد أيضاً أمام الكاميرا، وتخلّد فرحة كبيرة، فأمها وعدتها، إن هي كفّت عن التبول في ثيابها، أن تحضر لها سروالاً مقلماً بالأبيض والأحمر، وجوروباً بكرتين ملونتين. الغريب أن ابنة الثلاثة أعوام عاشقة كل جديد، امتنعت من يومها عن عادتها السيئة فالتُقطت لها صورة كي لا تنسى. انـزوت فطمة في الصورة نفسها إلى جانب قفص عصفور، تحت شجرة الليمون، ظهرها للكاميرا، مدّعية عدم اكتراثها لهذا الغنج الذي يشع من أختها الصغيرة ليلى، غير أن طرفها المراقب اتضح من الزاوية الأخرى.**

**كانت** صاحبة الحقيبة في الصفوف الابتدائية، تجلس في الجهة اليسرى، ملتصقة بالحائط، تسكت طوال الدرس، وعندما تتكلم، تقول لجارتها فطمة: لا تدلقي الماء الساخن على الأرض، أو على الزرع أو في المجلى. لا تغتسلي ليلاً، سوف يخرجون لك، سوف ترينهم في عمود الملابس، خلف الخزانة، في قمم السجاد الملفوف المغطى بأكياس الطحين الفارغة، يخرجون لك من الرسوم التي تشكلت على دهان حديد الأرجوحة، أوخشب المقاعد وعلى الجدران، أو من لحاء الشجر عندما يتشقق، فالجنّي الذي يسكنه يضيق بمحيطه، ينطلق ضارباً كل من لا يحفظ ذلك الدعاء الطويل، الذي يجب ترداده ساعة رؤيته. أخبرتها صاحبة الحقيبة أنها عندما خرجت من بيت أهلها قالت: خاطرك يا دار. رد صوت نسائي غريب: مع السلامة. جرّبت فطمة، تحدثت مع البيت، وحديقة القبو، جذع النخلة، والليمونة، دون جواب، غير أن صوتاً تحدّث بجمل غريبة عندما استحمت ليلاً، كانت في العشرين من عمرها، تدلق الماء المغلي على الحائط لاهية، غير عابئة بهؤلاء المختبئين

في الزوايا، أو في الشجر، أو تحت الأرض.

في حقيبة البنت الصغيرة في تلك المدرسة البعيدة أشياء صغيرة، مختلفة: مفك براغي، مسننات لعبة ما، بطارية، علبة قلم فارغة، كرة صغيرة، صور ممزقة، الله وحده يعلم حاجتها لكل منها، تنبعث من هذه الحقيبة الغامضة ذات اللون الغامق رائحة زيت وزعتر، أما الدفاتر والكتب فممزقة من الغلاف الأول أو من الأخير. الواجبات المدرسية غير هامة عند صاحبة الحقيبة ذات الأطوار الغريبة. أما فطمة فقد حشت حقيبتها بأوراق النخلة التي تشبه سيوف الأبطال أصحاب السير، بالإضافة إلى كتب ودفاتر كل المواد، تحملها يومياً، حتى إن لم يحتو البرنامج عليها كلها.

وفيما فطمة تفشي سرها لصاحبة الحقيبة كانت هذه تعلّمها لعبة بيع الورق الملون للفتيات، صور قصت من مجلات مختلفة تحمل معالم المدن الغريبة والبعيدة. مارستها فطمة يومين مع بنات المدرسة من دون أن تخبر أم الحب، أو أن تلفت انتباه بنات عمها. لكنها بعد فترة، امتنعت عن الاستمرار فيها، رغم إتاحتها لها شراء الحلوى المغلفة بالشوكولا عند خروجها من المدرسة، حيث، غالباً، ما تكون "الخرجية"[1] قد أنفقت من الفرصة الأولى.

كانت صاحبة الحقيبة، اللغز، تنال درجات فطمة نفسها في الامتحانات برغم الفارق الكبير. كرمها مع صاحبة الحقيبة جعلها تفتح أمامها ورقة الامتحان، بل كانت تأخذ ورقتها، وتملؤها لها إن لم يتبق وقت تنقل فيه. أخذت مساحة هامة من تفكير فطمة، أرادت أن تعيش ألغازها، بات الخبز بالزيت والزعتر فطورها المفضل، علّها تنشر رائحة حقيبة البنت في حقيبتها. لكنها قضت عاماً دراسيا كاملاً مرتدية المريلة الملوثة بالزيت، عند الجيب الأيمن، حيث

(1) المصروف اليومي.

كانت قد وضعت على عجل السندويتش غير المغلفة جيداً. غسلت المريلة عدة مرات إلا أن البقعة العنيدة ظلت متشبثة بالجيب الأيمن، مما جعل كثيراً من تصرفات فطمة غير مبررة لمجرد محاولتها إخفاء البقعة، بالدفتر، بالحقيبة، بالمنديل الذي تتركه ظاهراً قليلاً من الجيب، مما ساهم في تأخرها في الدراسة في تلك السنة، بخاصة في مادة الحساب، فصل الكسور وتوحيد المخارج، فحين تلتفت المعلمة إلى اللوح الدراسي لتكتب تمارين الدرس المقرر، تكون فطمة قد أزاحت المنديل لتتفقد بقعة الزيت. تمنت أن تختارها معلمتها كي تذهب بدفتر حضور المعلمات إلى الصفوف الأخرى، كي تضعه على منبر المدرّسة متباهية أمام تلميذات الصفوف الأعلى، لكن المعلمة الغافلة عن هذه الرغبة القاتلة كانت تختار ريمة ذات الأهداب والضفائر، لتتباهى بطالبتها الشقراء أمام باقي المعلمات. لعنت فطمة بقعة الزيت المسؤولة أولاً وأخيراً عن حرمانها من هذه النعمة. همّت أمها إعطاءها عروسة الزعتر كالعادة، فصاحت: كرهتُ الزيت والزعتر والزيتون أيضاً والمكدوس، وكل ما يحتاج إلى الزيت الأصفر المخضر، يسقط على الملابس فيبدأ ببقعة صغيرة ثم يتحول بعد ذلك إلى دائرة كبيرة، تتركز في أكثر الأماكن ظهوراً. وانتبهت إلى أن أسرار البيت لاتنقل وإن كان المتلقي فتاة بحقيبة ألغاز.

في العام التالي حازت على الدرجة الأولى، اقترحتها المعلمة كي تكون قائدة المدرسة، تقوم بتحية العلم الصباحية:

- عند فطمة صوت عال يصرع.

تفاخرت فطمة بكل الامتيازات التي حصلت عليها، جدتها في البيت تقدّر عبادتها. وهي قائدة في المدرسة، تضع نظارتها على عينيها وتقف في السابعة صباحاً أمام علم بلادها مستحضرة الجد

والحزم الذي كان يصدره عمها نذير.

يحفر الجرذ في حديقتها مغاور تصل إلى بيوت جيرانها، إلى قاع النهر. نصحوها، بعد صبر، أن تخلط الكلس مع بودرة الفانيليا ذات الرائحة المشهية، المستخدمة في صنع الكعك، تضع الخليط أمام الوكر بجانب وعاء ماء. يلتهم الجرذ الوجبة، ثم يشرب الماء، فيتجمد الخليط في بطنه ويموت. جربت، وضعت اللوز المقشر مع السكر وجلست القرفصاء ساعة كاملة أمام جحره، محاولة تحديد كل الاحتمالات الممكنة لاتجاهات تجوله، عبثاً. يئست:

"ركبتاي تؤلمانني".

صعدت بباقتها، زهور بلون التوت، تخرج منها حشرات سوداء ضعيفة. يضحك فارس:

- مثلك حديقتك، تعطي وتعطي دونما فائدة، فحتى أزهارها تعبئ الأنف بالحشرات، وبكائنات أخرى يترجح تصنيفها بين النباتات والحشرات، دعي هذه المخلوفات بحالها.

في كل أضحى تجُري دم خروف للأشجار، تطمر بلعومه وبعضاً من نتائج الضحية تحت التراب. ما هي النتيجة؟ نمو عشوائي، تعجز أن تلملمه. بمن تستعين على جموح هذه الحديقة التي تصر، رغم هرمها، على العطاء. تخطئ حديقتها في بعض الأحيان، تزهر ليموناً بدل البرتقال، عنباً أخضر طويلاً بدلاً من العنب الأحمر المدوّر. والياسمينة تكبر وتهيمن على الناحية القبلية بلا زهر. كم مرة نادت ابن عمر جارها كي يسحبها عبر السور الفاصل إلى بيتهم، مرة يستجيب، وأخرى يدّعي أنه غير موجود، إلى أن أرسلت الياسمينة أحد أغصانها كي ينغرس مرة أخرى في التراب مختلطاً بجذورها.

وضعت "اليبرق" على النار بعد غمره بالماء مع ملعقتين من

السمن. انتظرت البخار حتى انطلق فأضافت نصف كأس من حمض الحصرم.

جاءها صوت المؤذن: صلاة الظهر جماعة.

ما زال أبو رحمون المؤذن حياً رغم تجاوزه التسعين، صوته هو هو، منذ أكثر من ستين عاماً في الجامع نفسه، ينتظر غداءه اليومي من بيت أهل فطمة، فعندما ينادي لصلاة الظهر يكون جرس تنبيهه لها أن موعد الطعام قد حان، ما إن ينتهي من الأذان حتى يجد صينية غدائه مع السلطة واللبن. تضاف في الصيف قطعة ثلج في كأس من الألمنيوم. يتناول طعامه حامداً ربه داعياً لفطمة:

- فطمة تطبخ ما يكفي عشرة أشخاص يومياً، ولا تأكل إلا صحناً واحداً.

بات صوت أبو رحمون حتمياً كالشمس، كالبديهة، كالعادة، يبدأ دورته اليومية بأذان الصبح وينتهي بأذان العشاء ليغفو مع غياب الأضواء الخضر، ثم يصحو مرة أخرى منادياً لصلاة الصبح مضيفاً الكثير من عباراته الخاصة، كأن يؤنب الكسالى الذين آثروا دفء الفراش على ماء الوضوء الصباحي. صوته مع الفجر البارد، بطيئ لكنه حاسم. تستطيع فطمة أن تحزر مزاج أبو رحمون من نبرة صوته، فقد يهاجمه السعال أثناء الأذان، فينخفض صوته أو يرتفع. وهذا لايسبب أي حرج، فهو يؤذن في حارته وأهل الحارة يقدّرون. كثيراً ما يتلعثم في اسم الميت عندما ينادي عليه، أو اسم زوج المرحومة، فيسمع استفساره مع من يلقنه عبر الميكروفون، من دون أن يكلّف نفسه إبعاد فمه عن فوهة المكبر.

**أما** في رمضان فبإرادة أبو رحمون يكون الفطور والسحور، ينادونه: أبو رحمون "خوّرنا"، منتظرين السلطة وشوربة العدس

الساخنة والفتوش الأخضر. يراقب أبو رحمون الشمس حتى تغيب تماماً ويتأكد من ذلك، فيأذن للصائمين بالفطور، بل ربما يتناول تمرة قبل ذلك، وما إن يمضي وقت قصير ويكون الجميع منهمكاً في الطعام حتى يتصاعد صوته من المئذنة مرة ثانية ليبدأ بترداد "المولد". ينشد بصوت رمضاني يملأ الأفق والشجر الغافي والنهر الهادئ الذي اطمأن إلى صيام أهل المدينة ثم ينعكس عنه ليخترق كل الجدران من بيوت حارة فطمة وبيوت الضفة المقابلة التي تشبهها تماماً، حينها يهرعون نساء ورجالاً إلى الجامع كي يحجزوا مكاناً خلف الإمام لأداء عشرين ركعة للتراويح بعد أربع ركع لفرض العشاء وثلاث للوتر وأربع للسنة. يقف أبو رحمون خلف الإمام مباشرة على بلاطة محددة له يردد وراءه بعد كل ركوع وسجود: الله أكبر.

ينام أهل الحارة ساعات قليلة في رمضان ليعاود المسحّر إيقاظهم. يبدأ جولته في الضفة المقابلة لظنه أن أهل هذه الضفة يأكلون أكثر ويحتاجون وقتاً أطول، ضارباً طبلته في ليل غفوتهم. لا يغادر حتى يتأكد من استيقاظهم بسماعه صوت ارتطام الملاعق بالصحون وصوت صنابير الماء. ينتقل إلى الضفة الأولى، حارة فطمة، قاطعاً الجسر الصغير، من دون أن يكف عن ضرب طبلته، كأن للنهر سحوراً أيضاً، أو لينبه حارس الطاحونة بين الضفتين. قد يطرق باب البيت الكبير بعصاه مدركاً أن الأطفال يراقبونه من الشرفة المطلة على الجسر منتقلين في البيت نفسه إلى الشرفة المقابلة، كي يتابعوا مسيره كاتمين أنفاسهم، كائن يمشي ليلاً مع كلبه، خالقاً جواً ضبابياً بالصوت والصورة، يعينه عليه جريان النهر وصوت الطاحونة. عندما ينهي مهمته، يسلم التتمة لأبو رحمون. يرافقهم أبو رحمون سحورهم بأناشيده، بدءاً من اللقمة الأولى حتى كأس الماء الأخير،

فيؤذن الأذان الأول للصبح كي يستعدوا بالوضوء متواقتين مع نبرته بدقة عفوية، يستأنف ذكر الله، يؤذن للصبح الأذان الثاني بعد أن يكون قد نهى عن الطعام بعبارة: يا أمة خير الأنام.. كفّوا عن الطعام. ومع هذه الكلمات تسمع آخر رشفات من فنجان قهوة الجدة.

أما في العيد فسوف يضاف إلى موالد الفجر والعشاء بعد كل أذان عبارات التكبير. يترأس أبو رحمون فرقة من أولاد الضفتين، يجلسهم على الأرض في طقس احتفالي، يبدأ: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا.. فيردد الأطفال وراءه في تواترات غير منتظمة. قد يخطئ بعضهم قائلين: الله أكبر كبيرا والحمد لله صغيرا، فتأتيهم ضربة على الرأس، يتداركون الخطأ بتمويه الكلمة التي لم يفهموها.

**مضت في ركوع وسجود. ففرض الظهر طويل وسنّته أيضاً، جزء منها يسبق الفرض وآخر يليه. تؤدي طقسها على سجادة صلاتها المخملية المعتادة، التي تحمل صورة مئذنة بلون الحنطة على خلفية خمرية اللون، بجانبها قبة يعلوها هلال أزرق، القبة قائمة على مستطيل، مرسوم عليه نوافذ كثيرة بلون المئذنة، تتأملها لميس قائلة: خالتي سجادة صلاتك ينقصها اللون الأزرق لون النهر.**

**أطلّ وجهها من غطاء الصلاة العريض الطويل الذي يصل أسفل ركبتيها. "خراطة" الصلاة ذات الحزام المطاطي تغطي كعبيها عند السجود. تنتهي صلاتها واضعة راحة كفها على رأسها، تدعو أن تتجنب شمس جهنم التي تحمل لها في مخيلتها شكلاً ووهجاً، ثم تقوم مسرعة لـ "شن"**[1] اللبن، وإضافة الثوم والخيار المقشر المفروم.

(1) مزج اللبن بالماء.

**فكرت أن تعد مع الطعام شوربة العدس، فالجميع ينتظر الشوربة التي تعدها فطمة العمة والخالة، فيما تصر هي على أن الفضل يعود لأم الحب: علمتنا أم الحب أن الطعام الجيد يحتاج طباخاً كريماً وطياً.**

**عند العصر** تتزاحم الفتيات: فطمة وبنات أعمامها عند البحرة، يتوضأن للصلاة بوجوه بيضاء وابتسامات خفية، فالضحك مع العبادات وبحضور المعلّمة شيء غير مستحب. "من أولويات العبادة طاعة المعلم وتبجيله". يتراصصن على السجادات الممدودة، المجهزة لتأدية الفرض والسنة والأدعية اللازمة. لكن الأعمار المختلفة للفتيات تجعل هذا الطقس اليومي حافلاً بالمفارقات، فقد تخز إحداهن ابنة عمها بخاصرتها فتضحكها فتدفعها للتكبير وبدء صلاة جديدة وربما للمرة الثالثة. قد تضحك إحداهن حتى تفسد وضوءها أثناء الركوع بإفلات ضرطة مرحة، فتركض كي تعيد وضوءها ملاحقة بسخرية الجدة المراقبة لعبادات البنات، تاركة مراقبة عبادات الصبيان لمحمود العاجز.

تركض فطمة متفاخرة بثناء الجدة والعم محمود. عليها أن تلحق صلاة المغرب "فالمغرب غريب" وهو أحب الأوقات إليها، بفرضه ذي الثلاث ركعات وسنته ذات الركعتين، لكنه يمضي بسرعة، ويأتي أيضاً في أكثر الأوقات رغبة باللهو في الحارة. تثني الجدة على فطمة:

- تصلي الفجر بإيمان من حق و"حقيق".

تتوضأ بماء البحرة البارد في كل الأوقات. أصيبت بزكام لمدة شهر، غير أنها بإيمان، لاغبار عليه، على رأي عمها محمود، رددت:

- هذا امتحان من عند الله.

تصلي، تدعو، ترجو، تبكي بخشوع.

قالت أم الحب:

- فطمة.. كفاك.

- أخشى ألا يكون إيماني كاملاً يا أم الحب.

تشتغل بالكانافاه في ظهيرة الصيف الطويلة بانتظار موعد درس القرآن. تفعل هذا بنشاط وهمة. كانت كلما قطعت شوطاً بمساحة ذات لون واحد وخيط واحد، تفردها على الدالية، ناظرة إليها من جميع الجهات، كأن لأوراق الدالية الخضراء والبنية رأي تشارك فيه. وتبدأ من بعد العصر بتحضير دروس تجويد القرآن، تغسل الأرض والزرع والبحرة، ثم تتوضأ وترتدي الجلابية المطرزة واضعة ماء "كولونيا" خفيف الرائحة:

"رائحة النظافة تلائم العبادة".

تمد السجادة في حديقة القبو، واضعة نسخ القرآن المزخرفة بألوان مختلفة، فوق بعضها في الزاوية بجانب جرة الماء الباردة المغطاة بصفيحة معدنية والتي يعلوها الكأس اللامع. تراجع درس المدود وأحكام التجويد.كانت تحب من الأحكام "الإدغام" فتخرج الحُكْم صحيحاً حين تتأنى بإدغام النون بالياء اللاحقة. أما من المدود فكانت تحب "المد الطبيعي" الذي لا يستدعي المبالغة في إطالة الحرف كأنه الموال.

تتربع بين الفتيات ضمن الحلقة ساترة قدميها بتنورتها العريضة كما يفعلن. تصطف شحاطاتهن على الأرض أمام السجادة حاملة شكل قدومهن وهمّتهن في المجيء. هذا الجلوس الطويل يترك بقعة سوداء سميكة على جلد الرسغ، تتلمسها فطمة آسفة:

- تشوه شكل قدمي.

لكنهن يتباهين:

- دليل مثابرتنا اليومية على حفظ القرآن.

يستظهرن، في كل لقاء، سورة البقرة وسورة آل عمران، يحفظنها، متفاخرات بالقدرة الفصيحة على الترداد بأنغام خاشعة وأداء رزين، اعتزاز بالإرادة التي استهلكت وقتاً طويلاً كي تتم عملية الحفظ كما هو واجب. تتمتع بعض الفتيات بالصبر والموهبة، وبعضهن الآخر كسولات مدللات يؤدين المهمة بتثاقل، خصوصاً في غياب الجدة. أما الآنسة المعلمة ذات النفَس الطويل، فتفرغ درساً بين عشرة دروس كي تشرح بعض الآيات ومواعظها مبينة أسباب نـزولها. وهذه الدراسة التي تحتاج الكثير من التأني كانت تنجز بسرعة، من دون تعمق، فالفتيات يرغبن بالحفظ السهل المريح والثواب السريع.

**أدارت لميس مفتاحها بعد أن رنت الجرس، نادت خالتها باسمها. أخبرتها بإنجليزية متقنة أنها مشتاقة لها. تعالى ضجيج الصبية وصوت أختها ليلى، المنشغلة بذاتها، تتحدث في عدة مواضيع بآن واحد ولاتنتظر إجابة. كان زوجها يتساءل:**

**- متى تترك أختك هذه الحارة الضيقة، ستتأذى السيارة في المرة القادمة.**

**تناولوا الشوربة الساخنة، السلطة واللبن و"اليبرق" الممتاز، جلسوا منتظرين الشاي. راحت فطمة تلملم الصحون والملاعق المبعثرة. قال ابن أختها:**

**- عندما أكبر سأحضر خادمة وسائقاً وطباخاً.**

**مسح أبوه رأسه:**

**- سيكون ابني أغنى رجل في العالم.**

**لميس بالإنجليزية:**

- كلام فارغ.

استأنف الأب بفخر:

- ابنتي أحلى بنت في العالم.

أجابت باللهجة نفسها:

- كلام فارغ.

قالت ليلى لزوجها:

- أنت تدفعها لقول هذا.

ثم تحولت لموضوع بعيد:

- لماذا تلبس هذا الحذاء؟ فطمة انظري إلى حذائه، اشتريته إيطالي، لكنه صار مناسباً أكثر لأبو جمال الزبال، يلوي كل أحذيته من دعسة البنـزين غير مكترث لقيمتها.

قال الولد بدلال وترف:

- أبو جمال الزبال يحب خالتي فطمة، لماذا لا تتزوجه وتنجب زبالين وشحاذين؟

غضبت لميس:

- عندما كنت صغيراً كنا نضحك لمزاحك أما الآن فقد صرت كبيراً، ثم استأنفت بالإنجليزية: سخافة.

اعترضت أمها:

- لميس لم أحب تسريحة شعرك هذه.

- أتشربون الشاي؟

لميس:

- سأساعدك بالجلي.

علّق أخوها:

- تحاول لميس أن تبدو "حبّابة، وبطيخ".

أحضرت فطمة الشاي الساخن برفقة لميس، دخلتا ضاحكتين

لنكتة ما، قالت ليلى متفائلة:

- والله يا أختي لم أعد أصدق عندما أراك تضحكين، عيشي حياتك، أبو شامة لايعرفك، ولا يكترث بأحد، خبر من غاب من أهلنا وأقاربنا في علم الغيب، خبر عودة أخي أحمد غير مؤكد، وأنت تقضين يومك تفكرين بهم وتنتظرين! ماذا تنتظرين!؟ هل تأملين عودتهم؟ يا أختي، أعرف أنك لا تحبين أن يتدخل أحد في شؤونك، لكن مافائدة خدمتك لكل هؤلاء: عمي جميل، عبد الحكيم، لميا المجنونة، أبو رحمون، ما شأنك بأبو رحمون؟ إلى متى تفتحين باب بيتك لعمر المهووس وأم عاصم التي تقاسمك مصروفك، وغيرهم وغيرهم.. حتى عندما نريد اصطحابك في مشوار، تغيبين في ملكوتك، تشردين في ذكريات، الله وحده يعلم ما هي.

هبت لميس من مكانها، احتضنت خالتها، قبلتها من كتفها.

دندن أخوها:

- "إنت قلبك عايز له قلب".

قبّلت ليلى ابنها، والتفتت نحو زوجها:

- هل رأيت ثوب باسكال مشعلاني؟

- الله يشبعك، أجابها زوجها متوقعاً الطلب القادم.

قالت لميس:

- بابا أريد الاشتراك "بالانترنيت".

أجابها بحنان:

- لكنك تقضين وقتك في "الخلية الذكية" يا حبيبتي.

ردت مستهجنة بروده:

- بابا.. أريد الاشتراك به في البيت.

- سوف نرى.

**قال أخوها محتجاً:**

**- بابا، متى أركب سيارة "بورش" أميركية؟**

**ليلى مؤنبة:**

**- تعلّم الشغل على "الكمبيوتر" مثل أختك، أختك أخت رجال..**

**ردت لميس:**

**- مام، تعرفين أنني لا أحب سماع هذا، فالنساء نجحن في السياسة أكثر من الرجال.**

**قامت لتقبّل فطمة كمحطة لابد منها.**

**صار** لرفيقة المدرسة، صاحبة الحقيبة فخذان طويلان سمينان، يشكلان ثنيات تتحد ببنطالها عندما تركض، وعندما وقفت على الميزان دل المؤشر على الستة والستين كيلوغراماً، أما مؤشر فطمة فقد ارتجف عند الخمسة والثلاثين. لكن لم يطل صبرها فبعد عام واحد ملكت جسد أنثى. أخبرتها أم الحب أن لديها حوضاً جيداً وكتفين مكتنزتين.

ظلت فطمة تلعب في الحارة مع عمر وعاصم حتى صاحت أمها يوماً: "طولك طول الحورة وعقلك عقل التورة" فوقعت عن دراجة ابن عمها وضرب مقبض المقود خاصرتها، ظلت تعاني الألم إلى أن جاء إثبات كلام أمها.

حين شاهدت البقعة السوداء في السروال بعد آلام استمرت أسبوعاً، التزمت الصمت من الخوف واكتفت بتنظيف آثار الخطيئة إذ لا وقت لترف الأنوثة.

نـزلت حديقة القبو واحتضنت جذع نخلتها التي زاد طولها. كان يعتريها شعور غامض لأيام قادمة وقدر مجهول. حبل نذير يتدلى

مضفوراً من السقف ومتأرجحاً في الهواء. لم يعد بإمكانها تسلقه، فقد بدا أكثر ثخانة، خشونة، وصلابة مما هو معتاد. انفردت خيوطه المضفورة في نهاية كادت أن تلامس الأرض، قبضت عليه بأصابعها، ورفعت عينيها إلى فضاء الحديقة فوجدت الغيم قد أرخى لوناً رمادياً على الورد وثمر الشجر.

كانت، قبل أيام، تزيّن العربة الخشبية بسدادات الكازوز المعدنية المدقوقة كي تكون مسطحة، تثبّت نصف "شحاطة"[1] على "رنبيلة" القاعدة، كي تتحكم بتوقفها في المنحدر القريب من النهر، حيث يجري السباق بين الأولاد. وقبل أيام كانت تبحث عن قطعة صوف، كي تضعها تحت كفها لتمنع "القشب" أثناء لعبة "الكلال"، تطلب من أمها ومن أم الحب وسائل تسليتها بجرأة من له الحق، أما الآن فسوف ينخفض صوتها وتسكن حركتها، فالأنوثة هدوء وسكوت ورقة. اقتربت أمها:

- أين كنت؟ مع الصبيين عمر وعاصم كالعادة؟

أمام صمتها، أدركت الأم:

- إذن وجع بطنك منها.

قالت ذلك وتركتها بسلبية.

صاحت فطمة:

- لا تخبري أبي.

لكن إن لم تخبر أباها، فهل بإمكانها بعد الآن أن تتسلق ظهر أبيها، أو أن ترابط له عند الباب الكبير كي تتدلل عليه، طالبة مصروفاً إضافياً مقابل سماحها له بالخروج؟

عادت إلى حديقتها، قضت فترة بعد الظهر تحت نخلتها، كان شعرها الأسود الطويل يلتف مع جذع النخلة، كان لوجهها اللامع

(1) الخف المنزلي البلاستيكي.

عينان فاضحتان، سريعتا الانفعال، كانت جدتها تقول لها: وجهك مثل فيء الشجر، ثم تستأنف: مجيئك لأبويك مثل صحن الحمّص للشبعان من أكلة خروف محشي. صارت فطمة تتحدث وهي تميل رأسها إلى اليمين، قال لها عمر في آخر لعبة لهما معاً:

- عندما تتحدثين أرى الكلمات تنهمر من حاجبيك العاليين.

أما المحنة الشهرية فسوف تتحول إلى مجرد ضيق من بضع بثور تنبئها بقدومها، يومان في الشهر يعيقانها عن رياضة الجري التي حصلت فيها على العديد من الميداليات وشهادات التقدير. كانت المدرّبة لا تكفّ عن تنبيهها بأسف:

- سرعتك هائلة لكن خطوتك صغيرة.

حافظت فطمة على عباداتها وربما زادت قليلاً، لكن هذا لم يمنعها من الاستماع إلى البرامج الجريئة التي تتناول هموم الفتيات والفتيان وأغاني العشق والحرمان، فتزيد من توقها إلى أحد ما يراها أنثاه في هذا العالم، وإن لم تتجرأ مثل فتيات المدرسة التي أطلقت على نفسها "الفتيات الحالمات" أن تنظر، ولو مرة واحدة، في عيني طبيب العيون.

هؤلاء الفتيات اللواتي كن يقضين الصيف في قراءة مجلدات كبيرة لأعداد قديمة من مجلة "سمر"، أو"الشبكة" أو "الموعد"، يتابعن أخبار الفنانين، وجميلات العالم بالأبيض والأسود، يحلمن ببشرات مخملية لوجوههن تشبه خدود عارضات مجوهرات وعطور العالم، وقد يمعنّ في تقليد تسريحة شعر إحدى جميلات الصور. بأحمر شفاه أمهاتهن وريشة كحلهن العربي، الذي يملأ الوجه كحلاً قبل أن يرتسم على جفن العين، يتزيّنَّ ويرتدين قمصاناً بلون غامق كي يشرق الوجه أكثر، ثم يذهبن إلى صاحبة استديو التصوير القريبة من الحارة والتي أعدت صالة في بيتها لهذا الغرض بعد أن أفرغت

جداراً من أثاثه، ووضعت كرسياً وحيداً يقابله ثلاثة حوامل معدنية مصنعة عند حداد الضفة الأخرى، ثبتت عليها أوعية من الألمنيوم كانت تستخدم للطبخ ثم ثقبت بعد أعوام طويلة من الاستعمال، فأصبحت مناسبة كي يحشر فيها مصباح كهربائي يستخدم كإضاءة مناسبة لتصوير أهل الحارة.

**أكثر ما يقلق فطمة هو وقت العصر، ربما لأنها تحتاج أن تفرّج عن ضيقها. يقول الحاج عمر:**

**- لأن النبي دعا على من ظلموه في هذا الوقت فانقبضت السماء.**

**تناولت عائلة أختها غداءها، الفاكهة، الحلو، الشاي، ثم ودّعوها لينعموا بقيلولة في بيوتهم الحديثة المكيفة بهواء رطب بارد. هي لا تستنكر رفاهيتهم لأنفسهم، لأبنائهم، وإن سخرت في أحيان من فخامة سياراتهم ولباسهم، ومن لهاث النساء إلى تجهيز بيوتهن دائماً بأحدث المفروشات، وأحدث آلة كهربائية، ابتداء "بالميكرويف" وانتهاء بجهاز تطرية أسفل القدمين. تبارك لهم توازنهم، استمرارهم، قدرتهم على استعادة بعض من تجارتهم التي فطروا عليها، إلا أنها تضيق بنسيانهم، تتوق أن يفيقوا على واقعهم الذي يتأرجح، فيؤرجح مستقبل أطفالهم. لا تكفّ عن تذكيرهم، حتى باتوا يتهربون في بعض الأحيان من دعواتها، راجين أن تندمج معهم في حفل النسيان الذي يعيشونه في كل المناسبات، هل للنسيان حفلات؟ إذن هم لم ينسوا تماماً. تتابع صامتة حوار فارس الفنان الذي عرفته بعد الأحداث والأستاذ مخلص مربي الأجيال ابن حارتها، في زياراتهما القليلة لها.**

**أعدت القهوة وتجرأت مرة أخرى على فتح صندوقها المزدحم**

**بالذكريات التي تمانع مشاركة أحد فيها. تناولت "ألبوماً" فيه بعض صور أيام الثانوية. وضعت قدميها في البحرة متلذذة بقشعريرة أول غطسة واسترخت. مع تموج رسوم "البورسلين" في قاع البحرة، تتداعى السنوات وتلتمع العينان، ويخفق القلب.**

**في** ربيع ثانويتها رأت شاباً يبتسم لها، شاب غريب عن المدينة. كانت خارجة من المدرسة حاملة حقيبتها الثقيلة متفكرة بالواجبات التي تنتظرها: وظيفة رياضيات، موضوع إنشاء، حفظ علوم. أنهت درس الفتوة الإضافي جائعة مشتهية صحن شوربة ساخنة من أيدي أم الحب، والبطاطا المقلية، والزهرة المحمرة، والسلطة الربيعية.

أعاد الكرّة وابتسم. أسرعت إلى البيت حاثة السير.

حين وصلت وقبل أن تقرع الجرس، ثبّتت غطاء رأسها وتنهدت نافضة صورته من رأسها. لن تسمح بدخول العيب إلى البيت الكبير الذي يربي فتيات/ رجالاً.

لكن في اليوم التالي وقبل توقيت البارحة بساعة واحدة، حيث لا يوجد درس إضافي لمادة الفتوة، كانت خارجة من الباب الجانبي للمدرسة، عندما رأته خلف المشفى.

صار ينتظرها في كل الأماكن والساعات، إن حضرت درساً إضافياً، أو لم تحضر. إذا خرجت من الباب الرئيسي ستجده بانتظارها. وإذا تسللت من الباب الفرعي ستجده بانتظارها.

انفكت عُقد البيت الكبير، وصارت تفتش عنه بعينيها. وقفت مع الشاب خلف المشفى مستمعة إليه يتلعثم، متحدثاً في متفرقات لا أهمية لها واضعاً يده فوق فمه ارتباكاً وخجلاً. جزعها من أعين الآخرين جعل الفرحة مقطوعة الأنفاس، فقد رجعت إلى البيت ظانّة

أنها هدمت مجد العائلة، حاملة ندماً وخوفاً ممزوجين بلذة مجهولة.

بعد عام من محاولات الشاب الدؤوبة، قبلت أن تلتقيه. فصورته وهو يحدثها بتوق، هيمنت على ليلها ونهارها ودرسها، فكرت:

"لا بأس بلقاء واحد فقط".

لكن اللقاء الذي بدأ بقرار صامت: مرة واحدة لن أعيدها، تلاه لقاءات عديدة. فلهيبة البيت الكبير حدود، والحب يطغى، وللاكتشاف لذة.

- سنلتقي دائماً؟ قال الشاب خائفاً.

- لا أدري.

- إن أمي تفكر بترك الحارة.

- لماذا؟

- نحن من ملّة أبو شامة. أمي تخشى من انتقام أهل المدينة.

بقدر ما هالها الأمر فقد كان في لقائه، بعد ذلك، وقاحة ممتعة وامتحان شجاعة وتحد ضمني لعمها نذير وملة نذير.

كانت تصعد درجاً طويلاً كي تصغي إليه. يجلسان على سور منخفض. يحاول الشاب في الدقائق المسروقة اللاهثة التي تستطيع أن تبرر فيها التأخر عن البيت، أن يبثها مشاعره وشوقه. كانت أكوام جبيرات "الجبصين" التي تحمل أشكال أعضاء بشرية مختلفة، أرجل، أيدي، سيقان، أعناق، متجمعة كأشلاء بشرية لا تثير انتباه أحد، تحيط بهما من كل جانب. ظلّت فطمة، فصلاً دراسياً كاملاً، تتسلل لرؤيته دقائق معدودة، تستمع إلى آرائه الثائرة، وتذهب لترددها همساً بين بنات عمها. قال الشاب مرة لأكوام الجبصين المحيطة بهما:

- كلّ دلائل الحب هذه لم تكن دليلاً على حبها، أنا لست

ديكارت حتى أنقل الحضارات من عصر إلى عصر. لم تجدني قوياً ثابتاً كأصحاب الرسالات. أنا أقل من ذلك بكثير. أعتقد أن فطمة تستحق أكثر مني. مع ذلك أظنها لن تكتفي حتى بمن كان له عظمة الأنبياء.

أجابت فطمة شاردة:

- تعلقت بحبك.

جربت أن تملأ أيامها به، لكن عمرها لم يمتلئ إلّا بها. كانت تريد أن تعرف سبباً جوهرياً جعل الله في فضائه يخلق الإنسان.

غاب عنها في العام الثاني مئتي يوم ثم أرسل بطاقة ساخنة يخبرها عن شوقه: بيدك مفتاح بون. كان عنوان البطاقة: أيتها الغالية. أرسلها إلى بيت أهل لميا التي أوصلت البطاقة لفطمة بعد أن عبثت طويلاً بأعصابها المتلهفة.

حاولت أن تقرأ في غيابه مئتي كتاب، مما تتوقع أنه يفضل، راجية استحضاره، إرضاءه، محرومة مستكينة حزينة سئمة من ازدحامهم حولها.

تخرج من المدرسة تدور حول سورها، تصل إلى الدرج الذي كانت تلتقيه عنده متوقعة رؤيته في كل عصر.

**صورتهما معاً يضع ساعده على كتفيها وهي تنظر إلى المصور ضاحكة خجلة فتبدوكمن خطف هذه اللقطة وعاود البحث عمّن يراقبه. ارتدت قميصاً أبيض وتنورة طويلة زرقاء واضعة شالها الرقيق على رأسها، غمرت غرتها حاجبها ورمشها. بدت عروق قدميها في الحذاء القماشي الأبيض، ناتئة، كمن قضى ساعات واقفاً أو ماشياً. أما الشاب فقد بدا ببنطاله المقلم وقميصه الأبيض المرسوم على جيبه كتابة ما، سعيداً، مرتبكاً بتحمّل مسؤولية مبكرة.**

**أغلقت الألبوم بعد تنهيدة طويلة.**

**في بعض مساءات الخميس يزورها عمّاها عبد الحكيم وجميل، فكرت:**

**"سوف يرجوانها منذ وصولهما ألا تتحدث عن أبو شامة، ورجاله، وذكرى أحداثه، خصوصاً وأن يوم غد هو الجمعة الذي يصادف منذ آلاف الأيام تلك الجمعة التي حصدت أهل المدينة".**

**شعرت بحموضة تصعد إلى فمها وبفراغ المحيط، لكن الرائحة القوية المنبعثة من ياسمينات ملمومات في منديل خفف عنها المرارة فتنهدت ناوية ألا تخرج من تداعيات رفيق الدرج.**

**في** مشوارها اليومي خلف المشفى تولي الجبيرات ظهرها. على الدرجات الأولى كانت تنتظره كل يوم، آملة بمصادفة نادرة تجعلها تراه، ساعة في منتصف النهار، تتراءى فيها جميع الصور والكلمات، الابتسامات والخلافات. تداهمها عيناه الواسعتان بالخطوط والتجعيدات تلك التي تشكلت قبل أوانها. إلى أن جاء صباح، كانت السماء فيه تمطر زخات خفيفة مبللة وجهها وحجابها القطني. ادّعت عذراً وتهرّبت من بنات أعمامها منزوية في شارع جانبي، كي تتسلل بعد ذلك إلى الدرج خلف المشفى.. ولمحته.

عاد رفيق الدرج. قطرات تستقر تحت عينيه وعرق خفيف ينساب من جبينه، ودموعه تنهمر بهدوء. هطل المطر واختلط بالدموع، وقفا لحظات ينظر أحدهما إلى الآخر، ثم اندفع إليها وأخذ يهزها من كتفيها، ويقهقهان، يشدّ حجابها فتصرخ ضاحكة.

جلسا على الدرجة ولم ينتبها أنهما يعيقان نزول المارة وصعودهم. لم تنقطع أحاديثه عن ألمانيا وشوقه لفطمة، كان يفسح للمارين مجالاً ويعاود جلوسه مواصلاً تحديقه في عينيها، جبينها،

حاجبيها، يقبّل أصابعها ويسترسل في إخبارها عن دهشته وغربته هناك، فهو ابن العشرين عاماً. كان حلم السفر يداعبه ككل الشباب والهدف تحقيق وسواس السفر.

في اليوم التالي أتمت عاماً جديداً. استيقظت راكضة إلى نخلتها فألصقت ظهرها بجذعها لتقيس كالعادة الفارق بين حد كتفها وأول جريد. بفرح كبير صعدت حافية إلى البحرة الزرقاء، ملأتها وبللت شعرها وعنقها، وعندما تأمّلت وجهها في الماء، أرادت أن تقذف بنفسها، كي تقبّل صورة القمر المنعكسة فيه.

دبّرت مع أم الحب مؤامرة بالتعاون مع لميا كي تتأخر في العودة إلى البيت. تسللت إلى الدرج خلف المشفى فوجدته ينتظرها كما هو دائماً.

قدّم لها مفتاح بون، وعندما خفّت الأقدام حولهما، وضع يده على خصرها وخطف قبلة، ارتبكا. لم تنظر فطمة في وجه الشاب، راحت تتلفت حولها تبحث عمن يكون قد رآها أو باغتها متلبسة بالفعل، لم يرها أحد، فزمن القبلة كان أقصر بكثير من زمن النظرة.

لشهور ظل يقبّلها من خدها، عندما تفرغ أرض الشوارع من حركة المارين، في البرد الشديد، أو الحر وقت قيلولة الآخرين. أحاديث كثيرة لا تنتهي، رغبات مكبوتة، دموع وحرمان وعمر لم ينته. ظل يحدّثها عن الفقر والغنى، عن الصراع الذي بدأ ينشأ بين نذير وأبو شامة، عن قلق أمه ورغبتها بالعودة إلى ضيعة أهلها، وعن تاريخ الحروب بين الناس، عن مجازر سيقوم فيها أبو شامة انتقاماً وثأراً مريضاً، وعن أمور أخرى كثيرة، أما فطمة فقد كانت مستغرقة في اختراع مئات الأعذار كي تخرج من البيت الكبير، من دون أن يكتشف أحد غيابها.

قبل موته بيوم ذهبت تزور أمه الوحيدة. وضعت لهما وعاء

شوربة الدجاج الساخنة التي تسبح فيها قطع البطاطا الطرية وصفت صحنين من الأرز وكأسي ماء، قبّلتهما وذهبت معتذرة. تبادلا النظر بخبث مرح:

- لم تكن أمي بحاجة لهذا الاعتذار، فأنا أحتاج لبعض الوقت الدافئ، من دون أن يصطدم المارون بنا متذمرين فأرجع إلى البيت بكتف أزرق.

تناولا الطعام بشهية بالغة، ضحكا بجنون، صحنها في حضنه، تحتسي الشوربة بحذر كي لا ينسكب على بنطاله الجينـزي.

- من الممكن وضعه على المائدة التي أعدتها أمك.

قرصها من أذنها:

- هنا أكثر راحة.

بعد أن انتهيا من غدائهما حاولت فطمة ترتيب المائدة السعيدة، مفترضة أن البيت بيتهما والمائدة مائدتهما، عليها إذن أن تعيد ترتيب كل شيء قبل القيلولة، كانت تلملم الملاعق والقلب يطرق بضجة، حين فاجأها، حضنها ثم قبّلها من شعرها. أسندها برفق على طرف الكنبة. كاد نبضها يصبح طبلاً يدعو أهل الضفتين والجسر، خوف ودهشة، حب، شوق واكتشاف، وقبل كل هذا لذة عارمة. ما كاد ثوبها الأحمر يرتفع قليلاً عن ركبتيها حتى شهقت، في حين أسرع إلى غرفته ساتراً وسطه بكتابه. لم ير خصرها الذي حلم به طويلاً، لم تر صدره الفسيح. دقائق قصيرة... أسرعا إلى درجهما، أكملا لقاءهما المعتاد، لكن بعيون خجلة وارتباك خفيف:

- أشعر أني ظفرت من الحياة حياتها.

**ما زالت تستعيد أوراقاً "مجعلكة" في كيس قديم، قصاصات متفاوتة الأحجام والخطوط والحبر، مناديل ورقية كتبت على عجل، حفظت بحرص قليل، ورقة مقتطعة من كتاب تحمل تصوراً عن**

البيت الذي سيضمهما، غرفة نوم وجلوس، المقاعد بجانب السرير، الخزانة في الحائط مع المكتبة. تركت مساحات صغيرة على الجدران من أجل لوحات بعض الأصدقاء. هندسة حديثة بسيطة، ديكور يشبه أيامهما، أحلامهما، رغباتهما. على خلفية "نوتة" دراسية، كتب: لماذا تمسكين بيدي دائماً؟ لماذا تقفين بوجهي وتقولين: لا؟ بعد فراغ أبيض كتب: يابنت.. لا أريد أن أبيّض ما كتبت.

يوجد مظروف ورقي مصنوع بيد رفيق الدرج، ألصق صورتها في نافذة ورقية، رسم حولها بعض الأزهار والزخارف. جلست على سور حديقة المشفى، ممسكة بجذع يابس ضاحكة بعيون قلقة، كان غطاء رأسها كاشفاً عن عنقها. في أسفل هذه الصورة كتب لها "أحبك أكثر من أمس وأقل من غد".

تنهدت، كل هذه الوريقات حُفظت خوفاً من عين متطفلة أو غير متطفلة، يصيبها الجنون إن اطّلع أحد عليها.

ليس مفهوماً تماماً سبب رفضها فضول أحد لمعرفة تفصيل ما عن علاقتها تلك، وغيرها من أسرار حياتها، ربما لأن الشاب غريب عن المدينة، ولأنه أحبها، تريد أن تضم هذا الحب إليها فقط، أو لأن الشاب مات في عز حبهما، فجأة دونما تمهيد، بعد أن اعتادت وجوده، كوجود البيت الكبير والنهر، القبو والنخلة. كبرت مئات السنين في ذلك اليوم. وهي تستعيده كل يوم، وتتمنى أن تعيده بطريقة ما.. لا تعرف.

**رأته** يتدحرج على الدرج نفسه الذي كانت تصعده كي تلتقيه، يتدحرج بسرعة.. **بقسوة.**

- لا..لا.

عندما سكن على الأرض كانت هناك لطخة دم على شفته. سرعان ما هرع الناس، غطوه بشيء أبيض، لا تذكر تماماً كيف استطاعوا تأمين الشرشف بهذه السرعة.

طرقت باب أهل لميا، اندفعت إلى الذاخل، تمرغت على الأرض الإسمنتية السوداء:

- أريد تحطيم رأسي.

راحت لميا تسد فم فطمة بكفها كي لا يسمعها أحد. وتضغط رأسها إلى صدرها.

قطعت الجسر مع لميا متعثرة بمصيبتها ويأسها:

- ماذا أفعل من دونه؟ كانت تهلوس.

أدخلتها لميا البيت الكبير، سلّمتها لأم الحب:

- استري عليها وعلينا.

خرجت وهي تلعن أبو شامة ونذير معاً، وذلك الصراع الدائر الذي يبدو بلا نهاية، تابعت:

- إنه يأخذ أحسن الناس.

بعد موته لم تعد إلى الدرج مرة ثانية:

"لا أعرف ماذا أريد من العمر الذي أضاع العمر، أن ألتصق بهذه الأرض الجافة والبخيلة في آن؟ أن أتأمل أوراق الأشجار الصفراء تتساقط، تستقر على درجنا، على غبار حجرنا، هكذا دونما اكتراث لغيابه؟ تغيب شمس وتشرق في اليوم الثاني. هذه الأرض لا تستحق بعد الآن النور والدفء. وهل ستبقى هذه الدرجات مستقرة في مكانها بلا كتابة أصابعه عليها حين كان يتحدث؟ عادته التي يمارسها عندما يسرح في تأملاته، يحكي، يكتب في الهواء، يحكي ويكتب على أي سطح يصادفه، كيف يمكنني بعد ذلك أن أتحمّل مرور الوقت، حلول الليل والنهار، ولادة طفل، رحيل ميت؟

ببساطة، باعتياد يتناول أهل المدينة وجباتهم الثلاث، ثم يغسلون أسنانهم، يأوون تحت أغطية أسرّتهم، بدون أن يؤرقهم غيابه، كيف يمكنني أن أسمع أو أصدّق حلماً، أو أملاً بلا سخرية من الحالم؟ زواج بنات عمي الواحدة تلو الأخرى زيجات متشابهة فرحات راقصات، أو حالمات بوصول الدور لهن بعد الصبر والانتظار والولاء للجدة، تختار لهن العريس بتأن وحنكة لا غبار عليها، مطبقة هذا التأني نفسه على أولادها الشباب وأبنائهم، وكل من يمر أمام عينها الساهرة".

**لم تفهم سبباً لسرعة تغطية الموتى:**

**"أهو الخوف منهم أم تجنب رائحتهم؟".**

**ما زالت تتذكر الشاب، تبتسم بيأس، رغم مضي كل هذه السنين على موته:**

**"هو الأول، الأهم، آن أوان الاعتراف بذلك، كنت غضة، لم يكن معي إلا لميا، لم تكن مجنونة، وأم الحب المنشغلة بالجميع، أما بنات عمي فكن بعيدات عني".**

**وجدت نفسها قد انتقلت إلى المطبخ، استراحت على الدرجة الأولى من سلّم السقيفة مقابل الخزائن المطلية بالزهري الحائل والتي تحمل كل منها نافذة صغيرة لتهوية محتوياتها من المؤونة. على يمينها نافذتان عاليتان تطلان على منور قعره أرض قبو القبو وسقفه السماء. أعد أبو فطمة شبكاً حديدياً عند كل طابق خوفاً من سقوط أحد الأولاد. هو اليقظ بين أخوته، الأقرب لأمه، تلك الجدة التي ظلمت أبناءها بحصة نذير الزائدة من المحبة والامتيازات الأخرى، هذا على الرغم من اعتمادها الكلي على ابنها أبو فطمة.**

**كان يرتدي حذاءه عادة، واضعاً قدمه على هذه الدرجة. أزال**

الزمان كل أثر لحذائه. حقيبته معلقة فوق رأسها. ما زالت تحضر فيها خضرتها اليومية. جالت بعينيها فرأت عبر باب غرفة الجلوس الملاصق لدرج السقيفة صورة الجدة عتيقة جداً، معلّقة في أعلى الجدار قرب السقف. فكّرت فطمة:

"هكذا كانت تعلّق اللوحات، كي لا تكون بمتناول الأيدي والنظرة العابرة".

اسم الجدة فاطمة وأصل صورتها بالأبيض والأسود والرمادي، لكن كي تواكب العصر لُوّنتْ بعد موتها، فأصبحت عيونها زرقاء كالخرز، وخدودها بلون الطلاء الزهري الفاقع، أما فمها فبدا لطخة حمراء. انسكب بعضه إلى الذقن بسبب الشفاه الرقيقة التي لم تستطع استيعاب كم اللون الزائد. تطل الغرّة بخفر من غطاء رأسها، خرنوبية لامعة مجعدة تجعيدتين، قصيرة وأخرى أطول منها، في حين بدا ذقنها رفيعاً يتوسطه الطابع الذي أورثته لجميع أبنائها، وهم بدورهم أورثوه بإخلاص لأبنائهم، حتى صار هذا الذقن لقباً يرافق اسم العائلة: بيت "أبو طابع". أما الخدان فرقيقتان مطليتان بظلال حمراء. رغم هذا التشويه لطلّتها التي كان أصلها رمادياً، فقد بدت بجبينها غير المطلي شامخة في ركنها البعيد قرب السقف.

عدا صورة الجدة لايوجد على الجدار إلا مفتاح مصباح الكهرباء. مصباح الكهرباء هذا اختارته الجدة على ذوقها وجعلته يتوسط السقف المزخرف وقد أنار ليلة عرسها وانطفأ ليلة فقدت أبناءها.

تحتوي غرفة الجلوس هذه على الصندوق الخشبي وكرسي الجدة الواطئ الذي ماتت عليه ثابتة، رغم أنه بلا مسند. كانت تدق به الأرض، كآخر صرخة احتجاج على قسوة الحياة ووحشيتها.

أدارت فطمة التلفزيون الذي ثبّت على قناة وحيدة لا تتبدل.

تتابع أخبارها ومختلف برامجها، لأنها لاتثق بالقنوات الأخرى.

ليس لدى فطمة ما تفعله في المساء، فالاعتناء بأحبائها ينتهي ومراقبة الجرذ تنتهي، هو ينام وهي لاتنام.

قطعت الأمل الأخير من زيارة عميها عبد الحكيم وجميل واتجهت إلى غرفة نومها صاعدة درجها في ليل حجارته ومزروعاته التي "تتعربش" على جداره. قبضة باب غرفة نومها مرتخية، أعادتها لوضعها الأصلي، أزاحت غطاء سريرها الكتاني الملون بالأخضر والبيج والبني والبرتقالي الفاتح، عدلت وسادتها وقبل أن تنام أضاءت المصباح الخشبي القديم القريب من وسادتها وجلست تقرأ في ديوان شعر منسي بجانب السرير، لكن ما إن بدأت في السطور الأولى: لا تسألوا متى يعود بل اسألوا متى يستيقظ الرجال، حتى داهمها الشرود، زفرت مهمومة، أغلقته وأطفأت المصباح محاولة استحضار النوم.

بات الاستيقاظ باكراً من عاداتها التي لم تستطع مقاومتها، تعد ركوة قهوتها، تشعل المذياع تماماً كما كان أبوها يفعل، تحمل حقيبة الخبز المغبّرة دائماً بالطحين، فيها سطل الحليب النحاسي، وجزدان الفلوس، تتجه إلى الفرن القريب الذي كانت تتذمر منه في طفولتها، مبكّرة حيث يكون صف النسوة قصيراً، تشتري خمسة كيلو غرامات من الخبز توزّعها على مصطبة الفران وتجلس إلى جانب الرغيف الأخير تقضم بعض أطرافه المقمّرة، منتظرة بصبر وتأنّ أن تستريح الأرغفة وتبرد.

كلّ شيء يجب أن يستريح، ركبتاها، خبزها، رزّها، عجين فطائرها، لقمتها..

لملمت الأرغفة في حقيبتها بعناية، ثم حملت السطل النحاسي بيد وحقيبة الخبز باليد الأخرى، توجّهت إلى الدكان القريب، حيث

حان موعد وصول الحليب.

ذهبت إلى البيت وزعت كعادتها الخبز على ثلاثة أكياس، كيس تضعه للاستعمال السريع، وكيس في التبريد ليوم غد، والكيس الثالث في التجميد لبعد غد. خرجت مرة أخرى إلى الحارة، فاشترت الخضار من البائع المقابل لبائع الحليب. نصحته كيف يختار خضرته، فالباذنجان يُعرف إن كان يحتوي على البزر أم لا، من لونه وتموجات سطحه، راحت تسهب في نصائحها لأن البائع احتج حين رآها تقضم كل باذنجانة كي تتأكد من بياض قلبها وخلوه من البزر، أما جودة البطاطا فتعرف من قشرتها، ويفضل أن تكون أوراق البقدونس رقيقة وأعواده ضعيفة قصيرة، أما الملوخية فتكون ملوكية عندما لا تحتوي أغصانها على بذورها التي سرعان ما تنمو في الجو الحار، البستانية منها ذات الأوراق الخضراء غير الداكنة هي المفضلة، تتحدد جودة السلبين من "جيجته"، أما اللبن الذي تشتريه من بائع ثالث، فكان أكثر ما يغضبها أنهم يضعونه في السطول البلاستيكية التي تحس أن الجرذ قد لامسها.

في كل تسوق يدور الجدال نفسه مع البائعين الثلاثة حول عز القدماء وحسن تقديرهم بل ربما ترمي بكلمتين قاسيتين تجعلهم يبتسمون مقدّرين فلا يغضبون منها، يتحملونها خشية أن تذبحهم بذكرى يوم الجمعة، كما هي عادتها دائماً، كي لا ينسوا. مع ذلك يلجأون في أحيان إليها، يقولون:

- أنت مثل الجدة أو الأب أو أم الحب، هم لم يموتوا ما دمت موجودة.

- **هل** تعرفين ربط فك الميت؟

قالها أبوها يائساً وخائفاً. رفع سبابتيه وتمتم بصوت حاول أن

يكون شجاعاً:

- أشهد أن لا إله إلا الله.

ناداها كي تدلّك يديه، لكنها وضعت السماعات على أذنيها وانصرفت إلى ترتيب أشرطة التسجيل. تركته يتناول طعامه بمفرده.

صحت فجراً فوجدت باب البيت مفتوحاً على مصراعيه، أنوار أرض الدار والقبو مضاءة بكآبة، توقعت أنه رحل، كانوا يروحون ويجيئون منشغلين. عبد الحكيم يصطدم بجميل وأمها تصطدم بأم الحب، داخلين بأشياء، خارجين بأشياء، أعباء الدفن ثقيلة وكثيرة. تسلّلت إلى سريره فوجدته مسجى، إذن نسوا أن يربطوا فكه. عينا أبيها نصف مغمضتين، وجهه مرتاح ولا يحتاج أن يشد بالرباط، مضيء متردد كما كان دائماً، لا بسمة حزن، لا بسمة عتب. همست:

- إنه حي، إنه يتنفس..

من نظراتهم أدركت حجم مأساتها.

جاءها صوت أبو رحمون من مئذنته الجديدة: توفي إلى رحمة الله وعفوه، المرحوم الحاج..، صفعها اسم أبيها كأنها تخبر بموته لأول مرة، كانت نساء أعمامها يتحدثن عن تلقيهن للخبر، حزينات عليه أو على أبنائهن الذين غابوا أو قتلوا. أما أمها فقد راحت تتحدث عن حياته العادية، كان قد تعشى قبل أن يموت، وطلب منها تسخين الحمام، قص شعره أو حلق ذقنه.

"لن يحتاج إلى الحمّام بعد تغسيله الأخير، لن يحتاج إلى الحلاقة لأن شعره لن يطول بعد الآن".

بكاء، عويل، صراخ اعتيادي:

"لا يكفي".

سكتت لميا المجنونة ونامت عند المصطبة غير مبالية.

كانت نساء أعمامها يخطن كفنه، يمددن القماش فوق الأرض العارية، يمسكنه من الجهات الأربع ويسرعن في إعداده:

"لكن لمِ استغربت؟ يجب أن يربّطوا الميت كي يستعجلوا في دفنه وإكرامه".

**انتهى يوم السبت سريعاً، كانت تحشو ثلاجتها بالخضرة الطازجة متفقدة الرفوف والخزائن. قامت إلى صلاة العشاء على مهل، مع حنفية الماء الضعيفة غسلت قدميها بالتناوب وتلت دعاء الوضوء والاستغفار، ثم اتجهت إلى سجادة أبيها الخمرية اللون والتي ظلت تستخدمها رغم اهترائها. أدت أربع ركعات الفرض والوتر والسنة ثم تناولت المصحف من الطاولة المجاورة، كانت الإشارة عند السورة التي وصلت إليها ورقة قديمة من أوراق التقويم كتب في خلفها "عائشة بنت أحمد بن محمد الحنبلي هي من فواضل النساء أنشدت:**

يجري القضاء وفيه الخير ناقله    لمؤمن واثق بالله لا لاهِ

إن صابه فرح أو نابه ترح    فبالحالتين يقول الحمد لله

**فكرت:**

**"يوجد خلل في وزن الشعر، لابد أنهم أخطأوا في النقل".**

**قرأت لبعض الوقت ووضعت الكتاب بجانب السبحة، استغفرت ربها ودعت برجعة الغائبين.**

**رنّ الهاتف، أتتها زقزقة لميس:**

**- نام القمر؟**

**- حبيبتي لماذا تقطعين دراستك؟ ماذا كنت تفعلين؟**

**- كنت أداعب الكمبيوتر. ردت بخبث.**

**- ألا تكفين عن جرأتك هذه، أنت فتاة والفتاة يجب..**

**قاطعتها لميس:**

**- تقول ماما إن لديها جمعية غداً، تريدك أن تحضري وتتسلي.**

**- ألا تيأس أمك من دعوتي لاستقبال النسوان؟**

**- يوجد حلويات غربية، أعرف ستقولين كأس مغلي الشمرة بالجوز أفضل. تصبحين على خير.**

**أرسلت قبلاتها عبر الهاتف.**

**أوت إلى الفراش سامعة هسهسة الجرذ، حاولت تجاهل الصوت، لم تستطع، أبعدت الأغطية عنها وأدارت المصباح الكهربائي. الأبواب مغلقة والدرج طويل لكن صندوقها الذي ينتظر نبشها له يعزي وحدتها. مقص أبيها الحديدي الكبير والذي انقرض الآن، استغنى عنه في آخر أيامه بشق النفس، جواز سفره الذي ظل صالحاً بعد موته بعامين، بطاقة النقابة الحرفية مشهود فيها بكفاءته في "التخريج"، عمله الذي مارسه طيلة أربعين عاماً يومياً دونما إجازة أو عطلة إلا العطل الإجبارية، ربما أثناء هجوم أبو شامة على المدينة. تلقفت كفها صورة أبيها في مدينة أخرى، مرتدياً لباساً خفيفاً بلون فاتح صاعداً درجاً ما. متوسط الطول مائلاً للنحافة، قدماه صغيرتان، كذلك كفاه، أصابعه نحيلة تعينه على خيط التخريج، عيناه عسليتان مدورتان، شارباه قصيران لا يلفتان النظر.**

**ناولتها** إحدى النسوة جزءاً من القرآن الكريم ووزعت باقي الأجزاء. اخترن لها ما تقرؤه لأبيها كي تخفف عنه ضيق القبر في ليلته الأولى، أدّت ما أملينه عليها مساهمة في إتمام "ختمة" من القرآن قبل خروجه في صندوقه من بيته إلى الأبد، استمعت إلى الأصوات الباكية وهي تتحدث عن خير أبيها، خلقه وورعه.

في غرفة الغسيل جهزوه للقبر، ساعدهم الجيران، أصدقاء

الطفولة، عمر وعاصم. عندما نادوها كي تودّعه، شدّت أمها معها، لكنهم منعوها، أصبح محرّماً عليها رؤية زوجها بعد موته. منذ ذلك اليوم بدأت عدّة أمها أربعة أشهر وعشرة أيام. أسدلت الستائر التي لم يكن أبوها يسدلها، وأدت ماعليها في غرفتها ساترة نفسها حتى عن من تبقى من رجال العائلة.

المقبرة ليست بعيدة، فخلال ربع ساعة وصل أبوها، حيث مسكنه الجديد. ذهب محمولاً: كان بيننا فجراً وها هو مستلق وحيداً في غروب النهار نفسه، وجهه إلى القبلة ورائحة عطره الثقيلة تهرب منه. حملوه في نعشه المغطى بالقماش الأخضر والذهبي، أخرجوه من باب البيت الجانبي. كانت أم فطمة تلوّح باكية:

- مع السلامة.

قالت مطيعة:

- لا تبكي، فدموعك ستحرقه في قبره، دعي زوجك الآدمي يذهب كي يرتاح من الهم الذي تركه نذير على ظهره.

داروا بالميت على كثير من الأحياء والحارات ولم يتذكروا أن يسلكوا طريقه اليومي إلى دكانه الصغيرة. سلكوا إليها طريقاً آخر.

**كان أبوها يسلك طريقاً يبدأ بدرج معبد بأحجار ناتئة تنغرز في باطن القدم، يبلغ عرض كل درجة من درجاته مترين، يلتف الدرج التفافة كبيرة حتى تظن فطمة أنها ستعود إلى بدايته، تصطف البيوت على الجانبين فقيرة، عتباتها مشتركة مع البيت المقابل. مساحة أي من هذه البيوت من الداخل لا تتجاوز كثيراً مساحة الدرجة الواحدة. قد تطلّ منها ياسمينة أو دالية صغيرة، فأحواض الحديقة الضيقة لا تتسع لأكثر من نوع واحد. قد يشاهد صحن معدني صغير فيه فتات طعام للقطة، بجانبه وعاء ماء تشرب منه القطة والعصفور.**

حارة فارغة من الناس، يقطن بيوتها امرأة عجوز، أو عانس وحيدة، أو أرملة تقوم منذ الصباح لترسل ابنها لشأنه وتذهب هي كي تحضر الخضرة، الخبز، جرة الغاز، وتسدد إيصالات الماء والكهرباء. يسكن أيضاً حارة الدرج هذه رجل خائف ورجل خائف ورجل خائف و.. حكاية خائفة.

شهد هذا الدرج الهابط الصاعد ازدحاماً شديداً، خلال أحداث نذير وأبو شامة. كان أهل المدينة يتراكضون متصادمين، بسبب انعطافاته، فكل منهم يريد العودة إلى بيته، في الأعلى أو في الأسفل، ناجياً بروحه من رصاصة يطلقها رجال أبو شامة أو رجال العم نذير، في الهواء أو في الرؤوس.

تحتاج فطمة الآن إلى صعود هذا الدرج وهبوطه من أجل إحضار صابون الغار من الدكان الذي كان جاراً لدكان أبيها. تذكر صاحب الدكان الهرم، بالركض الذي ركضه مع أصحاب الدكاكين الأخرى. كان الرجال يتركون رزقهم داشراً، ويهربون خوفاً من رصاصة طائشة أو غير طائشة. أصبحوا يؤرخون كثيراً من الأحداث من تاريخ "الركضة" كذا، أو"الركضة" كذا، أما الرجل صاحب دكان صابون الغار وترابة الحمام وزيت الخروع لتقوية الرموش، فيرجوها ألا تتحدث عن تلك الفترة كي لاتوقظ ذكريات موجعة وذلاً شربه مع الجميع وصار في دمهم، عدا عن أنه خائف مثل الجميع، يريدها أن تسكت كما يسكت ويسكتون، كي لا يدعوه رجال أبو شامة إلى فنجان قهوة، فيغيب، ويتوه ذكره، مثل الغائبين.

داهمها صرخة الحاج عمر المعتادة: لن تُبعث ياحاج عمر. أسرعت إلى الشرفة، فلم تره، التقت عيناها بعيني عاصم في تفاهم صامت آسف لحال رفيق الطفولة المشترك.

**سمحوا** لأبيها الميت بإلقاء آخر نظرة على دكانه المغلقة بالستار الحديدي. كان القفل ينام على أرض الرصيف، بانتظار المفتاح الذي تأخر عن موعده لأول مرة. قبل أيام كان أبوها يشد "المشكلة"[1] على القماش وعلى ركبته، فيشكل بأصابعه وإبرته منحنيات من بند التخريج، تأتي دقيقة مثل ما يريد ويسعى.

رحل المعزّون. جدران البيت الحائلة اللون التي شهدت لقاءات وأفراحاً وولائم، ضحكات، نقاشات، مشاحنات، استطالت وضغطت على صدرها، لم تستطع أن تنشغل بالزوار الكثر، استيقظت ليلاً مستندة إلى مرفقيها، الليل فارغ تماماً، تنبهت إلى أن غطاء المخدة كان قميص بيجامة أبيها، ينامون، يتكئون عليها أحياناً، يضعونها في أحضانهم في أحيان أخرى. فكرت:

"هكذا يسرعون في تدبير الفائدة".

ركوة قهوته الصغيرة باتت تستخدم لسكب الكاز، منشفته التي كان يضعها على جبينه أصبحت ممسحة للأرض، أما بنطال بيجامته فقد سحِب مطاطه وأُعِد ليكون دوّاسة للداخلين. بحثت في الزوايا عن حكمة أبيها ومكدوس أمها، عن ابتسامة أخيها الصغير، ودفتر أختها المدرسي فلم تجد شيئاً، تذكرت أن قطعة زجاج دخلت إصبعها بينما كانت تلملم أوراق الكرمة، فتليف الجلد حولها سريعاً، وسكنت بين العظم واللحم:

"هاأنا أتآلف مع قطعة زجاج".

قرأت الفاتحة، ووعدت أباها:

"غداً تزهر الشجرة بأزهار الليمون الحقيقية، تعبق رائحتها في الشرفة، تثمر ليموناً حقيقياً، تعطي الياسمينة زهرات بيضاء، تنمو دالية المنـزل إلى أعلى، تخترق نافذة غرفة نومك حتى تصل إلى

(1) أداة للتخريج.

سريرك، تعود شجرة الصنوبر شامخة أمام الباب، فتسمح لبعض أشعة الشمس أن تدفئ البيت".

أبوها لم يدخل مخفر شرطة، لم يمثل أمام قاض، علّم كثيراً من الأولاد طريق المدرسة القريبة، شهد غياب كثيرين منهم مع من غابوا، تابع رعايته لمن تبقى منهم حتى الجامعة. لم يغازل امرأة، غير زوجته. تذكرت فطمة، رعايته لنمشة البدوية. كانت تأتي في الربيع لبيع الحليب، أسكنها في الضفة الثانية، فرض على البيت الكبير والأخوة من أهل الضفتين شراء حليب عنـزتها يومياً. ورغم إلحاحه على أم فطمة وعلى بقية النساء أن يمسحن محيط قطرميز السمنة في بيت المؤونة عقب كل استخدام، إلا أن رائحة السمنة المنبعثة من باب بيت نمشة البدوية لم تمنعه من زيارتها كل صباح، مبرراً سلوكه:

- كان للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، أحسن قدوة، مشوار يومي إلى إحدى النساء يشرب عندها حليباً خاصاً ممزوجاً بعسل، تصنعه نحلات يمصصن صمغ الشجر.

قام بتوزيع الكتب التي استغنى أولاد البيت عنها، على أولاد نمشة. أحضر سطلاً خاصاً لشراء حليب عنـزة نمشة، الذي لا يكفي كل أهل البيت، لكن رشفات قليلات منه تكفي للبركة والعافية. كان على الأولاد أن يقطعوا الجسر فجراً مترقبين خروج كلب نمشة الذي لم تستغن عنه، يناولونها السطل متذمرين من الاستيقاظ المبكر، يراقبون بيتها، نوم عنـزتها في فراشها.

**منذ أن مرض أبوها، ثم توفي، وأشجار الحديقة تحتار في حملها. في كل عام تحمل ثمراً جديداً، فمنذ عامين كانت شجرة الكريفون شجرة كريفون، أما بعد ذلك فقد أصبحت شجرة برتقال،**

ثم تحولت إلى شجرة نارنج، وفي هذا العام حملت ثمراً له طعم الليمون ومرارة النارنج، بينما قشره قشر الكباد ولبه ولونه لب برتقال ولونه.

هبطت الدرج ملتصقة بأغصان "العراتلية المتعربشة" على الأحجار الكبيرة. تفقدت الأحواض التي تحيط بأرض الدار، تتخللها أبواب الغرف، غرف لقضاء شتاء دافئ، وغرف لقضاء صيف بارد، أما حصة الربيع والخريف فستكون في الباحات المكشوفة على السماء. ملأت سطلاً من الماء وسكبته على رخام البحرة، هبطت الدرج عابرة القبو الثاني المملوء بأغراض الغائبين، خزاناتهم وأسرّتهم، فرشهم ومناشفهم. لم تطل الوقوف. لتفقد هذه الأشياء وقت آخر.

هبطت درجاً آخر ودفعت الباب داخلة قبو القبو. فكرت:

"لابد أن تربة أبي جفت، ترى هل يقوم عبد الحكيم وجميل بزيارة القبور كل خميس،كما يزعمان؟".

غداً تعد طبخة "مغمومة" وتدعو عمها عبد الحكيم وتسأله.

**عندما** دعتها أمها لتختار بين أشياء أبيها بعد رحيله، اختارت الكتب الصفراء المغبرة، وبعد انتهاء ضجيج أهل البيت لملمت أشياء أبيها الصغيرة ووضعتها في كيس صغير، قبّلتها وبكت:

"لن يسمعني. هل تعود سنوات الطفولة كي أرتبها وأقول لأبي: أحبك؟".

صباح موته لم تصدق أنه أصبح تحت التراب وحيداً في الصيف الحارق، وتحت الأمطار والعواصف في الشتاء البارد، بينما ما زال أصحابه يلفون سجاداتهم الصغيرة تحت آباطهم، متوجهين إلى البحرة القريبة عند الكورنيش الجديد، ليصمتوا معاً ساعة ثم يعودوا قبل صلاة العشاء.

**ارتدت معطفاً قديماً وحذاء خفيفاً، حملت الدلوين في كيسين أسودين، أغلقت باب البيت الكبير ومضت إلى سوق الخميس.**

**فوجئت بالازدحام، ضاق صدرها. جيل جديد من الأولاد يكبر بدون أن تطاله يد أبو شامة. رغم انهماكهم في الشغل يبدو على وجوههم الجوع والنعاس. بضائع مختلفة زهيدة الثمن ملأت الأرض المبقعة بالزيت وغيره. وضع أحدهم كتلة صوف أمامه، كأنه هرّبها من فرشة أمه، يريد بيعها وهو لا يكف عن التثاؤب. صبي آخر يبيع أشياء صغيرة: فتيلة قداحة، كبريت.. وينادي بصوت حاد على بضاعته. آخر يبيع علكة منتهية الصلاحية، وبضع سكاكر مكشوفة تبدو في هذا الحر غير مثيرة لشهية أحد. تربعت امرأة على خرقة وراحت تشير بيدها إلى ثوب قام ابنها بعرضه على الزبائن، ثوب مستعمل مقاس طفلة في العاشرة، قماشه بنفسجي اللون من النايلون اللامع، يناسب امرأة تريد إغواء زوجها بسعر رخيص.**

**وقف شاب في الزاوية اليمنى أمام كومة هائلة من الأخفاف**

المنـزلية البلاستيكية، كل فردة مربوطة بأختها بخيط، شحاطات حمراء، زرقاء، فستقية. صف من الهواتف الصينية التي ربما تكون معطلة أو ستتعطل بعد أول استخدام. أشرطة تسجيل تنوء تحت أشعة الشمس القوية، ينطلق من بينها صوت غناء يشبه العويل يتخلله إطلاق رصاص، لا بد أنه تسجيل لحفلة عرس.

اشترت بضع أعواد من الآس وضمتها في حزمة.

ركبت الباص الذي يصل إلى مفرق برية القبور. لم تطلب من أحد إيصالها بسيارته، خجلها من أن تثقل عليهم، كذلك رغبتها في تلاوة الفاتحة تاركة لملامح وجهها سجيتها في التعبير عما يعتمل في داخلها، دونما رقابة أو شفقة أو مشاركة.

ستبحث عن القبر في بداية المقبرة أو في نهايتها وفي وسطها في مكان ينبئ أن من يستلقي هنا هو أبوها. ظل شهراً كاملاً تحت التراب من دون شاهدة رخامية، لاشيء يخبر عنه سوى تحدب بسيط في التراب.

ها هي شاهدة قبره خلفها إلى اليسار، بينما كانت تبحث عنها في البعيد، شردت:

"قبر أبي يشبهه في حياته، ساكناً ومستوراً".

حجم قبره وسط، طول الشاهدة وسط، والتربة مشققة، عطشى، سكبت الماء بلطف على كامل السطح وغرزت نبتتها بهدوء آملة بعث قليل من هوائهم ونور نهارهم إليه. قرأت الفاتحة ونظرت إلى القبور، أمها وأم الحب وجميع الشباب الذين ماتوا ودفنوا أو لم يدفنوا. سحبت قدميها المتشبثتين بالأرض الترابية:

"ربما آن الأوان".

ستأتي محمولة لتستريح مع العائلة النائمة. كانت المرة الأولى التي تجرأت فيها على زيارة الموتى، مع أنها لم تنس أحداً منهم،

المقبورين تحت التراب والمقبورين في علم الغيب. غادرت المكان متحاشية الوطء فوق القاطنين، خفت بحركة قدميها وودّعتهم بفاتحة أخيرة.

عندما دفعت الباب الكبير للدار أدركها دوار مفاجئ، كانت صورهم تتداعى، كأنهم لم يغادروا، أو أنهم غادروا للتو، رمت الدلوين الفارغين خلف الباب الكبير، وجلست بجانب الحنفية تسترد أنفاسها بهلع:

"ما معنى هذا؟ يا رب لا توقعني في مكروه المرض، من يخدمني؟".

تذكرت آسفة أنها نسيت غداء أبو رحمون. قامت بتثاقل منادية ابن عمر كي ترسل معه على عجل الصحون المعتادة، صحن أبو رحمون وصحن لميا، من دون أن تنسى سندويش الولد الذي سيقوم بالمهمة. نامت من بعد العصر حتى الصباح التالي في استغراق على غير عادتها.

قضت يوم الجمعة تراقب التلفاز مستلقية على الكنبة، متوجسة من المرض.

قررت أن تقوم بزيارة الطبيب صباح السبت.

يبدو صندوق الجدة بالسجادة التي تغطيه من كل الجهات، مثل كنبة جلوس، أو سرير، أو ركن غامض، له أربع قوائم خشبية قصيرة على هيئة كرات محزّزة، تستند إلى البلاط بقواعد معدنية تشبه العملة القديمة، أما قفله فصفيحة رقيقة مزخرفة بكتابات ورسوم مقصوصة الأطراف تبعاً لمتطلبات نهاياتها الدقيقة، أوراق كرمة، أغصان نخلة، خطوط تميل باتجاه النهر أو الهواء.

في داخله بيوت خشبية ذات أشكال هندسية صغيرة، مرصوصة على الجانبين، صُمِّمت كي تحتوي الأشياء الناعمة التي ربما كانت

لأقراط الجدة أوخواتمها أو دبابيس شعرها حيث ما زالت الخدوش تنبئ عن محتوياتها الغائبة، وبين هذين الصفين من خصوصيات الجدة ينحدر فراغ عميق وعريض، يبدو أكبر حجماً مما يوحي به حجم الصندوق من الخارج، يحتضن ماضي أفراد العائلة الغائبة. لونه بلون الخشب النظيف، على جدرانه كتابات الأطفال، يتهجون الحرف والأرقام، ينشدون قصائد جزلة عن حب الوطن، والأوطان المجاورة. كانوا يجلسون ساعات على أطرافه ممسكين أقلاماً قد بريت بالسكين ليسجلوا على قلب الصندوق أسماءهم وأسماء آبائهم، أمهاتهم.. اسم النهر والمدينة. رسموا الشجر مائلاً باتجاه الضفة المقابلة. ما زال أثر دم أحد الأولاد ملطخاً طرف الصندوق، عندما اندس فيه مغلقاً الغطاء بعنف على إصبعه، كي يبتلع "الشوكولاتة" التي سرقها من درج جدته.

فتحت عينيها بتثاقل وزفرت. راحت تعد قهوتها، لم تكن لديها تلك الرغبة الأزلية بتناولها. فكرت بإعداد بعض الحلويات لعيد ميلاد ابن بنت خالتها، لكن القلق منعها من ممارسة متعها المعتادة، ارتدت معطفها وحملت حقيبتها مع مبلغ إضافي متجهة إلى عيادة طبيب تعرفه.

استغرق فحصها ساعة كاملة، بدأ من رأسها وانتهى بإصبع قدمها، كانت تستطيع أن تقرأ انطباعاً غير مريح في وجه الطبيب الذي يعرفها جيداً وتثق به، لم يخبرها شيئاً، طلب إجراء تحليل لغدتها الدرقية التي كانت تتضخم لسنوات بدون أن تكترث لها.

**دفع** زوج فطمة الباب في الواحدة ليلاً، جرّها من سريرها إلى عتبة بيته المقطعة بالأدراج ورماها على الأرض، ممسكاً رقبتها بكفه العريضة ضاغطاً بأصابعه. صرخ بكلمات كثيرة ونابية، كان فمه المزبد يتلعثم راغباً أن يكيل في لحظة كل الشتائم التي يحفظها،

وأن يصفعها بها:

- زواج مثل السجن؟ تحمّلت غرورك، من تظنين نفسك؟ سوف أكسر هذا الرأس وهذا العناد وأربيك و..

نامت ليلتها تقاوم اختناقاً وألماً شديداً في عنقها، مستحضرة بغضب شموخاً ضائعاً ومتخذة قراراً طالما أجّلته. في الصباح نظرت أختها ليلى إلى عنقها متسائلة عن هذا التضخم الذي لم يكن موجوداً في اليوم السابق.

في ليلة زواجها قبّلها أبوها من جبينها مبللاً رموشها بدموعه، ثم أرسلها إلى العرس بسيارة صفراء مزينة للمناسبة. كانت حفلة عشاء رقص فيها الجميع وقفز أمام عينيها فيما كانت تفكر بالليلة القادمة.

تذكرت يوم تعرفت عليه. كانت تبحث عن طريقة تتخلّص فيها من "الزن" الذي تمارسه الجدة ليل نهار، عن الفتاة الطيعة التي تتزوج وتنجب.

نظرت إلى عينيه الكبيرتين وصدره العريض، قاطع إعجابها قائلاً:

- أتتزوجينني؟

فوجئت وقبل أن تنبس بحرف قال:

- ستسألينني كيف أطلب الزواج من فتاة لا أعرفها، لكني سمعت عنك وكنت أرغب أن أتعرّف عليك.

ثم بلهجة ساخرة:

- كي أكسر غرورك الذي يتحدثون عنه، لكني عدلت الآن إلى قرار الزواج.

شردت:

"إنه يشبه أبطال يوسف السباعي".

خُطبت وانشغلت بالعريس الذي كان يتردد يومياً على العشاء يتبادلان الحديث عن تجهيز البيت والزواج ممتلئة حتى الثمالة بتفاصيل الجهاز والذهاب يومياً إلى الخياطة الكذابة. باتت تتكلم مثل الجارات عن كذب الخياطة وشطارتها بتركيز القبة والخصر مهما كان الموديل الذي تختاره، أما علة التأخير بموعد إنجازها الثوب فسوف تغفرها لها.

تقيس الثياب العديدة التي يحتاج كل منها إلى ثلاث مرّات من التجريب حتى يصبح جاهزاً، ثم تكوى وتوضع ضمن كيس من النايلون، وتعلّق في الخزانة لامعة جديدة بانتظار يوم الزفاف. أصابها الملل من كل شيء، آن لها أن تتزوج وتنجب طفلاً، كما أنها نسيت الكتب التي قرأت كرمى لرفيق الدرج.

في الصباح الباكر للعرس غادرت مع زوجها إلى البحر، تاركين النهر والضفتين وحارة زوجها والمدينة.

جلس بجانبها مهموماً:

- كيف يكون العسل؟

لم تستطع أن تفهم سبب صراخه باكياً كي تساعده على هذه المهمة الصعبة فأمه تنتظر هاتفه. قال لها:

- العملية صعبة في البداية فقط، وبعدها ستكون لذيذة جداً. هل كانت تحتاج أن يطمئنها، أم هو من كان يحتاج إلى السكينة؟

تعرّت وبعثرته، كل عوالمه التي عرفها وأدركها هربت إلى مكان مجهول،كل شيء ممكن، إلا أن تنظر في عينيه، وتتعرى بهذه البساطة ثم تستلقي بجانبه، فكر، يجب أن ينجح، ابتلع ريقه:

"أريد أن أهرب من هذا الجسد المستفز"

هرب منه، إليه:

"كيف سأقضي الوقت وهذا العمر مع فتاة بهذه الغرابة؟ أريد

أن أبقى، أريد أن أهرب، أعود، أبتعد، من هذه تماماً، من أنا حتى أكون زوجاً لها.. دوّختني؟"

شدّها إليه، باغتته الرائحة وألوان الحنطة، كان يقطب مثل هر:

- رائحتك مثل رائحة طين الأرض، كأن فيك حكايات وأساطير.

أشفقت عليه، وضعت يدها على فخذه مربتة، تنهدت، لملمته بلمسات خفيفة، استجمع قواه، عاد يتساءل:

"هل هو هش إلى هذه الدرجة؟ هل ابنة النهر والحارة والبيت الكبير قادرة على أن تتغلب بأنوثتها على جبروت رجل اعتاد تشرد أهل بلده، أناس محصّنون بألف حصن؟

في غفلة منه ومنها انتهى كل شيء، لم تكن العملية صعبة كما ظن. جلست القرفصاء أمام حقيبة السفر وأصرت بعناد أن تنزل قطرات دمها على الأرض. أطالت القرفصاء فوق قطرات الدم شاردة في النخلة وفي رفيق الدرج، في البيت الكبير وأم الحب ولميا.. ارتجفت حين قال:

- امسحيها بخرقة واحتفظي بها.

نظرت إليه شزراً، كانت قد نسيت وجوده تماماً، استيقظت صفحات من كتاب قرأته. ولّاها ظهره وصفق الباب، غاب عنها ثلاث ساعات. شعرت بغربة الليل والبحر وصوت الغناء البعيد.

إنها ليلتها الأولى من الزواج وهي تقضيها خارج المدينة بعيداً عن النهر والنخلة وأم الحب.

لم تقدّر أنه تركها كي يتصل موقظاً أمه قائلاً:

- قوّسنا الضبع.

ثم يستمع لزغاريدها معاتباً ومشجعاً في آن واحد:

- أمي لِمَ هذه الزغاريد؟

كان يرغب أن يسمعها الجميع، فهي زغاريد أم العريس التي انطلقت لتعلن عن رجولة ابنها، وعذرية كنتها.

لم تكن أيام العسل القادمة عسلاً. قضتها في الذهاب إلى الطبيب لتعالج التهابات أبت أن تغادرها، قالت أم الحب:

- لم يكن بإمكان رحم فطمة قبول عَرَق غريب عنها.

باتت في الشهور التالية تشتاق للبيت الكبير وأبيها وأم الحب، أمام مهاترات الحماة وبناتها اللواتي لم يمللن "النق" على أذن زوجها، في كل قضية:

- تنظيف البيت والطبخ والترتيب ووو..

أمام مواهب الأم والأخوات وتكتلهن في وجه فطمة. لم تصمد:

"أصابني الملل منهن ومنه".

كان لزوجها أختان عانسان تتخاصمان أياماً طويلة على خلاف حول مسح أرض المطبخ، أو طريقة إعداد طبخة، إحداهما تضع باقة البقلة لكل أوقية لحمة، فيما الأخت الأخرى تفضل باقتين لكل أوقية من اللحمة، وهكذا تظل الأولى تضيف اللحمة والثانية تضيف البقلة حتى تضطر العيلة أن تأكل بقلة باللحمة مدة أسبوع. قضت الأختان وقتاً مسلياً بالكنة الغريبة، باتت حديث وشوشاتهما عندما تتصالحان. في الصباح وبعد التناحر على الجلي أو على إعداد الفطور كانت كل منهما تشتكي للأم تواطؤ الأخرى مع الكنة.

كانت قادرة على سماعهما مكتفية بسخرية أولاد أخوة الزوج من العمتين، فيما حموها الفران، صاحب العينين الساحرتين والصدر الواسع، على رأي نساء حارته، يقضي وقت العمل غامزاً كل يوم امرأة من زبائنه كي تأتيه في دور النسوة، كآخر زبونة تريد شراء الخبز. وعلى دفء بيت النار وأكياس الطحين، يناولها حصتها

من الخبز ومن الحب، صارفاً العامل الذي أدرك أخيراً سبب تأجيل معلمه تكنيس الفرن إلى الصباح.

يقال إنه داعب معظم نساء الحارة وربما ترك بعضهن حاملات ثمرة الحب المسروق، مع ذلك لم تغضب منه امرأة، مارس هوايته في اصطياد النساء من دون تفكير طويل، فالحلم كان أكبر: العودة إلى الأوطان.

يستدعي الذكريات في السهرات، ويحكي..

منذ سنين خرج من أرضه مع من خرجوا، كان الأمل أن يعودوا بعد سبعة أيام. سكنوا قلعة المدينة، وعلى سفحها استقروا شهوراً. ثم صاروا يتنقلون إلى أن انتهوا في بيوت طينية صغيرة، قضوا الوقت في تطيينها منتظرين الإعاشة في نهاية الشهر، سكّر ورز وصابون وأحياناً زيت وسمنة وأشياء أخرى. كل يوم يستقبلون شهيداً، يحزنون عليه بشدة واحدة، وينسون بالسرعة نفسها. عاشوا قريباً من حارة فطمة فامتزجت عاداتهم بعادات المدينة، وضعت النساء أغطية على رؤوسهن وتعلم بعض أولادهم في مدارس المدينة.

انصرف هؤلاء اللاجئون إلى الحلم بالتعويض الذي سوف يصرف لهم، على أراضيهم المغتصبة، فهذا المال يسمح بالسفر، أو بالزواج، أو بتوسيع دكان صاحب العيال ويسمح بأحلام كثيرة صغيرة وصغيرة.

سكنت فطمة في الطابق العلوي، في شقة تطل غرفة نومها على فرع ضيق من حارة اللاجئين. كل من سكن هذه الحارة بنى بيته على مزاجه الخاص، بيوت لا تخضع لقانون أو لعرف معماري، أو اجتماعي إلا قدر الوفر المادي الذي تهيأ بصعوبة لصاحب البيت. فحين يصبح لديه ألف، يعمر غرفة بألف، وحين يزيد عدد أولاده،

يقسم الغرفة الكبيرة إلى غرفتين وقد تضيق الأحوال به فيقلب غرفة الأولاد دكاناً وينام الأطفال على سقفها، يبيع فيها ما قد تحتاجه الحارة. وهكذا تحولت حارة اللاجئين إلى أسقف متفاوتة الارتفاعات، ونوافذ واطئة صغيرة ذات زجاج محجر وستائر ملونة ليست أكثر من خرق ملابس قديمة ومهترئة، قميص قطني ألصق الكم بالبدن ببراعة، بنطال من الكتان البني فُردتْ الساقان وخيطتا معاً لتشكلا غطاء للشرفة أو النافذة، قميص الزوجة النايلوني، هُيئ بتدبير وخبرة ليكون ستارة، توضع وراء باب البيت المفتوح ليل نهار، تستر صاحبة البيت من جهة وتسنح للهواء ولكل الضيوف الدخول في أي وقت يشاؤون.

أكملوا لفطمة غرفاً كانت فوق السطح، جمعوا كل ما يملكون في إعدادها لابنة أخ العم نذير، ظانين أنهم سيغمرونها بالسعادة، فهذه أول عروس في حارتهم تنام على أثاث خشبي، تواليت زينة وكنبات، ثلاجة كهربائية وأرض بلاط وجدران مدهونة وبعض الزهور الاصطناعية.

كانت تتعثر بكثرة الدرجات الموجودة في الشقة جرّاء المواعيد المتفاوتة لبناء غرف الطابق الأعلى، وعشوائية بناء غرف الطابق السفلي. تحتاج أن تصعد ثلاث درجات كي تدخل غرفة النوم. أما المطبخ فلكي تصل إليه كان عليها أن تهبط خمس درجات تتخللها مائدة صغيرة، فهو ليس أكثر من سقيفة بنافذة حديدية تطل على سطح الجيران، كانت تخشى أن يتوفر مال مع الجيران فيكملوا عمارة السطح ويشاركوها النافذة وطاقة الحمام.

رغم افتقادها للشجر واتساع أرض الدار التي تربت فيها، لم تكره الحارة الجديدة، رأتها حالة نادرة من الدفء والتحام أناس جاؤوا من قرى ومدن مختلفة بلهجات متباعدة ليأتلفوا في حارة

القلعة. حلمت طويلاً في فترة الخطبة بشعر الأرض المغتصبة، دندنة العود ورائحة البيارات البعيدة، أخبار الأبطال وقصص الشهادة والاستبسال، قرأت كتبهم وتابعت أخبار النضال هناك.

كل ذلك تبدد. وقضت فترة الزواج تنتظر عودة الزوج من غذائه مع زميلته في المقاهي الجبلية وتصبر على حماتها التي لا تكفّ عن تذكيرها بأن الشقة ليست لها بكاملها وستأتي الكنة الجديدة المطيعة لحماتها أولاً ولزوجها ثانياً، وتقاسمها البيت وتجهيزات المطبخ.

كانت ليلى تحتج دامعة:

- كيف يمكن لأختي أن تؤسس بيتها وتنجب أطفالاً؟

انـزوت فطمة في بيت الزوجية، تحاول تجميله. كان لمديح العم أبو الزوج، تأثير داعم، حين يغارد شقتها هابطاً إلى بيتهم يقول:

- كمن كان في حارة الضفة الأولى، ثم هبط فوراً ليجد نفسه في سوق الخميس.

كانت نساء حارة القلعة يغسلن ثياب أولادهن وأزواجهن وينشرنها متفاخرات. تراقبهن فطمة وتفكر بأنهن عكس نساء حارتها، يستعرضن أنوثتهن التي تتمثل لديهن في أصابع أقدامهن ورائحة عرقهن، يرقصن وهن يطبخن أو يغسلن أو حتى وهن يؤنبن أولادهن، يكرمن الزائر بصحن "محشي" أو"صيادية" أو"روشتاي": ليس هناك أهم من الطعام والغذاء. قد لا تلمس فرقاً كبيراً بين ملوخية زادة أو ربيعة، أختي الزوج العانسين، لكنهما تتصارعان ساعات وقت تحضيرها، بل ربما تظل الأختان شهوراً في قطيعة تامة بسبب خلاف حول طريقة تخفيف النار آخر دقيقتين من إعداد الرز. أما عندما تتصالحان فسيكون أول حديث بينهما هو طريقة إعداد "المفتول" والذي ينتهي بغضب ربيعة بسبب شهادة

الحاضرين أن مفتول زادة أكثر جودة من مفتول ربيعة.

أصبحت فطمة قريبة جداً من أمها التي تستمع إلى مشاكل بيت حميها بتعاطف أدهشها:

- حين أكون مثل بقية النسوة سأجد كل الحنان والحب، أما المشاكل التي أوقع نفسي فيها، فلن أجد من يصغي إلي ياأم الحب.

**عادت إلى بيتها متثاقلة، رمت حزمة مفاتيح الأبواب على الكنبة: مفتاح القبو، وقبو القبو، السطح والباب الكبير.. رغم أن الأبواب كلها تفتح بالدفع الخفيف، ومع ذلك فإنها لاتتخلى عن حزمة مفاتيحها. طوت غطاء رأسها ووضعته في الخزانة بين كيسين من "الدريرة"[1] التي اعتادت رائحتها في زوايا خزائنها، صارت الرائحة تقترن لدى أنوف الجميع بقدوم فطمة. بدأت تلازمها منذ إعداد حقائب زواجها.**

**قالت لها جارتها العانس وهي تتشمم أغراضها:**

**- أنت دخلت دنيا، أما أنا فلم أجرب، الله يسامحها أمي حرمتني، وهي تعيب كل الخطّاب، حتى انفضوا جميعاً. أنت تعلمين كم كانوا كثراً، تقول منبهة: أمي رفضت أحدهم لأن مستواه ليس بمستوى خالي، ومرة لأن أهل العريس متكبرون، وأخرى لأن أخي بالجيش وقلبها غير مشته الفرح.. حتى ظللت بجانبها مثل قطرميز مخلل. بعد صمت استأنفت بخجل:**

**- أنا لا يخطر جنس الرجال على بالي..**

**غمزتها فطمة:**

**- اطلعي من هذه الأبواب، وجارنا عاصم؟**

**- سيتصالح اليوم أو غداً مع زوجته.**

(1) نبات له رائحة قوية.

نظرت فطمة إلى تجاعيد وجه جارتها، غير مصدقة أنها بلغت الستين وما زالت تستحي، مع أنها تحب سيرة الرجال.

تحاول فطمة أحياناً وسط انشغالها بأخوتها، أقاربها، بيتها الكبير أن تخمن شكل حياة هذه الجارة. تشاهدها تمسح نافذة غرفتها التي تطل على الشارع مرتين كل يوم، حال لون خشبها الفستقي، تقشر وتداعت عوارضه، لا يمكن لزجاج النافذة أن تصيبه الشروخ على عناية صاحبته به، ومراقبتها الشارع من خلاله. كانت تأتي في بعض الأحيان إلى فطمة تسرد لها أخبار الجيران، وأخبار الحارة التي تلي حارتها:

- زوجة جارنا فلان غسلت في الليل، بينما كان زوجها ينتظر عشاءه فضربها و"حردت" عند أهلها أسبوعاً.. بنت جارنا فلان، هناك بعد عمود الكهرباء، بجانب بيت المختار، تريد أن تكمل تعليمها، لكن أخوتها "حلفوا يمين" أن تتزوج ابن عمتها.. أم فلان ولدت البنت التاسعة يا لطيف، "شو" صعبة، لكن زوجها يدّعي الصبر ويقول: الحمد لله.

قد تروي نكتة ما في سياق أخبارها:

- ماذا يقول ابن بلدنا قبل أن يخرج من بطن أمه؟

- ماذا يقول؟

- يقول: يا الله، يا ساتر، تغطوا يا نسوان.

تودّع فطمة فجأة هكذا مثلما تأتي.

تمددت على السرير من دون أن تغيّر في ترتيبه، سرحت في السقف الخشبي المزخرف والمقطع في أشكال هندسية متداخلة، معيّنات، مربّعات، مستطيلات، مثلّثات.. متاهة. شعرت بالعطش:

"عليّ أن أتجه في الصباح إلى الطبيب كي يسحب رشافة من نسيج الرقبة".

لم تجرب هذا الشعور:

"لا بد أنه مؤلم، المهم أن لا يسبب لي الغثيان".

استدارت على جنبها شادة طرف غطائها عليها:

"علي بعد الاطمئنان على نتيجة التحاليل، أن أعثر على وسيلة أصل فيها إلى هذا السقف وأنظفه.

شعرت بثقل المهمة:

"بالتدريج، على مهلي، كل يوم أنجز تنظيف سقف غرفة، ربما يحتاج أن أخلط دواء الغسيل مع زيت الكاز حتى أزيل هذا الغبار المتراكم. من أيام أم الحب لم ينظف، كانت تجنّد الشباب والصبايا لهذه المهمة: غناء، طعام، ضحك وشغل".

رأت القمر هلالاً قريباً جداً من نافذتها:

"كأنه سيطرق الزجاج، ويضيء الليل، بعد قليل سينعكس في مرآة تواليت الزينة المقابلة للنافذة".

لكن ما عكسته مرآتها كان باب خزانة ملابسها مرسوم عليه كوخ وشجرتان، جبل، طريق صغير، فوجئت، كل هذه السنين لم تلحظ حقيقة هذه اللوحة أو تفصيلاتها، كانت تراها خطوطاً ملونة تمّحي علائمها في كل تنظيف:

"تحتاج خزانتي إلى ترتيب". زفرت.

ما زال معطف الجوخ وكنـزتا الصوف والتنورة المكعبة، وشالها الأسود ملابس تحتل واجهتها، تصرّ أن تتأخر في شتائها، وتبكر فيه أيضاً محاولة أن تختصر بقية الفصول، تفضل الربيع والخريف، لكنهما قصيران ضائعان بالفصلين الكبيرين، تتعاطف مع زيارتهما السريعة للنهر والحديقة، فشجرة الليمون في الربيع تنشر

رائحتها عند الفجر، وتنفض، بقية النهار، زهورها تحتها. تمتلئ أحواض الورد بالأزهار التي تشبه لون التوت الأحمر، ما إن يتشكل زرّها حتى تتفتح تويجاتها على آخرها، ترتخي وتحترق أطرافها بالشمس، ثم تسقط. تريد فطمة أن تشهد مراحل تفتحها وتشبع منها، أما ياسمينة قبو القبو:

"تلك المجنونة، أين تذهب بنفسها؟ لم تعد المساحة تكفيها طولاً أو عرضاً".

تدلّلّ كرمتها فتغرقها بماء السقاية، تميزها عن بقية أشجارها، أفردت للعريشة نصف مساحة الحديقة، وجعلت ظلّها يغمر تراب الحديقة وبعض ماء النهر.

تركت مرآتها عائدة إلى القمر، وجدته قد انـزوى وبات من الصعب التقاطه إلا من خلال أضلاع الخشب، لم ترغب في ذلك، سوف تتعثر عيناها بلوحة إعلان الخلية الذكية. تغضبها بضوئها الصناعي وحجمها الكبير، تذهب سكينتها فيتحول سهرها إلى أرق.

شربت، على عجل، قهوتها الصباحية، ومضت إلى العيادة تقاوم خوفها وألمها.

استلقت باستسلام على طاولة الفحص، دفعت رأسها إلى الخلف. أدخل الطبيب إبرته الحادة في غدتها وأخذ يسحب بتأن، أغمضت عينيها غير راغبة برؤية السقف.

سيطر شعور شنيع بالاختناق على كل جزء منها، انصرفت كي تسلو:

"لميس الآن في مركز الخلية الذكية تقدم برنامجها، أخذ إعداده من وقتها عاماً كاملاً، الصبية ما زالت صغيرة لكنها شفرة ذكاء".

ما زال الطبيب يسحب على مهل:

- لم تنجح الرشافة الأولى، قالها بلا مبالاة، اصمدي، سنحاول ثانية.

أخذ يغرز إبرته ويسحبها مرة ومرة. وضع ما حصل عليه بعد الجهد في عبوة خاصة وأوصاها أن تحملها بحذر.

نزلت الدرج متجهة إلى مخبر التشريح المرضي ملبية الأوامر. كانت حاملة نسيج عنقها في عبوة متطاولة محكمة الإغلاق ولحرصها عليها من اهتزاز أصابعها الضعيفة تعثرت أكثر بالطرق المليئة بالحفر:

"هذه الطرق غير معدّة لمشي حاملي أنسجة أجسامهم، في عبوات خاصة مهددين في كل لحظة بالانفجار".

وصلت إلى خندق من صنع البلدية، مغطى بجسر خشبي من لوحين رفيعين، ترددت قليلاً قبل العبور، لكن قبل أن تحسم أمرها امتدت يد من الطرف الآخر تساعدها، قبلت المساعدة ثم نظرت في وجه صاحبها، كان المختار، سارعت:

- أهذا أنت؟

أجابها بود واستحياء:

- كيف صحتك فطمة؟ لماذا هذا الهزال؟

قالت ساخرة مشيرة بطرفها إلى حقيبته:

- ما الذي تسجله هذه الأيام في دفاترك؟ هل أبقيت في سجلاتك أحداً حياً، ممن فقد يوم الجمعة؟

أشاح بوجهه ثم قال برجاء:

- كل الناس نسيت إلا أنت، كأني من قتلتهم، أنت تعرفين أن المصاب طال أخي وابن أخي وخالي وأولاده جميعاً، لكنه عملي، إنها اللقمة.

- لا فائدة منكم، سوف تجعلون لقمتكم من لحم أبنائكم، هل

**سجلت أيضاً اسم أخي أحمد؟**

**تابعت طريقها إلى المخبر، وهي تتمتم بالكلمات الأخيرة:**

**- أخذوه صغيراً مبللاً ثيابه ببوله.**

**أعطت الممرضة البيانات اللازمة، اسمها، عمرها، وضعها العائلي، صمتت. أعادت الممرضة السؤال..**

**قالت:**

**- مطلقة.**

**- العمل؟**

**"بم تجيب؟"**

**- لا أعمل.**

**عادت إلى بيتها بانتظار النتيجة التي ستأتي بعد يومين.**

**أخيراً** حدث الحمل، من دون أي أعراض.

ابتسمت الممرضة وهي تبشر فطمة بقدرتها على الإنجاب:

- مبروك أنت حامل. أين زوجك حتى أبشّره؟

تريد ثمن البشرى، فطمة تريد زوجها الذي يكثر من السفر، بجانبها لاستقبال الخبر معها. أخذت ورقة التحليل ومضت.

بعد قضاء كل هذه الأشهر في حارة الزوج منصرفة خلالها لمحاولة التفاهم مع أهله وجيرانه وأبيه والزوج الملتهي عنها متهماً إياها بالغرور لأنها لم تتأقلم مع أختيه وأمه وبيتها المشبع برائحة الدهان المنحل بالماء وببقع الإسمنت المنسية والمتشبثة بالبورسلين وبالأرض، ومن معجون الزجاج الطري المتناثر على النوافذ معكراً صفاء الفضاء. لم تنجح في تخفيف إنارة ضوء النيون المبهر، عند كل زاوية وكل درجة، والذي، رغم شدته، لم يساعدها على تجنب تعثراتها الكثيرة. لم تحب طعامهم المطبوخ بالزيت، وإكثارهم من

تناول الخضار من الصباح الباكر حتى المساء:

"أين طعام أم الحب؟ اللبن المصفى والبيض البلدي، الزبدة والعسل؟".

هذا ما جعل وزنها يهبط عشرة كيلوغرامات مرة واحدة. قال الطبيب:

- لديك اكتئاب.

أوصت أم الحب أن تعد لها أصصاً من أوراق حديقة قبو القبو، كي تملأ بيتها وممرات حارة زوجها بأوراق خضراء تألفها. احتاجت إلى شاحنة صغيرة كي تنقل ثلاثين شقفاً من الفخار المزروع بأنواع: "ورق الليمون وقلب عبد الوهاب والسجادة، الهوى الناعم، وظهر السلحفاة والكريتون، شبيه القماش الذي يبيعه أعمامها للقرى". لكن رغم عناية أم الحب الدقيقة في اختيار توقيت النقل الذي يناسب هذه النباتات، صباح منتصف الربيع، إلا أن أصص الفخار بمزروعاتها، صمدت عشرين يوماً فقط، ثم ذبلت دفعة واحدة وماتت. يومها أعادت فطمة أصص الفخار الفارغة إلا من التراب ودخلت البيت الكبير قائلة:

- توب العيرة ما يدفي.

أجابتها أم الحب:

- لم تحبي بيتك الجديد كفاية، لذلك لم تحبه المزروعات.

- أريد العودة إلى البيت الكبير.

- البنت في بيت زوجها.

سارعت ليلى:

- لماذا تطلبين من أختي أن تصبر أكثر، يوجد عشرات يتمنون الزواج منها إذا تركت هؤلاء الناس.

تمنت أن تنجب طفلاً ثمرة منها، توقعت بعد انتظارها للطفل

أن تكون الفرحة أكبر، لكن لا شيء تغيّر في مزاجها بعد الحمل، سوى أنها نامت.

نامت تسعة أشهر كاملة.

كانت تستيقظ لتشرب كأساً من الحليب، أو تمضغ مغمضة العينين حبة فاكهة، ترسلها أم الحب التي لا تستطيع مغادرة البيت الكبير، كي تراقب نوم فطمة طوال ثلاثة فصول. لم تعد فطمة تكترث كثيراً، أو تصحو لخروج الزوج مع زميلته في العمل في مهمات ميدانية طويلة غالباً ما تتخللها استراحات قهوة، أو غداء في مقاهي الطرقات ويعودان بجداول إحصائية عن محصول الحبوب، غير صحيحة، منقولة عن ألسنة الفلاحين. يغسل يديه ووجهه عند أمه، يتعشى من طعامها، ثم يصعد كي يتابع التلفاز يائساً من إيقاظ فطمة النائمة، وحين يحين نومه يندس في السرير مراقباً تنفسها حتى ينام.

يرتدي في الصباح قميصاً من الحرير الطري الذي ينسدل على صدر عار فيغوي بعض النساء اللواتي يصادفهن في مهماته الإحصائية، بينما تستغرق فطمة في نومها غير عابئة. كانت في يقظاتها النادرة تلاحظ ثنيات جبين حماتها تقطب في وجهها، مستهجنة هذا النوم السرمدي، لكنها تتجاهلها وكأنها ليست لها. تشم في نومها رائحة خبز عمها أبو الزوج عائداً من فرنه حاملاً الأرغفة لزوجة ابنه النائمة حامل الحفيد.

كانت الأختان العانسان تصعدان درج شقتها حافيتين، تلحق كل منهما بالأخرى، إحداهما تدير المفتاح والثانية تراقب الطريق، تنسلان إلى غرفة نومها، وتبدآن بحذر، طقسهما المحبب. تنشران رائحة عطورها على جسديهما، تمشطان شعريهما بأمشاطها، ترتديان تنوراتها، تعبثان بشالاتها، تجرّبان أخفافها، ترتديان قمصان

نومها، ترميانها بين حين وآخر بنظرة ساخرة ثم تمضيان في لهوهما العابث. كانتا في المرحلة الأولى من حملها، تمارسان هوايتهما تلك حذرتين من احتمال يقظتها ومباغتتهما، أما بعد ذلك فقد باتتا لا تكترثان، حتى إن تحركت قليلاً في فراشها، بل صارتا تتسللان في جميع الأوقات: ظهراً، عصراً، ليلاً، فجراً، تدسان صور فطمة المثقبة بإبرة الخياطة، وصورهما السليمة، في جيوب سترة أخيهما، واثقتان من أن نومها كان بالتأثير الحاسم لسحرهما، فقد أنفقتا مصروفهما الضئيل عند الشيخ الذي وعد بقطع المحبة بين أخيهما وزوجته المتكبرة، طالما لم تنقطعا عن تزويده بالمال. كانت تلمحهما في حلمها، غير مندهشة، ثم تستدير كي تستريح، حاملة بطنها الكبير أمامها من جهة إلى أخرى، متلفلفة بغطائها السميك. تغمض عينيها وتعود لنومها الطويل العميق.

أما الجنين الذي تكوّن في رحمها، فكانت أوامرها الإرادية واللا إرادية تعطى كي ينمو سريعاً، تحاول في لحظات يقظتها النادرة جداً توقع الشكل والمراحل:

"ما الذي تحمله هذه المشيجة الذكرية والمشيجة الأنثوية من صفات؟ هذه الصبغيات الثلاثة والعشرون التي قرأت عنها. تحاول تخيّل المضغة وتحرّكها نحو فتحة الرحم الساخن الذي تهيأ لتعشيش ابنها، فأعطاه ما يكفي حتى تشكلت المشيمة، ورغم أن دمها بدأ بإعطاء الجنين ما يحتاجه من الغذاء والأملاح والأكسجين اللازم، طارداً كافة السموم واهباً الحصانة لابنها، إلا أنها لم تصح أبداً كي تطمئن على استمرار حملها وعلى قوته، بل ربما كانت تحاوره في نومها.

صار الجنين في أسبوعه الثامن عشر، أصبح بمستطاع أصابعه الإمساك واللمس، وبإمكانه ابتلاع ريقه، وسحب لسانه وتدويره في

حلقه، تقطيب حاجبيه، صارت لثته حمراء طرية، له عينان وأذنان:

"ماذا سيرى في حياته القادمة وماذا سيسمع؟ ما الذي سيعتاده وما الذي سترفضه عيناه؟"

مبادلات وحوارات، عمر واتصال بين فطمة النائمة وجنينها المجهول. لكن ما إن توضح الجنين المجهول في رحمها، وبات يكثر من الحركات التي لم تكن سابقاً أكثر من "تكة" ساعة، حتى أدخلت نفسها في سبات تام.

**يومان قضتهما ترص الحواجز الترابية التي شكلتها حول الأحواض، تسقي ورق الليمون وورق قلب عبد الوهاب، الختمية والعراتلية المتعربشة. ترقب الجرذ وتستقبل أقاربها بكؤوس شراب التوت المثلجة، ناسية أو متناسية نتيجة التحليل:**

**"علام أستعجل معرفتها؟".**

**تنادي لميس، تقرآن معاً ديوان شعر منسياً في مكتبة البيت الكبير، تقرآن سورة مريم بلا تجويد. تودع الصبية حتى الباب مرددة مليون وصية، تستمر في متابعتها خارجاً نصفها من الباب الكبير، حتى تغيب عن عينها، تناديها:**

**- عودي بعد انتهاء حصة الدرس.**

**بانتظار عودة لميس شاغلت نفسها بالبيت.**

**كانت حاملة باقة أزهارها المريضة في يد، وفي اليد الأخرى كيساً مملوءاً بثمار حديقتها العجيبة، كريفون وليمون ونارنج وعنب والتي تحمل طعماً متشابهاً حامضاً ممزوجاً بمرارة خاصة، عندما قرع الباب بيد صاخبة ومرحة، توقعت:**

**"عمي عبد الحكيم وعمي جميل".**

**فتحت الباب بيدين مشغولتين.**

- معروفة، فطمة تحوش الحديقة، صاح عبد الحكيم.

دخل جميل متأملاً النوافذ، الدرج، سور بيت الجيران:

- بعمري لا أنسى العيشة في هذا البيت.

رجعت لميس، تتفقد خالتها في طريق عودتها من مركز الخلية الذكية:

- خالتي أنا أحب هذا المركز لِمَ تمقتينه؟ تشير بنظرها إلى الضفة الأخرى إلى ما بعد الجسر، تسترسل: هناك أرى العالم، ألتقي أصدقاء من جنسيات مختلفة عبر الانترنيت، الهندي، الصيني، الياباني، السويسري، الفرنسي، أحب وجوههم الملونة: سمر وبيض وسود وشقر، أحس وأنا معهم أنهم يحبونني وأحبهم.

تجيب فطمة بصوت منخفض:

- أبو شامة هدم بيوت الضفة الأخرى وعمّر هذا المركز و..

- خالتي أبو شامة لا يعنيني، أقصد أني أريد أن أعرف كل شيء، هذا المركز وسيلتي، كي أطلع على اللغات والأديان والمدارس والبيوت والبلاد، أحب الاكتشاف.

- تحبين السفر إليهم؟

- أحب السفر كي أتعلم، هم أراهم عبر الشاشة.

- هل هذا يكفي؟

- طبعاً يكفي، تهمني عقولهم، ثقافتهم، فلسفتهم.

- ألا تقلقين عليهم من حدوث مكروه؟

- لا أفكر هكذا، لِمَ لا تأتين معي مرة وتزورين المركز، أطلعك على صورهم؟

قال عبد الحكيم:

- هل يمكنك أن تلتقطي معلومات عن الطيور؟

- طبعاً هناك موسوعة "CD" وصلت السوق حديثاً، يمكنني

أن أحضرها لك وأحصل على أية معلومة تريدها عن الحمام والطيور.

- أريد أن أعرف معلومات عن الهزاز والمنقط و..

رشق حبة فستق في فمه. رفعت لميس كتفيها محتارة. جاء دور جميل الذي قال بهمس متوقعاً هجوم عبد الحكيم عليه:

- يوجد نسوان في المركز؟

- لدي عبر الشاشة صديقات من جنسيات مختلفة عندي صور لهن سوف أريك إياها.

- أريد نسوان بلحم وشحم، تقول صور!!

قال عبد الحكيم وهو يشرب من كأس التوت:

- والله يا فطمة عينك تشوف جميل كيف يبيع النسوان القماش، كل "ما عم يكبر عم يقل عقله أكثر". يقوم من مكانه كي يقلّده: "شوفي ها القماشة المسيها، بالله عليك مو مثل خد البنت؟" لا يكتفي باستعراض المساطر[1] بل إنه مستعد أن يفرد كل البضاعة من أجل أن تمكث الزبونة دقيقتين زيادة فيما "يدبّل" لها بعينيه.

انتبهت فطمة وهي تضحك مع عميها وابنة أختها أن لميا واقفة عند الباب الكبير الموارب تستجمع بصاقاً كثيفاً في فمها كعادتها، ناوية قذفه في جهة ما:

- لميا ادخلي، خذي هذا العصير للقطة.

تناولته لميا مهرولة إلى الخروج.

قال عبد الحكيم ساخراً:

- كلنا يعرف أنها من سيشرب هذا العصير وليست القطة.

- ترى أين أرادت أن تبصق؟

(1) النماذج من القماش.

**- هووو، "بلشنا"، السلام عليكم.**

**بعد أن غادر العمّان البيت الكبير اقتربت لميس من خالتها، مسحت شعرها:**

**- متى تقصين علي قصة لميا؟**

**- لميا متدلية من سور الجسر، عمر يجر ذيل الورق الذي ركّبه الأولاد له ويركض: لن تبعث يا حاج عمر، الأطفال يلحقون به مصفقين.**

**أيقظوها** من نومها كي تلد، كبر بطنها كثيراً، وحين ولدت كان طفلاً أصفر صغيراً. استيقظت بصعوبة قاتلة، كي تلد كما أرادوا، وظلت طوال ساعة الولادة تصرخ، ليس من الألم، بل بطلب الرجعة إلى النوم. قالت ابنة خالتها وهي تنظر في وجه الطفل:

- إنه يحتاج إلى تغيير دم.

لكن الحماة نظرت شزراً قائلة:

- ولد مثل الفلة، لايحتاج شيئاً.

لم يعش الطفل "مثل الفلة" طويلاً، ولو عاش لكان مختلاً، بكت فطمة على كتف ليلى:

- هذا ما كنت قادرة على إنجابه؟ قطعة لحم، شقفة لحم.

دفع أخو زوجها باب البيت داخلاً عليهم، حاملاً كيساً أسود، تكومت في أسفله قطعة قماش خضراء صغيرة.

سألته حماتها ببساطة:

- أحضرت الكفن؟

كانت رائحة الصابون التي تنبعث من قطعة اللحم، قبل دفنها،

تلطم مركز التنفس في دماغ فطمة، راح الزوج يبكي نادماً:

- فطمة سنبدأ من جديد.

لكنها أجابت متأكدة:

- فات الأوان.

ثم شردت:

"أخذ الموت رفيق الدرج، وأول طفل، وأرجو أن يأخذني أيضاً".

**فجر يوم نتيجة تحليل الغدة، توضأت قلقة وصلّت ساهية. رددت الأدعية المعتادة لحماية أولاد أخوتها وأحفادهم، الغائبين والحاضرين. طوت ثياب الصلاة، وهمّت بالقيام عن السجادة، فدارت الدنيا. ارتمت على الأرض بقسوة.**

**لم تصح من إغمائها إلا على صوت الجرس الخارجي، أحست بقادم من عالم بعيد. قامت مسرعة كي لا تتأخر عن الطارق المنتظر، كان مراقب عداد الكهرباء.**

**ناولته الكرسي وهي تترنح، طلبه كي يصعده ويسجل آخر قراءة للعداد. وقفت تنتظر:**

**"نتيجة التحليل لا تنتظر".**

**أغلقت الباب وراءها. واتجهت ببطء إلى مخبر التشريح المرضي.**

**تمهّل سائق باص النقل الداخلي، منتظراً كي تصعد من جهته. أخذ الأجرة منها، ليرتان. جلست وراءه مباشرة بقدها النحيف. تابع مسيره، الطرقات فارغة في ساعات الضحى، شردت:**

**"على أية حال لن تزدحم كثيراً في الأوقات الأخرى".**

**كان السائق في ملكوته المرح يرقص فوق مقعده مع اهتزاز الباص الفارغ إلا من بضعة ركاب، محيطاً نفسه بزينة كثيفة من**

البلاستيكيات الرخيصة، عصافير ملونة ملصق عليها ريش عصافير، عناقيد عنب مختلفة الأشكال والألوان، ذكّرتها بعنب حديقتها الذي يمتصه العصفور قبل أن ينضج، مفاتيح، عيون زجاجية زرقاء تحمل عبارات ضد الحسد. أمامه صورة تحجب عنه بعض الرؤية. في الأعلى تحذير، "ممنوع التدخين تحت طائلة الغرامة"، إلى الأسفل توجد حكمة السائق الخاصة، "حاقد على النساء"، مخططة بأحرف ملونة. على المسند الذي يقابلها كتبت ذكريات بحبر كثيف، أحرف أولى من أسماء شلة مدرسة صعدوا الباص في مناسبة أو بلا مناسبة فأمعنوا في حفر الذكرى مستخدمين السكين في تسطيرها. فوجئت بأن السائق قد خلع خفه البلاستيكي ودعس دواسة البنـزين بأصابع عارية، أطالت مراقبتها له مثلما يحدث حين يشدها تفصيل ما. انتبه السائق، المتابع لمحيطه عبر مراياه، إلى دهشة فطمة، فابتسم بمودة وعدم تكلّف. فكرت:

"زادت مودتهم بعد هجوم أبو شامة، متفاهمون رغم صمتهم".

دفعت باب المخبر ذا الأبواب الأربعة، الذي ابتدعه الأوربيون ثم استغنوا عنه و"بطلت موضته".

عندما رأتها الممرضة رحبت بها بعطف شديد متجنبة النظر في عينيها. توجهت مسرعة إلى غرفة الطبيبة التي كانت ترص حجابها بحرص، سألتها عن النتيجة، فأجابتها مشيحة بوجهها أنها أرسلتها إلى الطبيب. لم تلح، قطعت شارعين بدقيقة واحدة متجاهلة شتيمة أحد السائقين النـزقين، كانت تلهث، تستعجل المشي على زفت الشوارع. لم تقرأ اللافتات المعلقة كعادتها، ولم تنتبه للسماء أوللشمس أو لمواقف الباص ولم تراقب انتظار الناس، لم تداعب طفلاً يلعب ولم ترم السلام على البائعين، لم تتأمل أباجورات النوافذ المخلوعة ولم تشتم البلدية التي تخرب الطرقات وتقطع

الأشجار. لم تفطن لكل عاداتها.

رأت الطبيب يشرب قهوته متأملاً صورة شعاعية تحت ضوء النيون محيطاً نفسه بطقس من الهدوء والنظافة والموسيقى، فكرت:

"يعيش كما يحلو له.. من حقه".

تعثرت بارتفاع عن البلاط عند عتبة العيادة، فتمتمت بكلمات اعتذار جعلته ينهض مسرعاً كي يساعدها، فتأكد الهاجس لديها:

"وراء هذا التعاطف، خبر سيء".

قال بشفقة مزعجة:

- لماذا تأتين بمفردك دائماً؟

سألته حاسمة حديثاً جانبياً:

- هل الورم خبيث؟

بعد صمت قصير، أجاب بصوت ضعيف:

- أملنا بالله دائماً.

أرخت جفنيها، نظر إليها. كان استحضارها للصبر يبدو من أصابع كفيها التي تفرك أطراف أكمام معطفها، من حركة رموشها السريعة، من حرصها على أن تخفي ضعفها، من رغبتها أن يحملها بساط سحري، ويرميها في قبو قبوها عند ضفة النهر. تريد أن تفكر بغدها، غد الأشجار والبيت الكبير، مصير الناس، لميا والحاج عمر والأستاذ عاصم ولميس وفارس، انصرفت تماماً عن محيطها.

**ليلة** موت الطفل شربت علبة حبوب كاملة ونامت. حملوها إلى المشفى، ثم أعادوها في اليوم نفسه، وضعوها في سريرها وغادروها صامتين.لم تحاول الانتحار مرة ثانية، لكنها أفهمتهم جميعاً أنها تريد الصمت، التزموا الصمت كما أرادت فيما راحت

في عزلتها تنهي كل أسبوع علبة مهدئات.

"انصرف أهلي لأشغالهم حاملين شعوراً بالتعاطف، ما معنى أن أنجب طفلاً ميتاً؟".

أرسل الزوج وأهله لها ورقة الطلاق مبللة بدموعهم جميعاً، الأب، الأم، الأختان العانسان.

بعد بضعة أسابيع بدأت تتعافى وتنسى موت الطفل والطلاق.. ثم شيئاً فشيئاً انشغلت مع أهل البيت بالصراع الذي ما زال دائراً بين نذير وجماعته وبين أبو شامة.

**أدارت المفتاح دافعة الباب، كان الدلوان اللذان سقت بهما تربة أبيها يستندان على حافة البحرة، ينبئان أن استخدامهما ما زال وارداً. لم تدر أنها جلست بجانبهما بقية النهار، حقيبتها على ركبتها، وأوراق التحليل مطوية في يدها، فكرت:**

**"دوامة السرطان.. كيف سأتدبر أمري؟ من يمكنه من أخوتي أو أولادهم مساعدتي؟ كم سأعيش؟ خافت من الكلمة، يبدو أن الورم في أواخره. ربما حمّام ساخن يوقظني، علّ ما قاله الطبيب كان كابوساً".**

**جلست القرفصاء مقابل بيت نار الحمام. وضعت عود ثقاب في بابه بعد أن أرخت خيطاً من المازوت، منتظرة اشتعال النار. جلوس صبور، انتظار مخلص لعود الثقاب الضعيف كي يلتقط المازوت أو يلتقطه. وكالعادة التقط الرأس الذكرى.. الأب أو الطفل أو رفيق الدرج.**

**استجابت النار وارتفعت، فاتجهت إلى خزانتها المفعمة بروائح العمر، أخرجت منشفة للرأس و"برنساً" سميكاً يحتويها مرتين أو أكثر، وخفاً من قماش. وضعت كل ما تحتاجه على كرسي واطئ**

**بجانب حمّامها، مطمئنة إلى وجود الصابون والمشط.**

**فكرت فيما تفعله ريثما يتوهج جو الحمام. غسلت ركوتها وفنجانها، واضعة الملاعق الصغيرة في ركنها الخاص، معجون الجلي والاسفنجة في الطرف اليميني على بعد تحاول أن يبقى ثابتاً. أغلقت الصنبور جيداً وربتت بكفها رخام المجلى بحركة لا هدف منها. سحبت كرسياً وجلست أمام الغسالة، ترقب ثوبها ومنشفتها يتصارعان بمفردهما في الحوض الكبير، الذي يتسع لأكثر من هذا بكثير. قضت زمناً طويلاً تتأمل، من خلال الطاقة الشفافة للغسالة، دوران الغسيل الأبيض مع الرغوة الكثيفة.**

**علقت ثوبها ومنشفتها على حبال الغسيل الكثيرة المنتشرة جيئة وذهاباً في دروب بعدد دروب بلاط أرض الدار، تمددا في مجرى الهواء وحدهما.**

**عشرون** بنطالاً للشباب وعشرة للرجال، ثلاثون قميصاً متفاوتة الألوان والأشكال، ثياب داخلية رجالية بيضاء، حبلان طويلان لحفاضات الأطفال المثلثة والمربعة. كانت فطمة تنشر الغسيل بتأن كما تفضّل أمها، فتسوي ملاءات الأسرّة جيداً على الحبال وتعلق قمصان الشباب من الكتفين مثبتة سراويلهم الداخلية كما تلبس، أما سراويل الفتيات الداخلية فتضعها متلاصقة مموهة، لا كما تلبس، كي لا تحرّض المارّين على التخيل.

كانت أم الحب توقظ الفتيات باكراً جداً في الصيف، كي ينجزن الغسيل وينشرنه قبل أن ترتفع شمس الضحى المحرقة، وعندما توقظهن، تكون قد أنجزت معظم الأعمال فلم يتبق إلا مهمات الصبايا التي لا بد أن يشاركن بها، من أجل بيتهن المستقبلي، بمباركة صامتة من الجدة.

أم الحب هذه التي لا ولد لها ولم تتزوج،كانت أماً للصغار والكبار في الحارة، أحضرها الجد من إحدى سفراته وهي لم تتجاوز السابعة. رغم أنها قليلاً ما تقبل الحديث عن أصلها، تقول إن أهلها كانوا يصلّبون على كل شيء قبل أن يُحرقوا، وأن من انتشلها ورباها كان يضع فخارة أمامه أثناء الصلاة. كانوا يحبونها، من دون أن يجهدوا في معرفة جنسيتها، أو لغتها، أو دينها. حبست نفسها عامين كاملين في البيت حين غاب الشباب والرجال ولم تخرجها إلا جارتهم، عندما استنجدت بها كي تساعدها في سحب أصابع ابنتها من مكنة الكبة. يومها أمسكت أمها الأصابع المقطوعة، وضعتها في منديل، ودارت عليهم جميعاً كي يروها، لكن البنت لم تبلغ التاسعة عشرة إلا وكانت أم الحب قد وجدت عريساً لها قائلة لأم العريس هذه الفتاة تربيتي، ماسكة بيد الصبية ذات الأصابع المقطوعة، زغردت أم العريس وقبّلت كنتها الجديدة لمباركة أم الحب هذا الزواج.

رغم أن أم الحب وأم الصافي، زوجة محمود العاجز، هما الغريبتان عن الحارة، ومن المتوقع أن تجمعهما غربتهما، إلا أن كثيراً ما كانت أم الصافي تكيد لها، بسبب تقدير الجميع ومحبتهم، معيّرة إياها بالمثل القائل: "أولاد مالك وخرى بأذيالك"، ثم تتسلى بأكل وريقات الخس، فتبدأ بالوريقات الخارجية إلى أن تصل إلى الوريقات الداخلية، فتتأنى في تناولها، ثم تأكل "القرمة" من الأسفل إلى الأعلى، حيث اللقيمات تزداد طراوة، متابعة تلقين أوامرها لمن حولها، كما كان يفعل زوجها، سيدها، بها عندما كانت "الخادمة البهيمة" عند الجميع.

ظلّت أم الحب ترعى أبناء أحد أعمام فطمة، طوال العمر، متحملة لؤم أم الصافي. حمل العم ابنه يوم توفيت زوجته قائلاً:

- هذا ابنك يا أم الحب.

ثم توفي تاركاً الحمل كله على ظهرها.

كان لحضور أم الحب، رغم ضآلة جسدها، هيبة تحسدها الأمهات عليها.

في الفجر البارد الذي خرج فيه الصبيان لمواجهة أبو شامة، كانت أم الحب تركض من زاوية إلى زاوية في البيت، تجرّ الأطفال صارخة بالفتيات كي يختبئن، تنهر الصبيان، تأمرهم أن يرتدوا الفروات وتنهاهم عما هم قادمون عليه:

- أنتم لستم قدّ أبو شامة، عودوا، سوف يذبحكم ويقبركم.

**كل عصر أو عصرين تنزل فطمة القبو الأول.**

**دفعت باب الغرفة الواقعة على اليمين، بأصابع حذرة بسبب الغبار وشبكة العنكبوت. غنى الحاج عمر جارها "يا حنينة". فكرت:**

**"لا بد أنه نسي وسواس البعث لبعض الوقت".**

**تطلعت إلى أشياء الغائبين، متشوقة. لم يؤلمها الانتظار، أحست أنها المنتظرة، ستذهب إليهم، ارتعشت، ماتوا إذن، لوّحت بكفها في الهواء، لن تصدق. سمعت أنفاس لميا تتسرب من نافذة القبو العلوية المغلقة بإحكام، والتي تشرف على الحارة بجانب المصطبة التي تنام عليها. غبار كثيف ثقيل.**

**تمنت أن لا يكون الجرذ قد وصل إلى هذه الغرفة المليئة بأشياء، لم تعد تلزم أحداً، إلاها، تحتاجها بشدة، تحتاج هذه الكراسي، الصالحة منها وغير الصالحة:**

**"جلسوا عليها، وضعوا عليها بنطالاً مكوياً ومنشفة على عجل، أو حذاء ملمعاً تحتها. ثقوب المقاعد من القش الذي أصابه**

"التخيخ"[1]، وضع بعض هذه الكراسي فوق السمندرة[2]، مقابل النافذة، بالقرب من السقف. تكاد السمندرة تتفتق بالفرش واللحف والوسائد المغطاة بقماش من الخام الأبيض، تنبعث منها رائحة النفتلين. أبعدت ستارة السمندرة فرأت وسائدهم المطبقة منزاحة عن موضعها الأصلي، فكرت:

"ربما مثل جماجمهم الآن".

لوحت بكفها في الهواء مرة أخرى غير مصدقة. تطل وسادة أخيها أحمد المزهرة بلون السماء والياسمين، مثل وجهه:

"كم كان صغيراً".

رفض النوم، ليلة الهجوم، وظل ساهراً حتى ساعة متأخرة منتظراً أن يجف غطاء مخدته. أخضعهم لإرادته، فألبسوا مخدته الخاصة غطاءها الأزرق المزهر بالياسمين، رغم أن الغسيل لم يكن قد جف بعد.

أغطية صيفية كثيرة قطنية متشابهة، وأغطية شتوية بألوان الرمادي والبني والزيتي، تمتمت:

"يا سماء كانوا ملتفين بها عندما رموها عنهم، أخذوهم بالبيجامات، هل يمكن أن يصل الجرذ إليها؟".

لوحت بكفها تريد أن تخرس صوتها الداخلي. في الزاوية ارتكزت لفافات السجاد والبسط الملفوفة بأكياس بلون الطحين، يصل بعضها إلى السقف، حيث نصب العنكبوت شبكة مطمئنة. فكرت:

"ذلك البساط المتقدم، من الواضح أنه وضع كآخر قطعة من حزمة السجاد تلك، لم يحز على غطاء متين مثل بقية القطع، وضع

---

(1) الاهتراء

(2) خزانة يوضع فيها فراش العائلة.

كملحق، لعبوا عليه "عدّى برخش"[1] تذكرت صعود أصابعهم الكثيرة في الهواء وهبوطها مرة واحدة وسط صخبهم المرح: "إيد مين فوق؟" تهوي أكفهم على البساط فوق بعضها، ثم يصرخون بالكف الكسولة التي لم يبق لها إلا سطح الأيدي المتكدسة، يبعدون صاحبها عن مساحة البساط، فينقص العدد واحداً. تتذكر كيف قطعوا لعبهم ليلتها وتربعوا مستمعين بخشوع لحكاية الجدة.

خزائن جدارية طويلة رفيعة وعميقة. تخشى النظر إليها، بعضها مغلق بالمفتاح، وبعضها الآخر نصف مفتوح. في داخلها كتب مدرسية لكل أفراد العائلة، عدة نسخ من كتب الصف السابع، مثلها للصفوف الأخرى، نسخ من كتب الثانوية، علمي، أدبي، فنون، تجارة وصناعة، شردت:

"يقبرون قلبي، كتبهم تشبههم".

التمعت عيناها،كان بعضهم يحرص على تجليد كتبه المدرسية، والحفاظ عليها جديدة من دون اهتمام بمعرفة ما بداخلها، منهم من كان معتدلاً في حرصه على شكل كتابه، وعلى تحصيل التفوق في النهاية، ومنهم من أتلف كل شيء، كتابه ونتائجه. اكتشفت لأول مرة دفاترهم، محشورة بين الكتب، فتحت عدداً منها، قرأت ما كتب بخط أيديهم، مسائل حساب ورسوم هندسية، نصوص شعرية ونثرية مشكّلة بعلامات ملونة. في أسفل الصفحات أجوبتهم الخاصة عن أسئلة الدرس، كانت معظم الكتب للمرحلة الثانوية.

" كانوا فتياناً".

كتب دُرس نصفها، والنصف الثاني لم يلمس. كانوا يستعدون للفصل الدراسي الثاني راضين، أو غير راضين عن الفصل الأول، كانت الأحداث هي الفيصل بين الفصلين. في الرف العلوي من

(1) لعبة تتم بالأصابع والأيدي وهم جلوس على الأرض.

الخزانة ما قبل الأخيرة، كتب ابن مطيعة للسنة السادسة طب، ما زالت "مجعلكة" على هواه، رغم الغبار والزمن الطويل، غاب مع من غابوا، قبل أن ينهي العام، لكن أمه مطيعة أعدت قبراً تزوره كل خميس، وترسم مستقبله المبتور مبكراً، جاء من جامعته ليلة واحدة، كي تغسل أمه ثيابه وجواربه وتطعمه غذاء دسماً.

"كان مشتهياً الباطرش المتبل، يقبر أمه، ليعود بعد ذلك ويكمل امتحانه، باقي مادتان".

"هل من معجزة تعيدهم؟

هناك تحت المكتبة الحديدية الموضوعة في صدر المكان والتي غطى الصدأ معظمها، علبة كرتونية محشوة بدفاتر حسابات أعمامها، دفاتر بأوراق سميكة مخططة طولانياً بخطوط رمادية، وعرضانياً بخطوط حمراء فاتحة، مكتوب فيها بأقلامهم القديمة، الصادرات والواردات والملاحظات. حسابات صغيرة وكبيرة، كلٌّ حسب عمله أو حرفته، تجارة الأقمشة، تجارة الغنم ومنتجاتها، تجارة الحبوب، صناعة الأقمشة، حرف الخياطة والتخريج.

هنا في هذا الدفتر سجل ثمن بطانة جلابية أو"مزوية"، عباءة أو بند التخريج. بعضها صفحاتها فارغة، لكنها مرقمة حتى تاريخ متقدم عن تاريخ فقدانهم.

"لم يحسبوا حساباً لغيابهم".

رُقمت رؤوس الصفحات، وتُركت المساحة بيضاء.كل هذه الدفاتر مغلفة بجلد سميك متين. رُصّت أطرافها بأطر معدنية تحميها مئة عام.

**ربما** كان أبو فطمة محقاً في قلقه واضطرابه، فالجميع كان مرتبكاً بعد هجوم أبو شامة على الحارة.

لا أحد يعرف لماذا أحرقت الفتيات علم بلادهن، أنـزلنه من عليائه، بجنون، بعصبية، بوجه محتقن فسقط فوق الماء الموحل الدائم التجمع أسفل درجات المنصة التي يحيّين العلم منها ويرددن النشيد الوطني. أخذن يدسنه من جميع الجهات حتى تلوّث بكامله، ثم هرعن إلى غرفة الصف نـزعن وعاء المازوت عن المدفأة، رجعن وسكبن المازوت فوق العلم الموحل وأشعلنه. رحن يرددن، بحناجر زرق، بوجوه محتقنة وقبضات غاضبة "يلّا برّة أبو شامة".

في تلك الليلة الباردة جداً، تحدثت الجدة عن قصة آل المايل قائلة:

قبل ثلاثمئة عام وعند الفجر، انتشرت أصوات المؤذنين في وقت واحد، تعلن أن شاباً من عائلة المايل اغتصب أجمل فتيات الحارة. كانت تشد غطاء رأسها ناظرة إلى الأعمام، ثم تستأنف بسخرية: المؤذنون وأهل الحارة كانوا رجالاً بينما، حصنتكم بالله، .. يعني إذا كان نهركم كافراً، فماذا ننتظر منكم؟ أكملت حكايتها متمهلة عند بداية الكلمات:

- تجمعوا عند مدخل حارة آل المايل، حاملين هراواتهم وخناجرهم، بينما أصواتهم تهدر، مثل ماء النهر. لم ينج من عائلة المايل إلا ست أمينة التي كانت متزوجة من رجل غريب عن بيت المايل، ما زالت حارة زوجها تسمى "زقاق ست أمينة".

ناموا جميعاً على حكاية تدور في أحلامهم، كانوا خائفين متوجسين، لم تكن الجدة تقص حكاية إلا ووقع حدث خطير في الأيام التالية، خصوصاً وأن أبو شامة، بعد أن كان رجاله يملؤون حارات المدينة، سحبهم بحركة غامضة ومفاجئة. كان انتشارهم في الحارة حتمياً معتاداً، وإن تسبب لأعمام فطمة بالركض عند سماع إطلاق الرصاص، حيث لم ينج من الركض لا الصغير ولا الكبير

ولا الشيخ.

كانت فطمة نائمة بين الفرش المتلاصقة، عندما سمعت في الثالثة ليلاً صوت العم نذير يهمس للأخ الكبير بأن الأسلحة مطمورة تحت شجرة النخيل في حديقة قبو القبو.

بعد ساعة واحدة أخذ العم نذير ما خفّ حمله وغلا ثمنه، وضع على كتفي ابنه شالاً صوفياً وسحب زوجته مغادراً بهدوء.

وانفجرت الحرب.

كانت المآذن زرقاء من شدة البرد، أصوات الداعين للجهاد من أجل القضاء على أبو شامة ورجاله، تنفيذاً لوصية نذير الهارب، كانت أصواتاً حارّة، أصوات أطفال رقيقة ضعيفة، تناثرت في كل البيوت، أيقظت النائمين المتآلفين مع صوت أبو رحمون، وأخذتهم.

خلال وقت قصير عاد أبو شامة، واقتحم رجاله المدينة. تدافعت فطمة مع النساء إلى النوافذ، لمراقبة خروج الصبيان من بيوتهم صافقين الأبواب الحديدية، مندفعين بثياب النوم الخفيفة، وبالأخفاف المنزلية ملبين النداء، يحكّون أصابع أقدامهم ببعضها بتأثير "الشمطلص"[1] والقشب اللعين. تسيل أنوفهم الحمراء، فيختلط مخاطهم وعرقهم بقطرات المطر الخفيفة. كانوا يبغون الوسيلة، وسيلة العم نذير، إلى نيل الجزاء المرتجى، "فالمبطون والمطعون وصاحب الهرم والشهيد في الجنة"، في الجنة حيث الأسرّة المتقابلة وصحاف الفضة والذهب ولباس السندس، الوجوه نضرة والفضلات تخرج من الأبدان بالتجشؤ كرشح المسك.

كانت أوجه النساء المحاطة بالأغطية البيضاء تبدو وهي ترمق الأبناء والأخوة من النوافذ، مثلثات متشابهة، وضعن أطراف

(1) احمرار يصيب أصابع القدمين في البرد الشديد يسبب الحكة، ينتج عن إهمال تجفيف القدمين، غالباً يصيب الأطفال.

الأغطية على أفواههن خوفاً من هروب شهقة أو صرخة، كن مستلبات لقدر مجهول، مستسلمات لمصير سوف يساهم فيه أولاد أكبرهم لم يتجاوز العشرين.

حملت كل منهن، بمن فيهن فطمة، هويات الشباب بصور وجوههم الفتية وأعمارهم القصيرة حيث تنبهَ الخارجون إلى ضرورة ترك هوياتهم في أيدي أمهاتهم، كيلا يورطوا غيرهم فيما أقدموا عليه، حيطة من قتل محتمل أو سجن أوخطف أو..

هجم أبو شامة برجاله وأسلحته الحديثة، لاحقوهم وهم يتراكضون من حارة إلى أخرى، حارة القصب، حارة الحور وحارة الصفصاف، كانوا يحاولون الاحتماء بجدرانها الضيقة التي تعينهم على الهروب والاختباء.

كانت الأماكن غامضة ومخيفة لرجال أبو شامة. فحين قطعوا الجسر ودخلوا حارة الضفة الثانية، غابوا في متاهاتها، نوافذها وأسطحتها، شرفاتها المتداخلة واسطبلاتها التي تصل مياه النهر إلى حوافها، انحناءاتها وأسرارها العتيقة، كل هذا أغضب أبو شامة غضباً شديداً فأمر بتدميرها من الأرض ومن الجو.

أما حارة فطمة، الضفة الأولى والجسر الصغير بينهما، بما فيه الطاحونة وحارسها وحارة اللاجئين، حارة القلعة، وحاملي سلاح نذير ببيجاماتهم الرقيقة، فقد اكتفى بقتل معظم رجالها وهدم واجهات بيوتها ومآذن جوامعها، وقبب كنائسها، ومتحفها الوحيد.

من لم ينل من الصبيان الذين خرجوا لقتال أبو شامة ورجاله، الجزاء المرتجى من الجهاد، عاد ناقماً هارباً خائفاً. كان الحلم هو الجنة أو النصر والسيادة بمسح أبو شامة وأهله من الحارة. رددت أم الحب جملة لم ينسوها:

- هل يمكن لبيجاماتكم الرقيقة مواجهة بدلاتهم الثقيلة،

وعمكم نذير تركككم وغادر بعيداً؟

صدقوها بعد أن حدث الذي حدث، لم يخرج كلُّ الصبيان، لكن من عاد منهم، عاد باكياً على فقدان أخيه أو رفيقه، قتلاً أو خطفاً. لجؤوا إلى أحضان أمهاتهم قانطين من رحمة السماء التي أرسلت كل ما بوسعها من البرد كي يساهم مع الخوف في تيههم. قلق الصبيان لم يطل إذ سرعان ما جاء الملثم أبو الكوفية، الذي كان يرافق رجال أبو شامة، وأشار بإصبع حيادية باردة إلى وجوه من خرجوا، قبض أجره من رجال أبو شامة وولىّ هارباً من انتقام محتمل في يوم ما.

إشارات أصابع الملثمين هؤلاء، كانت سبباً لكوارث المدينة، عشرة آلاف؟ لا، بين العشرة آلاف ضحية والأربعين ألف ضحية، مجال كبير والله أعلم.

لم يعتمد رجال أبو شامة على أصابع الملثمين، بل تجاوزوها. غضب رجال أبو شامة شمل المدينة كلها، وجميع الشباب والرجال وبعض النساء والأطفال.

نجا ممن تعرفهم فطمة من حارتها وأهلها، العم جميل النسونجي، عبد الحكيم كشاش الحمام، العم أبو سليم الجربوع، المختار، وبضع أسماء قد تكمل عدد أصابع اليدين، منهم أبو فطمة، فارس النحات الذي ستقابله فطمة في هروبها وهي تغسل قدميها مرتجفة من الخوف: أهذا دمي أم دم أعمامي؟ كان يحمل لوحاته المطعونة بحرابهم ويبكي، فتؤنبه: لماذا تبكي اللوحات؟ إبك الأرواح. نجا مخلص، صاحب أهم مكتبة في الحارة: "شو مكتبة المركز الثقافي؟". الحاج عمر الذي سيبدأ كابوسه: لن تبعث يا حاج عمر. الأستاذ عاصم الذي نجا لأنه صادف يوم حصته في مدرسة المدينة القريبة.

صبراً، فلميا بعد ساعات ستصبح لميا المجنونة، تماماً عند الفجر.

باق في تنكة المازوت ليتر أو أقل، موضوعة خلف باب بيتها عند ركن الخطر مع منقل الفحم ووابور الكاز وكل ما تتوقع منه أن يؤذي طفلتها الشقية "سحورة".

كانت لميا نائمة بعيون نصف مغلقة، ثديها مع طفلها، دفن زوجها رأسه وتنهيدته بين كتفيها خلف ظهرها. نامت طفلتها ابنة الثلاث سنوات نوماً عجيباً غريباً عند قدميها.

أغفت، من تعبها، لميا اليقظة دائماً، كذلك فعل زوجها المريض. لكن الطرق الشديد جعله يقفز من شدة الخوف، ليفتح الباب. ركلوا قامته النحيلة، داسوا أرض الدار الإسمنتية السوداء، خطوتان، وجدتهم بشعارهم المعروف"تالولة على صدر كل منهم". سحبت ملاءتها وشدّتها عليها وعلى ابنها المتشبث بثديها. غضبت من الرضيع فرمته فوق ظهرها، لكنه ظل متشبثاً بكتفيها اللتين تحولتا إلى شرفة لمراقبة الغرباء. نخزوا بالحراب الثياب المعلقة، دفعوا بأحذيتهم القاسية خف الطفلة البلاستيكي الأحمر والمقصوصة مقدمته، رفعوا الوسادة التي تحمل رأس الطفلة وفتشوا تحتها،لم يجدوا شيئاً، تركوها، هوى رأس سحورة، لكنها لم تستيقظ. كانت عينا أنس ترقبان كل شيء من شرفته التي هي كتفي أمه المتنقلة، تصعد وتهبط وتلملم وتسوّي ما يخربه المقتحمون في بيتها الصغير. في غفلة منها، بسرعة كالحقد، أمسك أحدهم تنكة المازوت المتبقي من خلف باب بيتها وسكبها على كل شيء. أما لميا المأخوذة فقد سحبت وسادة زواجها، بدل سحورة التي لم تستيقظ، رغم كل الصخب، من غفوتها المطمئنة عند قدمي أمها، ولن تسمح لأي سبب بسحب السكينة منها.

لذلك تفحمت.

أما لميا التي فوجئت في ركضها بحملها الوسادة على صدرها بدل الطفلة. الطفل الصامت "أنس" في يد والوسادة في اليد الأخرى، فقد وقفت على الجسر، وقررت أن ترمي الوسادة التي خدعتها.

لكنها بدل أن تفعل ذلك، رمت الطفل في النهر تحت القناطر.

هكذا وجدت لميا نفسها بدون أعباء، بلا طفليها، بلا زوجها، ثم بلا عقل.

"لميا، يا لميا، أتذكرين زوجك الفقير حارس إصطبلات الخيول لأغنياء الضفة الثانية؟ حين كان يوجد خيول. أتذكرين طفليك، سحّورة بنت الثلاث سنوات وأنس ابن الثلاثة أشهر؟ أتذكرين أرض دارك الإسمنتية اللامعة المغسولة في عصرونية الصيف، وبرميل الغسيل الذي كنت تغلين فيه خرق طفلك؟"

لميا كانت كالنحلة، تقطع الجسر في اليوم الواحد عشرات المرات، تدفع أي باب بدون تكلّف، تضع خفها تحت أول شجرة، وملاءتها فوق أول غصن، تغسل يديها ووجهها ورقبتها، ترتب ما حولها وتلملم بيديها كل ما تجده في طريقها، تسقي الأحواض على عجل، تشوي الباذنجان، تقطف الملوخية، وتقلي البطاطا لعشاء الأطفال المدللين، تهرع إليها دجاجات البيت والأطفال، تسليهم، بيديها، بلسانها، بقدميها، يتشبثون بطرف ثوبها وهي تثرثر مع الجميع، ولا تكف، وإن لم تجد أحداً تثرثر معه، فسوف تغني. قد تجد أمامها صندوق فاكهة، تتناول واحدة تمسحها بثوبها، وتأكلها على تعبها مواصلة ثرثرتها، وعندما تصادف شيئاً مجهولاً، مسجلة حديثة أو آلة كهربائية فإنها تضحك ساخرة من جهلها معتذرة من كل من حولها. لا تسأل أحداً ماذا يحتاج، فهي تعرف ما يحتاجه

الجميع، ولا أحد يعرف ما تحتاجه لميا، اللهم إلا حاجتها لتأمين حاجاتهم.

احترق بيتها، ثم انهار مع بيوت الضفة الثانية، وغاب زوجها مع من غابوا، ورمت الوسادة المتبقية في حضنها. رأت حارس الطاحونة يتحول إلى قط ليلي ورأت حارتها والضفة الثانية من المدينة كلها ركاماً.

دخلت الملجأ في الضفة الأولى بجانب باب النهر الكبير. كانت النساء مكومات قتلى والأطفال صرعى. رأت بطن أم العز المقتولة، يتحرك. كانت على وشك الولادة.

جلست على الأرض ملتصقة برحم المرأة حامل الطفل العنيد، وضعت خدها على البطن ثم أذنها وكفها، كانت حرارتها رغم البرد الشديد والموت تجعل كل شيء يغلي. غنت للبطن المتحرك، نامت دقائق ثم استيقظت، أخذت غطاء صوفياً عن أحد الموتى المكومين حولها، وغطت البطن المتحرك، لكن الحمى شديدة، لا بد أن الطفل قد اختنق في بيته: رحم أمه. ظلت تغطي البطن حين تحس بالبرد، وتكشفه حين تحس بالحر، ثلاثة أيام. كفّ البطن تماماً عن الحركة، وجنت لميا.

كان يا ما كان، كان هناك لميا عاقلة، وثلاثة أطفال، لا، طفلان وزوج. كان زوجها كالحمَل يرتدي بنطالاً رقيقاً وعريضاً ينظف البيوت، ويطعم الخيول المتبقية. أطعمت لميا من يديها كل البيوت، كوسا بالبندورة وعرايس زعتر ومغمومة. كانت تحوش الخبيزة بيديها، وتغطي الطفل النائم، تحقن بحقنة الماء الطفل الذي يعاني من الإمساك وتدهن بطنه بالزيت. إن صادفت في سعيها على الجسر الأطفال يسبحون، فسوف تتناولهم، تجفف وجوههم وأعناقهم الرقيقة بطرف ثوبها وتمص الماء من آذانهم، تسوي غرتهم

ثم تضربهم على مؤخراتهم مداعبة: "عالبيت" رأساً.

لم تكن تنظر في كفها إن أعطوها مالاً، بل تكتفي بتمتمات خجولة، ولم تكن تطيل الجلوس في بيتها إلا للنوم أو مداعبة الحمل، زوجها، طفلها.

**لميا المجنونة ما زالت تروح وتجيء على الجسر بين الضفتين حاملة صرة، الله وحده يعلم ما بداخلها، تقطع الجسر إلى الضفة التي كانت مملوءة بالبيوت، وأصبحت فارغة إلا من بناء الخلية الذكية، تبصق على لافتة الخلية الذكية وعلى النهر، ثم تعود إلى مصطبة فطمة كي تسترد أنفاسها، تأكل من طعام القطة الموضوع لها أصلاً.**

**تخيف بجنونها اليوم أبو سليم الجربوع صاحب جمعية الحمار، تخيف المختار وبعض الناس الذين تعرفهم بغريزتها، لا أحد غيرها يعرفهم، منهم أبو الكوفية الذي عاد من سفره بحماية رجال أبو شامة له. يرتعدون عندما يصادفونها، يغيرون طريقهم ظانين أنها سترميهم في النهر، يتمتمون:**

**- لكل مصيبة نهاية، ألن تحل عنا لميا الهبلة؟**

**"من يعمل مع رجال أبو شامة صار يمشي مزهواً يا لميا. لم يبق مطرح لأبو الكوفية أو الملثم بينهم، صاروا يتباهون برؤوس عارية ووجوه صريحة".**

**تنهدت فطمة.**

**تذكرت شباباً من البيت والحارات المجاورة، فقدوا بلمحة عين، منهم من لم يكمل شهادة الكفاءة، منهم من لم يكمل قصة بدأ في روايتها، منهم من وضع قماشة عند الخياط، ولم يستقر بعد على شكل جيوب البنطال، منهم من وعد أخاه الصغير بمرافقته إلى**

**السينما، منهم من لم يبتلع لقمة كانت في فمه. رحلوا بلباسهم الذي لا يكاد يغطي أجسادهم، ظلت أشياؤهم في أماكنها، هوياتهم، حقائبهم بجانب الباب، خزانة الثياب الحديدية الثقيلة مقفلة، بينما المفتاح في درج الخزانة المجاورة مع سهم يشير إليه. في وسط الغرفة أثاث العريس الذي كان عرسه سيزغرد بعد ليلة الحكاية بخمسة عشرة يوماً، لكنه غاب مع من غابوا. طالب الطب، طالب الهندسة.. وغيرهم من الكبار والصغار.**

**وجدت فطمة نفسها تتجه إلى بيت المؤونة كي تتفقد قطرميزات المكدوس، وتطمئن أن الزيت ما زال يغمر الباذنجان.**

**أعادت تثبيت القصبتين المتصالبتين على سطح المكدوس وزادت كمية الزيت. كشفت وعاء الزيتون، حركت بأصابعها قطعاً من الليمون والفليفلة وغمرتها بطبقة إضافية من زيت الزيتون، أما المربى فكانت رائحته تنطلق من غطاء الشاش الناصع البياض.**

**طال** حصار رجال أبو شامة للمدينة. نفدت المؤونة على كثرتها من البيوت، قلّ الزيت بعد أن استخدم للإنارة، اشتدت معارك النساء حول قبضة من البرغل، حول سكين ضائعة أو غطاء صوفي لطفل مريض. كان شك الرجال، الذين تبقوا، ببعضهم على أشده، نسوا مبدأ أولاد العشرين والستين. مضوا يفتشون عن طريقة ينجون فيها من هذا الحصار. كان عزرائيل ينام في فراشهم، يخطف ملعقة الطعام منهم، ألفوا وجوده، باتوا يبحثون عن طريقة يدفنون فيها موتاهم من دون أن يبرحوا أماكنهم، حتى لا يصابوا برصاصة طائشة أو غير طائشة. غير أن أم راغب تململت من رائحة جثة ابنها ماسكة برأس ابنها المتبقي حياً في حضنها، فاتفقوا جميعاً على تحمل مسؤولية دفنه في حفرة على ضفة النهر.

كانت نخلة فطمة، رغم الصقيع، تنمو بعصبية واضحة طولاً وعرضاً، بأوراق متيبسة وخشنة.

كانوا يلتفون بالأغطية كي يمنعوا عنهم برد الأربعينية[1]، يصغون بانتباه إلى صوت عربة الخبز التي ترمي بالأرغفة على الأرض، يهبون من أماكنهم كي يختطفوا رغيفاً، يرسلون الصغار فيتشقلبون فوق بعضهم ويعودون باكين ممزقي الثياب يلتقطون أنفاسهم بصعوبة بالغة، عروقهم نافرة وشفاههم ترتجف من البرد والغضب مغبرة بالطحين وتراب الطريق، وهم يعلكون قطع الخبز التي استطاعوا أن يخطفوها.

شبّت خلافات استمرت أعواماً بين الناس بسبب قطعة من الخبز. لم يكن نصيب الواحد أكثر من لقيمات مغروزة بأظافر مدماة.

رغم الرعب من الموت، أو من اغتصاب النساء، كانوا يخترعون النكات عن أبو شامة، ورجال أبو شامة، مؤخرة أخت أبو شامة. قد يدعم أحدهم معنوياتهم فيقول: يا جماعة، أبو شامة بالبراد.

حين صاح بهم رجال أبو شامة أن يخرجوا من الحارة جميعاً، حاملين رايات بيضاء، حار كثيرون في إيجاد رمز أبيض مقنع، فمنهم من خلع قميصه الداخلي ومنهم من سحب غطاء مخدته ومن حمل منشفته ومنديله. أما مطيعة فقد وزعت على من بقي من دون راية "حفاضات" ابنها، حملوها ولم يحتجّوا. تراكضوا يتخاطفون الرموز قبل القتل شاتمين مطيعة لأنها لم تخط "حفاضات" كافية لمثل هذه الأيام.

بكى أبو فطمة، حين شاهد رجال أبو شامة يملؤون غرف البيت الكبير، باحثين عن العم نذير أو أي دليل عنه.

(1) أربعون يوماً بارداً من الشتاء، تبدأ في كانون الأول وتنتهي في شهر شباط.

كان الأعمام يهرولون إلى الخارج غير مصدقين ما يحدث. التفت الأب إلى الفتيات وقال بعصبية خافتة باكية:

- جميع الفتيات يجلسن في زاوية غرفة الجدة وليغطين أرجلهن بالأغطية.

صرخت فطمة:

- لا.. ليس إلى هذه الدرجة، لسنا كسيحات.

أجهش الأب بصمت:

- آخ.. آخ.

ردت أم الحب تنهر فطمة:

- بنات كسيحات، نعم، كي لا يتحرك شيطان هؤلاء، إصبع قدم أو إظفر سبابة أو خصلة شعر من رأسكن يمكن أن تحرك شياطينهم. قالت ذلك وبكت على بكاء أبو فطمة.

كان عم فطمة الكبير أول من أمسك به رجال أبو شامة، علّقوه إلى الدبابة. تحركت الدبابة وراحت تجرجر الرجل، ثم سحبوه وغاب عن العيون.

لم يكن الأب يستطيع الكذب، فعندما سأله أحد المقتحمين عن العم نذير، أجاب وهو يضع إبهامه وسبابته على ذقنه مع ابتسامة رعب على شفتين بيضاوين:

- وهل هذه الذقن الشايبة يمكن أن تكذب؟ ثم أمسكه وقبّله.

"لم ينتظر أبو شامة أكثر من هذه النشوة، نشوة إذلال أولادي". شتمت الجدة في سرها.

عندما فُتحت أبواب البيت، أصاب رجال أبو شامة الذهول، أشياء ثمينة تملأ زوايا البيت الكبير، وإن لم يكن ثمة من ترتيب معين تخضع له، إلا أن كثرتها بهرتهم. اتجهوا إلى صندوق الجدة الخشبي المعتم، فتحوه، ففوجئوا ببقجتها ملفوفة بعناية مثبتة بدبوس

من الذهب، مطرزة بقطع فضية ذات أشكال زخرفية مختلفة، مغازل، معينات، أو في هيئة زهرة الكشمير. شدوا غطاءها من دون أن يحلّوا دبوسها، فوقع كفن الجدة على الأرض ومناشف موتها وغطاء رأسها. صرخ رئيسهم فيهم أن ينصرفوا إلى التفتيش عن نذير.

كانت الجدة تقول لأولادها:

- أراد أبو شامة الإثبات لوجهاء بلده أنه قادر أن ينتقم من أهل بلدنا، وسوف يدعس رأس نذير، ويركعه، لأنه من سلالة البكوات والباشوات. وتضيف باشمئزاز: عديم وقع في سلة تين.

ربما كانت عمامة نذير الهارب موضوعة في تختية البيت[1]، تطل من تحت الستارة، وربما قصت البنات الصغيرات من قماشها كي يصنعن عرايسهن.

كان الهلع يلف الأب، عينيه، يديه، كتفيه، يتلفت مسترحماً، بصمت، أن يتركوهم ويرحلوا، مشفقاً على واجهة البيت التي هدمت. وبيوت الضفة الثانية التي تنهار أمامهم وذنب أهلها أنهم من بلد العم نذير.

**البيت سور عال من الأحجار المرصوفة، سوداء وبيضاء، تبدو مخلخلة، لكنها ثابتة. له سبعة أبواب ألغيت عندما بدأ تهديد أبو شامة فأبقوا فقط على الباب الكبير الذي يسمى "باب النهر الكبير". يوجد أمامه حجران كانا يوماً للجلوس والحراسة. بقي الحجران الآن ورحل من كان يجلس عليهما: خدم أو حرس. حاول رجال أبو شامة زحزحة الحجرين عبثاً:**

**- إبصق على الحجرين، اركلهما، ربما جلس عليهما جدي أو جدك.**

(1) خزانة الفرش واللحف.

لكن قَسَم أبو شامة أن يضع قدماً على الضفة العليا وقدماً على الضفة السفلى، داعساً كل من يعارضه، جعل نذيراً يسد شرفة البيت الكبيرة الموجودة في الواجهة الأمامية للمنـزل ويحولها إلى نوافذ كبيرة، نافذتين أماميتين ونافذتين جانبيتين، مغلقة بإحكام بواسطة أباجورات مغطاة من الخارج بالنايلون الشفاف لمنع دخول الغبار، مما يجعل غرفة نذير الفارغة معتمة، نظيفة وباردة. أما الواجهة الخلفية للبيت فقد تألفت من ثلاث مراحل، العلوية عبارة عن نوافذ مصفوفة أفقياً، تبدو كفرسان متقاعدين ما زالوا بكامل لباسهم الذي حال لونه، صامدين في أماكنهم إلا من ارتخاء في المفاصل والأضلاع، "مفاصل الأباجورات، وحزوز الخشب". تفصل النوافذ أحياناً شرفات صغيرة مسوّرة بقضبان حديدية متباعدة مشغولة بدقة تهيء للناظر من الخارج رؤية واضحة شاملة. أما المرحلة الثانية، فهي القبو المحجوز عن الخارج بسور منخفض، رصف حجارة غير مرصوصة وغير متينة وبلا تكلّف، لأن القسم الخلفي يطلّ على النهر. رأي الجد: "النهر منا وفينا". أما قبو القبو فهو المرحلة الثالثة لا ينفصل عن النهر بحاجز بل ينساب معه ويشكل بتراب حديقته طمي ضفته، وقد زرعت ثمة، منذ عشرات السنين، أشجار كثيرة منها نخلة جدة فطمة.

شغلت فطمة غرفة نوم أبويها بعد أن فرغ البيت من الجميع. أغلقت كافة الغرف التي كان يطلق عليها قاعات، ومنها غرفة نذير الكبيرة، تاركة قاعة الضيوف في الطابق السفلي مفتوحة لاستقبال الزوار مستغنية عن بقية القاعات إلا صالة الجلوس الكبيرة والتي تحتوي صندوق الجدة وكرسيها.

**تقول** الجدة: الصيف فرج. فتفرش أرض "الديار" وقت النوم. كانوا يستغرقون وقتاً طويلاً في الاستعداد للنوم ومثله عند الاستيقاظ وكثيراً ما كانوا ينامون ناسين الباب الخارجي مفتوحاً.

في ليلة مقمرة جاء بدوي غريب إلى الحارة، دخل البيت الكبير واندس بين الأولاد ثم نام باطمئنان. في الصباح وبينما كانت أم الحب تتفقد أغطية النائمين اكتشفت وجوده، خاف كثيراً عندما أيقظته مستفسرة عن سبب نومه بين الأعمام. قال إنه ظن البيت الكبير نـزلاً فحدّث نفسه أن يريح رأسه بين النـزلاء النائمين وليؤجلْ دفع ما يستحق عليه حتى الصباح وها هولم يهرب. جلس بينهم، تناول فطوره. جاد البدوي في الحديث عن كراماته ونوادره. مرة رفع غطاء برميل صغير ظاناً أنه برميل ماء، فوجده خمراً، أغلقه وطلب ماء للشرب. قال إن ما حدث أن صاحب المخزن وجد براميل الخمر في اليوم التالي قد تحولت كلها إلى براميل خل.

ومرة في ليلة النصف من شعبان جاء لقضاء حاجة في الحارة فتعب ونام بالقرب من محل الحلويات مراقباً هرماً من حلاوة المحيا[1]، وعندما استيقظ وجد أن هذا الهرم قد وضع طربوشاً أحمر ووقف بالقرب منه كي يوقظه لصلاة الصبح. وأخبرهم الكثير من الحكايات التي أضحكت الجدة نفسها، وأمتعتهم جميعاً.

ما زالت رائحة الخيار والجبنة تذكر فطمة بذلك الصباح الذي انتهى بوصول حمار العتالة حاملاً الملوخية والذرة الصفراء والبندورة بكميات كبيرة كي تحفظ للشتاء.

**غداً يقرر الطبيب الإجراء الأول في رحلة المرض. فكرت في**

(1) قطع حلوى ملونة على أشكال هندسية من السميد والطحين والسكر وصباغات.

أن تتصل ببنت خالتها كي تخبرها، لكنها تراجعت: انشغالهم بي سيزيد مرضي.

كل ما يشغلها هو الأيام القادمة، المرض:

"من سيسقي أحواض الزهور؟ من سيحوش أوراق الكرمة قبل يباسها، وثمار الليمونة في يوم نضجها؟ من سيسدد استحقاق الكهرباء والماء قبل أن ينـزعوا العدادين؟ ربما يأتي قرار البلدية بإزالة البيت الكبير، فواجهته لم تعد أثرية بعد أن أعيد بناؤها".

نفضت ثوبها ومنشفتها بعنف، علّقتهما بملاقط الغسيل الخشبية وتذكرت:

"كنا نصنع من هذه الملاقط ضفائر ونلعب بلعبة العرايس".

تركت كل شيء خلفها وجلست تنظف أظافرها بأظافرها متنهدة:

"الآتي أبشع من الرايح".

حاولت أن تستمد أملاً من كنبة مقابلة بعثت فيها روحاً، حدقت، فاكتشفت أنها مسند من خشب وقماش غير متقن، غطى الغبار بعض زواياها، التي لم تستطع أصابعها المتنبهات تنظيفها. ربما اختبأت في ثنايا هذه الكنبة أشياء أعمامها وأطفالهم حين كانت تسقط سهواً، ويتعذر عليهم استعادتها: أقلام، مفاتيح، قطع نقود، قصاصات، في أوقات اجتماعاتهم على الغداء أو العشاء أو وقت قيلولة بعضهم، حين كان العم جميل وعبد الحكيم كشاش الحمام يستلقيان عند قدمي الجدة متنعمين برطوبة الأرض، مستمتعين بتوبيخ أمهما الدائم، فهم إن لم ينالوه كل يوم فسوف يحكّهما جلدهما.

انطوت على ركبتيها وحدقت في الظلمة مابينهما:

"فراغ".

تناولت صحناً من شوربة المرضى وأكثرت من البقدونس،

**أعدت كأساً من الزهورات مستنشقة رائحة المليسة، أخذته إلى سريرها، أطفأت المصابيح إلا مصباح السرير، وجلست تحتسي مشروبها على مهل. يوجد بجانب سريرها ديوان شعر مفتوح منذ بضعة أيام على جملة "سأصير يوماً ما أريد، سأصير يوماً كرمة":**

**"ما الذي سيصير؟"**

**وضعت الوسادة الإضافية وبدأ الأرق الليلي المعتاد.**

**مسنن ذو تركيب هندسي معقد يأخذ ماء النهر ولا يعيده، يدور ببطء في رأسها النائم ويطرق في كل دورة خلايا متنبهات منتزعاً جماجم حمراء من النهر. انتظرت أن يرميها على ضفة القبو، لكنه عاد يكمل دورته ليخرج جماجم أخرى. في كل دورة له يزيد سرعته مصدراً صوتاً صاخباً. تستيقظ عادة عندما تمتلئ أسنان الدولاب بالجماجم وتصبح سرعته حمراء.**

**فكرت وهي تشرب كأس ماء:**

**"متى يكفّ هذا المسنن عن الدوران؟"**

**فطمة** هي الوحيدة التي أدركت أن من اقتيد أسيراً لن يرجع أبداً، ففي صباح الجمعة، عاد رجال أبو شامة واقتادوا معظم من تبقّى من رجال المدينة. كان اليوم الأخير من الهجوم، ظن الجميع أن الأمر قد انتهى هنا، لم يحسب أحد أن المدينة سوف تفرغ إلا من النساء وبعض الرجال، الذين لن يستطيعوا حلاً أو ربطاً. تحمّلت فطمة صراخ نساء أعمامها في وجهها، عندما أغلقت الباب الكبير قائلة:

- هربنا وهربتم، ظننا أننا نجونا، كل راح في اتجاه أما من اقتاده رجال أبو شامة فلن يعود.. لن يعود. أخرجت صورة أخيها الصغير أحمد، الذي بال على نفسه عندما أمسكه أحد رجال أبو

شامة من قبة قميصه، لوّح به سائلاً معلّمه:

- وهذا الولد هل نتركه أم نأخذه؟

فرد الولد:

- أنا صغير.

لكنهم دفعوه أمامهم وأخذوه.

كانت أم الحب تلتفت لدعم من تبقّى مرعوباً. أما أم الصافي فقد كانت صامتة متجاهلة قرابتها لأبو شامة، راحت متشاغلة تصلح بحذر ما خربه رجال أبو شامة وتحزم الثمين منه في خزانتها.

البصارة التي زارتهم قبل الأحداث بأيام. قالت:

- يأتون ويسكنون الحارة والمدينة، يتصرفون فيها، ويبقون مئة عام بالتمام والكمال.

أفقدوا المدينة معظم رجالها وصبيانها، بعطش للانتقام لم يرتو. هدموا واجهات البيوت كي يصلوا إلى خلفياتها حيث وجدوا خمسة هياكل عظمية، دفنت واقفة، ربما كانت بقايا أقارب أبو شامة، فلاحون وأجرة عصاة منذ سنين طويلة. اختلطت تلك العظام العارية بالعظام المكسوة للجثث الجديدة ولم ينته الأمر.

كانت الأماكن التي ملئت بالجثث ثم أفرغت: مستودعات، دكاكين، أقبية.. صامتة مدماة تستقبل صف النساء المنتظرات دورهن للتعرف على حذاء الزوج أو قميص الابن أو "بيجامة" الأخ.. فإن لم يجدن أثراً لهم رجعن متفائلات بعودة الزوج أو الابن أو الأخ. كن يشممن الدماء المتجلطة على الأرض أو الجدران خشية أن تكون دماء الأحبة.

أم غالب التي دفنت ابنها البكر، لم ترفض إعطاء رجال أبو شامة أساورها، لكنهم قطعوا ذراعها، مثلما فعلوا مع النساء اللواتي رفضن إعطاءهن الذهب، لم يتمهلوا ليفهموا ما حاولت أن تشرحه

لهم، أرادت أن تخبرهم، كيف أن أساورها كانت مهر عرسها حين كانت عروساً نحيلة وحين صارت بصحة جيدة للسعادة التي عاشتها مع أبو غالب والأولاد الذين رزقها الله بهم، سمنت يدها، فلم تتمكن من نـزع الحلي لأنها ضاقت. وقفت بذراع مقطوعة، تشكر الله أنهم لم يغتصبوها كما فعلوا بغيرها.

كان رجال أبو شامة يدخلون إلى النساء في الظلام فيسلطون ضوء بطارية على الوجوه المتلاصقة وحين يعثرون على ضالتهم، وجوه فتيات صغيرات جميلات يسحبونهن من أمهاتهن ليغتصبوهن ويقتلوهن. ولم يفد الأمهات تمريغ وجوه بناتهن بالطين والشحار فقد كان جمال العين البريئة الخائفة يطغى.

بعد كل ما فعلوه.. غادروا تاركين شتيمة لنذير مكتوبة على الجدار الغربي للجامع بكل الألوان، بحبر ثابت لم يمحه ماء المطر، لم يتجرأ أحد من أهل الحارة على مسحها، بل على العكس كانوا يقرأونها خمس مرات في اليوم حتى باتت قدراً مقدراً عليهم.

دائماً تسأل لميس:

- لماذا كرهوا واجهات البيوت؟ لماذا كرهوا المآذن والكنائس؟

ودائماً يجيبون أجوبة لا تشفيها:

- أبو شامة أمسك المدينة من القرنين. قرنان قديمان جداً لعلهما جبلان، كره التاء المربوطة في نهاية اسم المدينة لأنها ليست تاء تأنيث بل تاء المبالغة وربما البأس. كانت تنبع، بين القرنين، ليلة النصف من شعبان، عين ماء، تستمر في تدفقها ثلاثة أيام تمام، ثم تبتلعها القرون. عندما أشرف عليها رجال أبو شامة، جفّت تماماً.

قال كاتب كتب أبو شامة إن معلمه "أبو شامة" عانى من السأم بعد خراب المدينة وانتصاره على نذير. ذرف دمعة لكآبة سيده وكانت لكنته العربية مكسرة. يقول عبد الحكيم كشاش الحمام عن هذا الكاتب:

- يهودي.

- كيف كانت البيوت؟

- كان يوجد ضفة أخرى للنهر.

- يوجد ضفة أخرى عليها "الخلية الذكية" واللافتة الكهربائية.

- كان يوجد بيوت وناس.

- أين ذهبت البيوت والناس؟

- كلهم كانوا قربى قريبون جداً، أو أبعد قليلاً، يقولون عمي وابن عمي، حتى وإن كانت القرابة عن طريق جد الجد، تماماً مثل قرابة فطمة بحارس الطاحونة.

**- ماذا حل بحارس الطاحونة؟**

**- تحول إلى قط ليلي، نـزل في تجويف الطاحونة طامراً رأسه في ماء النهر. كان يرفعه كي يأخذ نفساً، ويرجع. ظل في تجويف الطاحونة أسبوعاً.**

**- والبرد؟**

**- لم يهلكه البرد، قال إن ماء النهر كان أكثر دفئاً من الهواء، لكن عند الفجر كاد أن يتجمد. كان خائفاً أن يسمعوا صوت اصطكاك عظامه وأسنانه، بات شعره كالقنفذ. يصعد كل ليلة من ليالي الأسبوع مع دلاء الطاحونة إلى الأعلى، يتسلل إلى سقائف البيوت الخالية إلا من الرصاص الذي أفرغ. تسلل في ليلته الأولى إلى بيت لميا باحثاً عن طعام فوجد بقايا الحريق والطفلة "سحورة" المتفحمة. وفي الليلة الثانية وبعد جهد طويل وجد قطرميز الشنكليش، التقطه وعاد إلى مكمنه مؤمناً عشاءه، ثم في ليلة تالية أمسك قطرميز مربى المشمش وعاد إلى مكمنه وهكذا نجا.**

**بيوت** حارة فطمة في الضفة الأولى أكثر رشاقة وحداثة من بيوت الضفة الثانية، ترتدي نساؤها، على الموضة، التنورات وجوارب النايلون والأحذية ذات الكعب العالي والجزادين معلقة بالزند مثل مارلين مونرو. أما غطاء الرأس فمنديل شفاف، شفاف "حاطّة منديل بالاسم، سمك الحمرة على شفايفها هيك، إعمل هف، هف.. يطير المنديل". أما الرجال فيعقدون ربطات عنق ويرتدون جوارب وأحذية برباطات وبناطيل وقمصاناً منشاة بأزرار أكمام منفصلة.

أما أهل الضفة الثانية فالنساء، على الغالب، بملاءات سوداء سميكة مثل الملحفة، تنّوراتهن زمّ عريضة مضيّعة للمعالم وأحذيتهن

بكعب قصير يساعد على الحركة والتسوق وزيارة الجيران وتفقد الأحوال. أما الرجال فيرتدون دونما تكلف جلابيات عريضة قديمة وجديدة لافرق إلا يوم الجمعة فيعتنون بارتداء جاكيت فوقها، يسمون هذا اللباس، طقم عربي. يخرّج بالبند الذي يصنعه أبو فطمة في الضفة الأولى، يكسرون[1] أحذيتهم من أول تجريب لها عند البائع، لأن هذا أدعى لراحة المشي والعمل.

ذات يوم، ليلاً أو نهاراً، صعدت ضفة النهر الثانية إلى البيوت التي كانت متطاولة، أسقفها قبب تعلوها أهلّة أو أسقفها من قرميد، نوافذها متقاربة وشرفاتها صغيرة وخجولة، لكنها مثل درج فطمة شفافة منحنية، كثيرة ومترابطة وقريبة. هناك كان شموخ البيوت كتلاً حجرية كتيمة راسخة، تتخللها نوافذ ضيقة وعالية. في الطبقة الأولى إسطبلات الخيل، حين كان الفرسان يعرفون كيف تُروّض الخيول وكيف يعتلونها، يغنون معيّرين وزير الفرنسيين بحاله، يغنون للصبية بثقة الرجولة وتوق عال للأنوثة المتخفية وراء النوافذ.

هناك، بعد الجسر الصغير، كانت الشرفات تتقدم البناء لتطل على النهر، تكاد أن تلتقي شرفة فطمة طالبة عفو النهر، الذي لا تستطيع تجاوزه فهو، رغم هدوئه، كان يوماً يفور فوراناً شديداً مخيفاً.

كأن الشمس تشرق من أجل هذه البيوت فقط، تضيء الواجهات، ثم ترتد إلى الشرفات المقابلة، فتشكل لوحات حيرت فناني الضفتين الذين تباروا في تصويرها، لكن عبثاً. كان من يسكن هذه البيوت يدعو الناس أن يصدقوا أن شمسه مختلفة في شروقها وغروبها، فالشمس تشرق عليها أولاً، بشعاع مضيئ من دون حرارة، ترمي بضفيرتها باكراً لتلمس الخد بضربة خفيفة، توقظه،

(1) يثنون حافتها الخلفية تحت كعب القدم.

وتتبختر في كل زوايا البيت، وقبل المغيب ترحل قاصدة التأخر.

هناك كان بيت أهل لميا المجنونة، التي لم تكن مجنونة، محشوراً بين بيوت كبيرة، لم يكن يبدو ناتئاً، هم أهل حارة واحدة، الأبواب كلها مفتوحة، فلا فرق إن كانت أسقف البيوت قرميدية مزينة من الداخل بطبقات خشبية معقدة في زخرفتها وفخامتها، وبين سقف "سادة". لا فرق بين أرض مرمرية وأرض إسمنتية سوداء تلمع بعد الغسل عصراً. لا فرق بين خياط وبين صاحب ضيعة، ربما كانت هناك فروق من نوع آخر، أما اليوم وبعد أن هُدمتْ كلها وصارت دارسة خواء فقد تذكروها. تذكروا جمالها فقط.

أمر رجال أبو شامة ببناء مركز "الخلية الذكية" للاتصالات مكان تلك البيوت التي دخلوا حاراتها بالدبابات وهدموها بالطائرات وأن ينصب أمام البناء الجديد، على عمود عال، لوحة كهربائية هائلة تحمل إعلانات ضوئية متناوبة تحتل النهر حين تنعكس فيه فترسم مساحات زرقاء وحمراء وخضراء تزيغ النظر.

**يقول قاطنو الضفة الأولى، ضفة فطمة، إن لوحة إعلان بناء الخلية الذكية تجلب الكآبة لهم، فهي تحجب القمر والضوء أيضاً. قال فارس، حين اشتكت فطمة حزينة من تعلق لميس بالخلية الذكية للاتصالات:**

**- لميس لا تعبأ بها، لا تراها. هي وسيلتها فقط للاتصال بالعالم والتعرف على ما تريد.**

**- لكنها لا تتصور جمال البيوت قبل الهدم.**

**- أنت تريدين إعادة تربية الجميع.**

**أضاف فارس:**

**- أبو شامة بعيد، أدار ظهره.. هكذا تكون القيادة. ربما بعد**

**انتصاره نسي مدينتنا ونسينا.**

**عندما** رأى فارس فطمة للمرة الأولى، رآها عند ضفة النهر تبكي بعويل مرعب، تغسل ساقيها:

- أهذا دمي أم دم أعمامي أم أبناء أعمامي؟

جذبها نحوه ناهيها عن الصراخ. كانت تتصاعد من الحارات نتيجة القصف الشديد موجات سوداء، يقطعها هدير الطائرات المحملة بأنواع المتفجرات. رفعت رأسها مذعورة:

- احترق بيت لميا وتشرّد أهلي كل في اتجاه، وجدت نفسي وحيدة عند النهر، البيت الكبير فارغ، غرسوا حرابهم في تراب الحديقة، كأنني رأيتهم يطعنون النخلة، أصاب جدتي الخرس والعمى ثم اختفت، أم الحب احتضنت الأطفال وهربت بهم، أمي ركضت خلف أبي عندما أخذوه كي يسألوه عن نذير، أختي ليلى.. أتكون مع أم الحب؟ أخي أحمد أخذوه مبلل الثياب ببوله، الدنيا برد.

أخذ فارس يهدئها:

- كفي عن الصراخ، يجب أن تنجي بنفسك وننجو، هرب أولادي مع أمهم قبلي، تأخرت كي ألملم لوحاتي، هم لن يسرقوها، أو يهتموا بها، لكن ربما يمزقونها، كما فعلوا ببعضها، طعنوها أمامي بحرابهم.

انصاعت للركض معه عبر الطرق الخلفية، كانت تشاهد في طريقها اللاهث بقايا أعضاء بشرية مبعثرة، معدة ملتصقة على جدار، قلباً مرمياً هناك، ذراعاً لا تعرف صاحبها، بنطال "بيجامة" فيه ساقان:

- ربما تكون بقايا جثة أحد أولاد عمي.

تتذكر هطول الرصاص عليهم وتساقط الجثث على بعضها. كان حظها جيداً أن جثتها الحية لم تتأثر بالماء المغلي الذي سكبه أحد رجال أبو شامة على القتلى كي يتأكد من موتهم. كان إبريقاً كحلي اللون كبيراً وطويلاً موجوداً منذ دهر فوق مدفأة غرفة الجلوس، فيه منذ دهر ماء مغلي لوضوء الجدة. وكان مفيداً ماؤه الساخن في اختبار الموت من الحياة. فالجثة التي تأوهت من نار الإبريق نالت نصيبها من الرصاص الجديد. أما فطمة التي رصت عينيها وكتمت أنفاسها وأصرّت على البقاء حية فقد كانت نار الإبريق برداً ولسعة ولعنة لاتنسى.

وسط البيوت التي تتهدم حولهما، وصلا إلى صخرتين هائلتين أبتا إلا أن تصمدا، قالت فطمة وهي تتقيأ وتلهث:

- أرجوك، أريد أن أسند ظهري بين هاتين الصخرتين.

- لا وقت سوف يصيبنا القصف.

لكنها تركته ودخلت بينهما، لم تستطع عيناها رؤية الظل بعد امتلائهما بالغبار الكثيف، تهاوت على الأرض، مغمى عليها، استيقظت لترى أمامها كومة هائلة من الجثث، صرخت مرة أخرى، شدّها فارس ناهيها كي تكف. لكن أنيناً انطلق من تلة الجثث جعلها تصيح مرة أخرى:

- يوجد أحياء يجب إنقاذهم.

أجابها كاذباً:

- إنه صوت القطط. سحبها وهو يقطر عرقاً، دموعاً، رعباً.

خرجا من المدينة ركضاً على الأقدام. أخذا كل أنواع وسائل المواصلات، كي يصلا إلى أقرب ضيعة، وعندما أمسك فارس بيدها وهي تهبط من الطرطيرة[1] قال:

(1) شاحنة صغيرة بثلاثة عجلات فقط.

- يدك ساخنة جداً.

أجابته وهي ترتجف:

- من أنت؟ ما اسمك؟

وجدا في الضيعة بعض أهل المدينة، ممن استطاع أن يهرب مثلهم. قضيا بضع ليال في ازدحام الضيعة يأكلان اللقيمات التي تهيأت لهما من المساعدات كي يدفعا البرد والجوع والتعب إلى أن اطمأنا إلى انسحاب أبو شامة ورجاله من الحارة مؤدين المهمة التي جاؤوا من أجلها، الانتقام وتلقين المدينة دروساً لاتنسى.

قبّلت فطمة أهل البيت الذين أوت عندهم ولم تتذكر أحداً منهم فقد قضت فترة هروبها تهذي:

- معدة من كانت ملتصقة على الجدار؟ ساق من كانت مرمية بجانب الباب؟ وتلك الساعد الصغيرة التي ترتدي كم ثوب، تشبثت بساعد كبيرة، أي صغيرة كانت صاحبتها؟ كلّابة مغروزة في رقبة، مؤكد أن صاحبها قد عُذّب بشدة. الأنين ينطلق من أكوام الجثث، أنقذوا الأحياء من بين الأموات..

قبل أن يصلا المدخل الأول للمدينة شاهدا جبلاً من ركام يتحد مع الفضاء في بياض مغبر. رأت الضفة الثانية، أرض خواء، أكوام الأسقف والأرضيات، الجدران والشرفات والحدائق، الشجر والأسرّة والصحون، الأوراق والحقائب ولباس الأطفال وقمصان النساء النايلونية، وجلابيات الرجال. صاحت فطمة:

- ثم ماذا بعد؟

غطت وجهها بكفيها حين رأت دكاكين الحارة مزدحمة بالجثث التي لم يصل إليها سائق التركس بعد. تعب التركس كثيراً خلال الأيام الماضية في نقل الجثث وتغطيتها بقماش الخام العسكري. كان الهواء يطير زوايا القماش، فيطل رأس أو قدم أو كتف، متابعاً

الاستماع إلى إذاعة أبو شامة التي تبث خبر زيارة ابنة أخيه المدللة إلى المدارس وتوزيعها الورود على التلاميذ في مدينتها، بذكرى عيد ميلاد عمها أبو شامة.

أبقى رجال أبو شامة على جدار واحد من كل هذه البيوت، هو الجدار الغربي من بيت لميا. أجابها فارس:

- تركوه كي يسجلوا نجاحاتهم ويلهوا. يستندون عليه من الطرفين حين يتعبون ويملون من القتل، يبوّلون عليه. ربما يشبعونه بولاً، شتائم، رصاصاً، يشبعونه لطخات تحمل شكل أكفهم الحمراء.

- لكن كيف يتضايقون من لميا؟ من يتضايق من لميا؟

- ليست لميا المقصودة.

كانوا يا ما كانوا، كانوا يركضون من الضفة الأولى إلى الثانية، قاطعين الجسر الذي لم يكن مسوّراً بالحديد، بل بأحجار القناطر، يصلون إلى الحارة الرفيعة الطويلة المعتمة المخيفة للأطفال في الشتاء، خصوصاً صوت الطاحونة المرافق، الذي يجلب النعاس للكبار.

كان عاصم يركض، في الصيف، قاطعاً الجسر عائداً من دكان معلّمه المنجّد، مسافة المائتي متر في ثوان، إلى أن يتلقى نور الجسر الصغير، عندها يتمشى على مهله. يخطر في باله أحياناً أن ينكس في النهر نكسة مع بقية الأطفال، يأخذ "زوم" ثم يمضي إلى البيت كي ينال من أمه قبلة عجلى ويجلس ليأكل لقمتها، تلك التي تعتبره رجلها.

- فطمة أنا تعبان.. هل أحضرت معك ماء؟ أحس بالعطش.

قال فارس بفم مر وجاف وراح يردد موالاً.

"كنت شجرة على الماي جابوني لشيل الماي".

استمعت فطمة وهي تنشج متأملة الخراب، الفراغ والغبار، من دون أن يغادرها أنين الأحياء المنبعث من كومة الأموات بين الصخرتين.

شاهدت لميا لأول مرة بعد أن جنت، تذرع الجسر، مهرولة، بين الضفتين، رافعة كفيها إلى السماء مهدّدة أو راجية. غطاء رأسها سقط على كتفيها، شعرها مشعث، وثوبها ممزق عند الصدر.

- ألا ترى معي أن الطمي قد زاد؟

بانتظار انتهاء المئة عام، حسب رؤيا البصارة، ظلّت الأزقة مزدحمة بالنساء المتشحات بالسواد. على أكفهن أكياس طعام ثقيلة للأفواه المنتظرة، يتعثرن بجلابيبهن كل صباح، بين توبيخ البائع وصراخ السائق فيما تحتار أيديهن في الإمساك بطفل وبتعبئة الأغراض أو بتهدئة تلك الأصوات الخشنة، بابتسامة استرضاء خجولة، ليس فيها من الأنوثة شيء، لكن فيها كل الذل. تلك الابتسامة التي تجعل الرجال يشيحون بوجوههم مللاً، إمعاناً في إهانتهن.

تغيرت الحارة، فالاغتراب طبع كل حجر غادر مكانه وبات تحت رحمة رجال أبو شامة. أما النهر الذي كان يحتضن شباب الحارة مهما كان الارتفاع الذي يرمون أنفسهم منه فقد بات يرسل روائح غريبة.

**تفقدت فطمة أحواض مزروعاتها، نزعت ورقة صفراء يابسة هنا وغصناً مريضاً هناك، لملمت الأوراق الساقطة ثم دفنتها تحت التراب:**

**"أفضل سماد لها".**

**سمعت حركة خلف الباب، ظنت أنها لميا:**

"تراها تريد أن تأكل؟ تشرب؟ تقضي حاجة؟" لكنها تبينت أن الحركة، حوار بين رجلين:

- منذ كم من الوقت لم تر فطمة يا حاج عمر؟

- أزورها كلما انتصف الشهر العربي، أتذكر يا عاصم؟ عندما كانت "تتعربش" على الشجر أسرع منا كلينا، كنا نخجل من جرأتها. سرح عمر ثم أضاف: فطمة حظها قليل.

- هي التي تحمّل الأمور أكثر مما تحتمل.

- فطمة غير كل النساء.

- وحدتها الطويلة جعلتنا نراها غير كل البشر، أظن أنها تحتاج أن ننظر إليها كأم فقط.

- لا، أنت مخطئ يا عاصم، فطمة لا تكتفي بالبشر.

- يا حاج عمر أنت تكفر.

- أستغفر الله.

- أظن أن أخاها أحمد سيعود مع من سيعود، هكذا سمعت.

- أرجو ذلك، لكن ما أخبار طلابك الجدد؟

- أنا قلق، فالطلاب فضوليون كثيرو الأسئلة، وأنا لا أستطيع إلا أن أجيبهم.

- أجبهم.

- هناك أسئلة لا يمكن الإجابة عنها، وإلا فسوف أصبح بعلم الغيب، لكن أيضاً لا أستطيع أن أكذب.

دخل عمر مرة ثانية في وسواسه:

- لن تبعث يا حاج عمر.

صعدت الدرج كي تحضر غطاء رأسها وترتدي معطفها متوقعة أن يطرقا الباب، لكنهما غادرا قبل عودتها.

**يقولون** إن مولد أبو شامة كان قبل "الثلجة" ببضع سنوات. استطاعوا تحديد عمره من شكل رقبته، حين لطمه أبوه وطرده. يومها أقسم أنه لن يعود إلا بانياً لأمه قصراً لا ينسى. في تلك الليلة صارح صديقه وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة أنه سيحكم البلاد.

على التبن كان مولده، لازمه طعم الملوحة الرطبة، بينما أهله يلحسون بقايا المعلبات الفارغة. كان جميع الأطفال في حارته يفتحون أكفهم الصغيرة عند توزيع الطعام، إلا هو، كان يرفع حرج جلابيته ويفتحه آخذاً أكبر حصة.

أكثر ما يغضبه إذعان أهل بلده للفقر. يقضون يومهم متجمعين أمام الحفر الثمانية مالئين أيديهم بالحصى اللازمة للعبة "المنقلة"، تعلو أصواتهم في خلاف حول خانة، أو غش أحدهم بإزاحة حصاته، بينما تقرقر بطونهم من الجوع المزمن، أو من الدود النشط.

لعل أم الصافي، قريبة أبو شامة، هي سبب الهجوم. أحضرها الجد ابن البيك صغيرة جداً كي تعتني بالعم العاجز، ترتب غرفته وسريره، تفرغ مبولته، تضع له المساند على الكرسي، وتستبدلها ليلاً بمخدة السرير، عمليات طويلة معقدة لكنها ضرورية. تحمّلت الكثير من صخبه وصراخه.

- ما سبب عجز عمي محمود؟

- أصيب في ساقه يوماً أثناء عودته من السينما، التهبت وبعد أيام اسودت، مما اضطر أطباء ذلك الوقت إلى قطعها وظل يتحرك على كرسيه مع كرسي آخر إضافي، يتنقل بينهما، واضعاً مساند كثيرة وراء ظهره، وعلى المقعد.

كان يحب الملح الزائد في الطعام تماماً كما يحب الحلويات. شكّل مدرسة للصبيان سماها "عنوان النجاح"، درّب أولاد الحارة فيها على التجويد في القراءة وعلّمهم الأناشيد والموال، وهيأهم مثلما رغب أخوه نذير. كان لا يحب اللغات الأخرى وبعفويته اتفق مع نذير فنال رضاه ومباركته، شكّل فريقاً للعب كرة القدم، علمهم باستخدام لسانه وعصاه. أما الفتيات فقد كن يهرعن إلى البيت لارتداء الأثواب المستورة عندما يسمعن صرير كرسيه عائداً إلى البيت، كان لا يطيق رؤية أصابع أقدام إحداهن، فهذا موضوع يشغله. أشرف بنفسه على مراقبة خروج النساء من البيت. كن يتسللن كثيراً باستغفاله والخروج إلى السينما أو إلى السوق. كان لا يكف يردد: همُّ البنات للممات، وعندما يبدأ بوعظهن لا ينتهي قبل ساعتين، يجمعهن حوله ويبدأ الحديث بصوت عال جداً، ثم يخفضه مع خفض رأسه إلى أن تتلاشى الكلمات الأخيرة، وعندما تنطلق الضحكات المكبوتة، يتنبه فجأة وتعلو وتيرة الصوت مرة أخرى. كانت تسليته إثارة مجنون الحارة عندما يصرخ: "بدّي أمك بالحمام" أو"بدّي أمك على السطوح"، حينها يضحك ملء فمه رافعاً طرف جلابيته الأمامي بيده اليمنى، جاعلاً منها مروحة لساقه الوحيدة. لغرفته رائحة "صنان" كانت بسبب نسيان أم الصافي مبولته ملآنة.

ظل محمود العاجز يضربها بعكازه صارخاً:

- بهيمة ملح، بهيمة ماء، بهيمة لا تمشي أمامي أثناء الصلاة..

حتى استطاعت أن تعتليه يوماً، معلنة حملها بالصافي. كان يوم ولدت ابنها هو يوم عرسها الحقيقي فقد أمرت الجدة بإحضار الشيخ كي يعقد زواجها من العاجز وتحول الجميع من مناداتها: "بهيمة"، إلى مناداتها أم الصافي. صار لها دور مثل بقية النسوة في الطبخ

وإطعام الأعمام والأولاد، لكنها لم تستطع أن تغيّر شيئاً من عاداتها التي فطرت عليها.

قالت أم فطمة باستعلاء:

- قلب أم الصافي فقير، تختار، حين يكون دورها بالمطبخ، شوربة العدس بالزيت والبرغل المسلوق، وعندما تعد المائدة تضع عدد الملاعق بنصف عدد الموجودين قائلة: لكل اثنين ملعقة واحدة، كي تخفف عن نفسها عبء الجلي.

لم تكن أم الصافي تعرف أصول الصلاة. كانت تحاول إيجاد أي حجة عند موعد نداء أبو رحمون. كانت تحس من نظرة العم محمود أنه يسألها:

- متوضئة؟

ترخي عينيها في الأرض وتدّعي أنها لم تنتبه. إلى أن جاءت ظهيرة كان الجميع في قيلولتهم، نادتها الجدة أن تقف أمام البحرة، لقنتها أصول الوضوء ثم ناولتها طقم صلاة جديداً، علّمتها بصبر صلاة الظهر ثم في يوم ثان علّمتها صلاة العصر وبعد عدة أيام باتت تمد سجادتها في الصف الأخير خلف الفتيات الصغيرات وترفع كفيها إلى رأسها، تقول الجدة: لا ترفعي يديك هكذا كمن ينوح. فتصطنع خشوعاً متمتمة بصوت عال.

قالت أم فطمة رافضة مشاركة أم الصافي لهن في الصلاة:

- تبدو بأصابع قدميها المشوهتين من تحت التنورة البيضاء، وبكفيها المتراكبين على صدرها وبوجهها غير الخاشع، كنبتة مزروعة في وسط أرض الدار رغماً عن الجميع.

امتعضت أم الحب وقالت:

- وأنا أيضاً نبتة غريبة.

كانت أم الصافي تقضي صلاتها وهي تعطس، فما إن تضع

الغطاء الأبيض وتمد السجادة الصغيرة وترفع كفيها قائلة: نويت أن أصلي فرض..، حتى تنتابها نوبة من العطاس المتكرر الذي قد يبلغ خمسين عطسة فتمسح بغطائها الأبيض مخاطها كي تؤكد نيتها بعدم قطع صلاتها، وهكذا لا تنتهي حتى يكون صدرها قد تبلل بالكامل.

قالت أم فطمة:

- سبب هجوم أبو شامة هو عمه، حين اشترى قماش جلابية من الحارة وكان العم جميل هو الذي باعه القماش، مدّه عليه كي يتأكد من الطول، وعندما انحنى الرجل، سحب جميل القماش إلى أسفل غامزاً أخوته، فقضى الرجل العيد بجلابية لا تغطي قصبة رجله.

رأي أبو فطمة، أنه سواء كان السبب قريبة أبو شامة زوجة العاجز أم غباء عم أبو شامة صاحب الجلابية القصيرة، أم سخرية أخوته وبطرهم وغرورهم فقد كان الهجوم أعنف بما لا يقاس.

أما السبب الحقيقي للهجوم فلعله نذير، نذير الذي احتل أعلى غرفة في المنـزل، وقد كان المفضل عند الجدة، يخافه الجميع. فعندما يعود إلى البيت تنخفض أصوات الأطفال ويتراكضون إلى غرفهم. يستيقظ في الخامسة صباحاً يتوضأ ويصلي الفجر، يقرأ القرآن بصرامة غير خاشعة، ثم يتوجه إلى الشرفة حيث نصب حبلاً ثخيناً في السقف يتسلقه بسرعة حتى يلامس السقف ويهبط، يعيد الكرّة عدة مرات، رياضة بدنية لا بد منها.

حدث مرة أن نسوا قيلولة نذير، كان غداؤهم على السطح في الربيع متعة لا تنسى، فبانتظار العجة والبطاطا، خطّ الأطفال الخانات على الأرض بالطبشور إيذاناً بلعبة "الصبّابة"[1] وما إن علا

(1) لعبة تتم بضرب حجر بالقدم على خريطة رسمت على الأرض.. شرط الفوز أن لا تدوس القدم أو الحجر على الخطوط.

صوت أحدهم "حشيتو دودة"[1] لأن اللاعب داس على الخط، حتى استيقظ نذير من قيلولته غاضباً، وأمر أن ينزل الأطفال إلى القبو خالعين ثيابهم، مستلقين على المفارش العارية للأسرّة الحديدية بعقاب طويل، نفّذه الأطفال بكل أمانة. عندما أُفرج عنهم عادوا إلى أمهاتهم باكين حاملين بقعاً حمراء على خدودهم وأجسامهم الطرية بتأثير الأسلاك المضفورة للأسرّة الحديدية.

كانوا يستمتعون في مراقبته أثناء طعامه أو أثناء عمله أو قراءته، فقشرة البرتقال تخرج من بين أصابعه قطعة واحدة، كأن البرتقالة لم تمس. يضع أشياءه في الخزانة بهيئة تجعلهم يخشون تشويهها بأنفاسهم فيكتشف تطفّلهم. أما غرفته فقد كانت عارية الجدران إلا من لوحة طرِّزت "بالصرمة"[2] بآية قرآنية: "إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه". أما مكتبته فمليئة بكتب مزخرفة، منقوش اسمه عليها من الأسفل لتعبر عن ملكيته لها. كان بعض النساء والأطفال يظنون أنه مؤلفها.

من علٍ يتقن فن الحديث والإقناع. إن أخطأ أحدهم فلا مغفرة ولا نسيان، سوف يخضع لعقاب هادئ مذل من السخرية، وربما يخرج بلقب يطلقه نذير عليه، فيحمله طيلة عمره، لقب أحد الأعمام "الجق" وآخر "كوساية"، وغيره "مسودة الصورة"، جميل "النسونجي" وعبد الحكيم "كشاش الحمام". أما فطمة فلها ألقاب عديدة: "البستانية، يهود خيبر.."، وليلى "الشوكولاتة".

اعتقد نذير بالمذهب السائد وحفظه بعناية، مداخله ومخارجه، حجج الدفاع عنه ووسائل التملص من المآزق التي لا بد وأن تحملها كل عقيدة، لم يكلفه هذا سوى وضعه كفنه على رأسه من

(1) نداء الفوز.
(2) خيوط ذهبية.

أجل قول كلمة الحق التي يدّعي، عمامة بيضاء كبيرة يثبتها بمهارة. كانت أم الحب تقول:

- كفنه على كيفه وكلمة الحق على كيفه.. والدنيا مصالح.

يعود نذير حيناً للتراث وحيناً يستشهد بنظرية حديثة، قال مخلص مربي الأجيال الذي ظن أن العم نذير سوف يرسل له كي يعلن توبته وراء محراب الجامع. فهو يدرّس الفلسفة ويحرض الطلاب على التفكير بعيداً عن الأطر الجاهزة:

- عندما تنفذ الحجج لدى نذير فإنه يصوغ نظريته الخاصة، بلا خجل، فالجميع مقتنع مسبقاً، لهذا لم يحتج إلى كبير عناء في السيطرة بمبدئه، لأنهم مبهورون به وبعالمه.

كان نذير يرسل الأعمام إلى أي فرد لا يروق له في المدينة، يأمره بالمثول، أمام الجميع. يعلن توبته وراء المحراب وعودته إلى صراط نذير، فأبو شامة لم يصل المدينة بعد، حتى يجبر الناس أيضاً على التوبة، والعودة إلى صراط أبو شامة. من يتعاون مع أبو شامة من قريب أو من بعيد، أو من يخالف نذير بالعقيدة والسلوك، سوف يستيقظ صباح الجمعة ليجد مظروفاً مغلقاً مرمياً من فوق باب بيته، مكتوب فيه:

- اسع للتوبة قبل أن يفوتك الميعاد.

سيقضي الصباح باكياً في سريره كي لا يراه أولاده، وعندما تحين صلاة الجمعة سيتوضأ ويتجه إلى الجامع المذكور في ذيل الورقة، يؤدي الصلاة مع الجماعة، وبعد انتهاء الخطبة والأدعية يتجه منكساً رأسه وسط نظراتهم المذلة ليقف وراء المحراب قائلاً:

- إني أتوب ثلاث مرات.

يدخل بيته ولا يخرج إلا لعمله حاملاً لقب "التائب".

يفضل نذير نفسه على الجميع في طعامه الذي يطبخ خصيصاً له

وكأس الليمون الذي ينتظره بعد الاستيقاظ، وكذلك "سفرة" الطعام التي توضع بحيث يكون الصنف الأول والأهم مقابلاً له وحده وصحن الفاكهة الطازجة والخبز المسخن، كل هذا بمباركة الجدة ورضاها الصامت. قام بتغيير أثاث البيت بحيث يصبح مناسباً لعقيدته وراحته وظروفه. أما ثيابه فقد كانت دائماً مغسولة ومكوية بحدة جعلت فطمة تظن، في انبهارها بها، أن قماشها من المعدن، فتدّعي حجة إحضار منديل لعمها كي تطويه وتضعه في جيبه وتلمس صلابته.

في ذلك العام الذي حج فيه، لم يُسمَح للأطفال بارتداء ثياب العيد الكبير، كانت مبرراتهم أن العيد يكون بعودة الحاج من مكة. فقبل أيام من وصوله نُصبت المصابيح في الحارة دروباً، جيئة وذهاباً، شُكّلت عريشة من أغصان السرو، تخللتها الأعلام حاملة عبارات المباركة.

دخل الحاج البيت مع ذبح الخروفين، بين أصوات الطبل وقطع الراحة المتناثرة، مرتدياً عقالاً أبيض.

قالت أم الحب:

- كان يوماً مشهوداً عوّض الأطفال عن أراجيح العيد.

لم تُفتح الهدايا حتى الصباح الثالث لوصوله، حسب العادة، فانطلقت رائحة البخور والصابون المعطر، كانت السُّبحات الملونة مكومة في زاوية الحقيبة الأولى، وباقي المساحة مخصصة للجلابيات والهدايا الأخرى.

حصل كل طفل على منظار، وبضعة أفلام دائرية مقسمة إلى أهلّة، تحمل لقطات للأماكن المقدسة، مكة، الكعبة، جبل عرفات والمدينة. شغلت اللعبة الكبار أكثر من الصغار. أما النساء فكان نصيبهن قطعاً قماشية من الشيفون والمخمل والحرير وأخفافاً

ومناديل مقصبة، وغير ذلك من الهدايا التي سببت خلافات كثيرة. نظرت كل منهن إلى هدية الأخرى في إحساس أزلي بالغبن والغيرة، غير مقتنعة بنصيبها، لم ينتبه أحد إلى أن حصة أم الحب لم تكن أكثر من كيس تمر صغير وزعته بعد ذلك على الأطفال كي يرضوا.

قيل:

- إن الأسباب المباشرة، وغير المباشرة المذكورة عن هجوم أبو شامة هي أسباب سطحية، غير صحيحة.. ربما تواطأ العم نذير مع أبو شامة، وهذا تفسير بعيد، أو ربما كان الأمر سوء تدبير من العم نذير وهذا تفسير قريب.

**"ترى إن صارحتهم بمرضي هل سيخففون عني؟ لكن ما هو ذنبهم؟"**

**فكرت بلميس:**

**"البنت صغيرة، يجب أن تفرح، لديها حدس يكشِف ويفضح".**

**كانت تتحدث إلى نفسها وهي تنظر في المرآة ماسحة خديها بأصابعها:**

**"لم تعد تجدي كمادات الشاي والزهورات في التخفيف من هذه التجعيدات.. ترى كيف سيكون ألم المرض؟ كيف هو الموت؟**

**نظرت حولها:**

**"من سيعتني بكل شيء؟ كيف سأفارق لميس، البنت متعلقة بالبيت. أما لميا فمن سيتذكر طعامها؟"**

**تنبهت:**

**"منذ أكثر من عشرة أيام لم أسخن الحمام لها، الدنيا حر وعرق، يجب أن تستحم".**

**أطلّت من الباب الكبير فوجدتها مستندة إلى المصطبة تدوّر لسانها في فمها، وجهها دبق وثوبها متسخ، أظافرها سميكة سوداء:**

**- لميا، لاتغيبي، يجب أن تستحمي.**

**- فطمة.. روحي نامي.**

**- أقول لك لا تغيبي يجب أن تستحمي.**

**- كان الأستاذ عاصم الأجدب والحاج عمر المجنون يقفان هنا، قالا لي إن ثيابي متسخة.**

**نظرت في حرج ثوبها ونفضت فتات خبز يابس. قالت:**

**- لماذا لم تلدي ولداً؟ "أنوسة" ابني صار عمره عشرين، أما "سحورة" فقد تدللت على العرسان حتى قبلت الزواج وسافرت و..**

**تركتها فطمة آسفة وأغلقت الباب:**

**"المسكينة.. تظن أن أولادها أحياء".**

**في** الصباح وقفت أم الصافي في أعلى الدرج، كانت أصابع قدميها المشوهة تبرز من حديد الدرابزين للعيون التي فغرت لرؤيتها تطل من عل بثبات. أعلنت بصوت واضح بلا تأتأة أو ارتباك، رغبتها في تقسيم الميراث. كان العاجز يسبّح ويتمتم مدّعياً الطرش، وقد استبدل العصا بسبحة تتدلى من أصابعه، تكاد بطولها أن تلامس الأرض.

في الصباح التالي، كان الطقس حاراً جداً، النخلة هادئة والبحرة ترسل نافورة ضعيفة بقدر الماء الذي يصل إليها. سمعوا صرير كرسي العاجز. لم يتحرك أحد من مكانه، حتى الفتيات اللواتي اعتدن الهروب منه لم يكترثن لقدومه. قالت أم الحب:

- أصبح الجميع أكثر تسامحاً ويأساً فالحزن والغياب يغيران العادات.

كل ما فعلته أم الصافي صباح البارحة ليس بأهمية ما جاء محمود به.

طلب من مطيعة أن تتزوج عبد الحكيم كشاش الحمام، ومن سميحة أن تتزوج العم جميل، فالأخ يجب أن يلمّ لحم أخيه، حتى وإن كان متزوجاً، الله أمر بالسترة، مطيعة لعبد الحكيم وسميحة لجميل.

عبد الحكيم الذي سوف يتزوج مطيعة يحب تربية الحمام فعندما كانت الجدة تراه حاملاً العصا مربوط فيها خرقة تقول: "رش ذرة وقش خرى وسمعة وسخة بين الناس". ما يميز عبد الحكيم هو حركته السريعة ويده الخفيفة التي ترشق الأشياء، حتى لقمة الطعام كان يرميها في فمه من مسافة بعيدة، وهو على خلاف دائم مع جميل بسبب السطح، جميل يحب التلصص على الجارات:

- أنا جميل، ألا أسمح لهن برؤية جمالي؟

أما عبد الحكيم، فهمّه مختلف. كان يجلس القرفصاء لساعات أمام الطيور يراقبها، حركاتها، طعامها، فضلاتها، مشاويرها، حتى تلاقحها كان يتابعه ملتذاً بنزقها موسعاً من عينه الوقحة. يوم "زرّع"[1] الطير على نافذة الجارة أم عمر، قذفه عبد الحكيم بحصاة صغيرة كسرت الزجاج، فراحت أم عمر تشتم وتصرخ. يومها أعلنت الجدة إغلاق السطح بباب حديدي أبقت مفتاحه في جيبها، مانعة ابنيها الطائشين عبد الحكيم كشاش الحمام، وجميل النسونجي من ممارسة عاداتهما، كذلك حُرم الأولاد من متع كثيرة، منها أن يغمسوا إصبعهم في صينية مربى المشمش المغطاة بقماش من الشاش الأبيض، المثبت بملاقط الغسيل، حرموا أيضاً متعة مد أصابعهم بين خيطان كيس الجوز، ليأكلوه أخضر طرياً.

(1) مكث طويلاً.

أُجبر عبد الحكيم على نقل بيت الحمام بكل "كراكيبه" إلى سطح غرفة الغسيل حيث لا درج، مما اضطره لاستخدام السلم في الصعود وفي الهبوط، شاتماً في كل درجة:

- يا جميل يا نسونجي.

وجميل النسونجي إن افتقدته، فستجده على السطح، أو على المغسلة يحلق ذقنه ويغني. لم يعترض أحد على إغلاق السطح، فهذا مخجل، لكنه لم يعدم الوسيلة، فقد حوّل برج مراقبته من السطح إلى شباك غرفة الضيوف.

يسليهم استعداده اليومي للخروج عصراً، إذ يقف عند المغسلة تاركاً الماء ينبعث من الصنبور خيطاً. يضحك في المرآة متحدثاً مع نفسه بصوت عال، أو مغنياً: "بترحلك مشوار.. قلت لها ياريت". يقول "ياريت" من قلب مجروح، أو يردد:

"يا طالعة عالدرج وشايلة القفة
شعرك سناسل دهب لفة على لفة
وحق الخالق ورمضان والعيد والوقفة
ما حليلي البوس إلا قطف على الشفة"

كانت الفتيات يتحلّقن حوله، فيسألهن:

- أي الخدين أجمل، الجهة اليمنى أم اليسرى؟

وهل وجهه ضاحكاً أجمل أم مقطباً؟ فتجيبه ابنة عم فطمة:

- لولا أنك عمي "لحبيتك".

تقولها وتركض، فيركلها بقدمه على مؤخرتها ويضحك:

- صاير لك أو راك "وليك".

كان عندما يتحدث إلى امرأة يستخدم الأحرف المؤنثة، كمن يود أن يحتضن صاحبتها، تراه يكسر جفنيه المحمرين سهراً وعشقاً ويمد راحتيه الأنثويتين مع ابتسامة يستجمع فيها كل سحره، متشجعاً

بابتسامة أم الحب المؤنبة بحنان. رغم احتجاج الجارة أم عمر على تلصص جميل، فقد رأت ابنتها تلوّح له من نافذة حمّامهم.

أصبحت أم الصافي سيدة البيت الكبير، خلّصت الأرامل أخفافهن المقصبة، منعتهن من ارتداء أحذية تظهر جمال أقدامهن، بطبيعة الحال فرغت أذرعهن من الذهب وتغضنت من الهم والانتظار. قالت أم الحب وهي تمسح كفي الجدة:

- وجوه الصبايا التي كانت تنوّر، تهدّلت وصارت بلون الفقر، والعيون الخضراء والزرقاء والعسلية والسوداء، ما الفائدة من لونها؟ صارت بعد أن نفدت دموعها كماء النهر في لونه وطعمه.

اختلفت الأقوال حول اختفاء نذير من الحارة، فمنهم من قال إنه خرج من الحارة على دراجة نارية وكان يعلك مسكة، صدره مكشوف عن سلسلة طويلة، ربما أصابته رصاصة طائشة، ومنهم من قال إن نذيراً خرج متنكراً بزي بدوي، ومنهم من قال إنه رجع من هروبه جثة، ودفنته الجدة في الحديقة مخبئة صدمتها، فحل محل "حوض الأبو تم". أياً كانت الروايات فالكل متفق على أن عمامة رأسه البيضاء والتي هي رمز جماعته، ظلت في البيت الكبير ولم يعثر عليها أحد.

ذات مساء لملمت النساء فيه الأساور، هدايا صباح أعراسهن، و"كردان"[1] أول صبي ولدن، وما تبقى في صررهن من ليرات ذهبية، ارتدين السواد واتجهن باكراً، سرباً واحداً إلى قصر أبو شامة ملتصقات ببعضهن بخطوة واحدة وباتجاه واحد، شفاه مرتجفة، جفون محمرة، يحاولن نسيان النقمة وإتقان أساليب الرجاء والتذلل، من تقبيل اليد القذرة إلى ترداد قصائد المدائح.

أخذت مطيعة تروي لحراس أبو شامة، لكي تسهل المرور، نوادر النسوة المرافقات، تلك النوادر التي تزيد من خيلاء ونشوة الحراس. راحت النسوة يمعن في رسم ابتسامة البله، كي يساعدنها، فالمهمة شاقة والكرامة مؤجلة، والهدف معرفة مصير أزواج وأولاد وأخوة لفّهم الغياب والغموض.

انتظرن أمام البوابة الأولى ساعات وأمام الثانية ساعات. كانت أشكال الحراس تزداد شدة وصرامة وطمعاً، فيزداد خوف الأرامل ويأسهن وفراغ ما بحوزتهن، إلى أن وصلن غرفة كبيرة عارية من الأثاث، كان القلق والإنهاك في أوجه، طار الحماس وحل اليأس.

دخل رجال أبو شامة إلى الصالة الكبيرة يتفحصن أشكالهن. كان ريق النساء قد جف تماماً، فاكتفين بدموع صامتة ثم طردن خائبات.

في آخر الليل عدن سرباً بخطوة واحدة ضائعة وبطيئة، دخلن مدينتهن المهدمة، وتوجهن إلى بقايا بيوتهن من دون أن ينبسن بحرف، ثم وبوقت واحد أغلقن الأبواب.

(1) عقد من الذهب والماس يقدم للزوجة عند ولادتها أول صبي.

في الصباح هز الأركان صوت مطيعة تسقط على الأرض وتمسح وجهها بقميص ابنها المفقود، تبكي وتركض إلى المصطبة التي تصطف عليها الأحذية تقبّلها وتصرخ بعويل مرعب، تلصق وجهها في الجدار وتقبّله:

"يا حبيب أمك، اشتهيتك تمرض يا قلبي لأخدمك، اشتهيت جبلك كاسة ماء، كان مشتهي الباطرش وأنا أجلته ليوم تاني، ما في يوم تاني يا عين أمك".

ثم هربت إلى برية القبور.

عندما وصلت برية القبور، كان الحارس ما زال نائماً، فأكثر زوار القبور يأتون عصر الخميس. أما أن تأتي هذه المرأة، فجر الاثنين،كي تحفر بأظافرها قبراً، فهو خارج التوقع.

امتلأ حضنها وفمها بالتراب، ابتلعته أيضاً. كوّنت تجويفاً بأصابعها قدر ما استطاعت، فتحت حقيبة ابنها الذي جاء ليلة واحدة يأكل لقمتها. أخرجت منها نوتة المادة التي كان ينوي قراءتها في يوم الإجازة. أخرجت جوارب ومريول الطب، وأشياء كانت تحتاج لمساتها الضرورية جداً، غسيل وكي ورتي.. وجرعة حنان، صفّتها بعناية بالغة في القبر، ثم غيرت ترتيبها عدة مرات وعندما اعتمدت الترتيب الأخير أخذت تبكي بجنون، وهي تنثر قبضة التراب الأولى، كما يفعلون عادة بعد إنـزال الميت الغالي. كوّمت التراب كي يرتفع قليلاً عن الأرض، سقته، ثم قرأت الفاتحة.

صار لديها قبر تزوره عصر الخميس، تغرز عيدان الآس الخضراء وتربط على كل عود شريطة حمراء وصفراء وخضراء:

"في هذا اليوم لولم يغب، لكان يوم تخرجه من كلية الطب يقبر أمه". تربط شريطة صفراء.

"وفي مثل هذا اليوم كان سيُسحب للجيش". تعقد شريطة

بيضاء.

"كان سيجهز عيادة في الضفة الثانية مكان بيت لميا، يعطيها أجراً، ويشغلها ممرضة شاطرة". شريطة حمراء وزرقاء. "خطب وتزوج". شريطة زهرية وسماوية. "أنجب ولداً وبنتاً". شرائط خضراء وصفراء. "بلغ ابنه السادسة ودخل المدرسة، يقبش سته".

"زوّج ابنته، بنت مربابة ومطيعة يا عين ستها".

عاش طالب الطب المفقود، بنوطة دراسته وقميصه، بعمر أمه وأحلامها وعيدان آسها وشرائطها الملونة الجديدة كل خميس. ليست أمه فقط من رصد مستقبله في فقدانه، بل شاركها الكثير من أهل الحارة. لم ينفكوا ينادونها، أم الدكتور، وهم متيقنون من موته مع من قتل عند جدار المقبرة العتيقة.

ألبس أبو شامة رجاله ثياباً موحدة اللون والشكل، مرسوماً عليها شعاره، التالولة. اتخذوا مكاتب لهم وسط الحارة، في بيوت من غابوا موتاً أو اختفاء. اغتربت البيوت عن ساكنيها الجدد، ظلّت أبوابها المغلقة ترفض من يقطنها بصمت، ترفض أيضاً سياراتهم الحديثة المدججة بإطاراتها الضخمة السوداء.

يقولون إن أحد رجال أبو شامة الذي تزدحم على صدره نياشين وأوسمة، يجلس عند البحرة التي تتوسط المدينة، محيطاً نفسه بأنواع الزهور المختلفة، يبتسم بنعومة وعذوبة، لا يمانع أن يشارك في رقصة أو حفلة، ماء، زهور، وجوه حسنة. اختفى يوماً. قيل إنه ذهب إلى حديقة حيوان مليئة بالنمور، تجاوز الأسوار، مأخوذاً بمؤخرة إحدى العابرات، فباغته أحد النمور والتهمه.

لم يستطيعوا تحديد النمر الذي أكله، كي يحاكموه إلا في اليوم الثاني حين وجدوا الأوسمة والنياشين في فضلات النمر المسكين. كثرت مثل هذه الحكايات على رجال أبو شامة. كان أهل

الحارة يتداولونها همساً.

كان هؤلاء الرجال يوزعون على الأرامل ابتسامات الظفر تارة والاشتهاء تارة أخرى فيما كن يهرولن عند رؤيتهم. فحادثة سيارة ابنة خالة فطمة جعلتهن في حذر شديد.

أُوقفت عند حاجز لرجال أبو شامة. كانت بنت خالة فطمة وأخوها وقريبة لهما. اقترب الحارس من المقعد الخلفي مدعياً القيام بمهمته في التفتيش الاعتيادي، قرص الصبية من صدرها، وتراجع كمن لم يفعل شيئاً. سكتت الفتاة تماماً، لكن ما إن تجاوزت الحاجز حتى بصقت من النافذة بوجه غاضب، فما كان منه إلا أن أطلق رشاشه على إطارات السيارة وأنـزل من فيها منهالاً عليهم رفساً وضرباً.

**سمعت فطمة صوت الباب الخارجي يفتح بأصابع لميس، وصوت قدميها وهي تنـزل القبو بقفزات رشيقة، طوّقت خالتها وقبّلت كتفها:**

**- خالتي لدي خبر سيفرحك.**

**لم تنظر بعد في وجه خالتها المتعب.**

**قالت:**

**- أهل الحارة يتزاحمون عند مدخل المدينة القبلي، يقولون إنهم أطلقوا سراح بعض الرجال، خالتي، طبعاً من فقدوا قبل يوم الجمعة الذي تتحدثون عنه.**

**حدس فاجأها:**

**- أيعود أخوها أحمد؟**

**هاجمها الشؤم، أين هم الآن؟ لو انهم يعودون مع بعض من عاد، سوف تحتمل عدم توازنهم بعد هذا الغياب الطويل.**

**تدرك أنهم سيعودون، نصف مخبولين، مثل كل من عاد.**

**بائع سودة الخروف المشوية "فيصل"، يجر عربته ماضياً بسرعة أمام البيت الكبير ثم يستقر به الموقف عند الجسر الصغير. يبيع السندويتشات من دون كلمة واحدة، كان أكثر شباب الحارة شقاوة، وصار أكثرهم شروداً. اقتربت الكلاب من عربته مشتهية الشواء. حاول تناول حجر من الطريق العتيق، كي يهددها به، فوجد الحجر ملتصقاً بالطريق. أطلق شتيمته التي صارت شهيرة:**

**- الله يلعن هيك حارة، كلاب فلتانة وأحجار مربوطة.**

**حاول** مرة في أيام شقاوته أن يرشو آذن المدرسة بقنينة عرق خبأها بين كتبه. أراد مغادرة المدرسة مبكراً ليلحق انصراف مدرسة البنات، لكن القنينة سقطت منه عندما همّ بإخراجها فانتشرت رائحتها حتى اخترقت نافذة غرفة الموجّه. سرعان ما أرسل هذا يستدعي أباه قائلاً:

- اليوم ابنك يرشو آذن المدرسة بقنينة عرق، غداً يحضر له "شرموطة".

بذل الأب كل جهد كي يهذّب ابنه الطائش، ظن مع أم فيصل أن الولد ناجح لا محالة، فقد كان يأتي بعد كل مادة راقصاً على الجانبين يفقش بأصابعه:

- تمام، تمام..، إلا في الرياضيات، جاء حزيناً بسبب ضياع بضع علامات، سهواً، قال مؤكداً إن العلامة ستكون بين الخمسين والستين. لكن النتيجة التي حصل أبوه عليها، بالواسطة، قبل موعدها الرسمي كانت في جميع المواد 46 علامة من 260. دخل الأب البيت يقلّد ابنه راقصاً ويقول:

- تمام، تمام..!

ثم هجم عليه:

- تمام يا ابن الكلب!

سبب غياب فيصل الراسب في البكالوريا، أنه باع راديو دراجة، وبضع علب من جبنة البقرة الضاحكة لأحد العابرين، لم يتوقع أن الضريبة ستكون استدعاءه لشرب فنجان قهوة هناك، لأن هذا العابر ذكر في اعترافه الدقيق والتفصيلي جداً، من الهواء الذي تنفسه في عمره حتى آخر كلمة تفوه بها، أنه اشترى من فيصل الطائش علبة جبنة، وراديو صينياً تعطّل منذ الليلة الأولى.

لذلك مكث فيصل ستة عشرة عاماً.

بعد عودته أصبح أكثر الرجال صمتاً، نسي الشقاوة وأيام الشباب، كره ذكر القهوة. قال الأستاذ عاصم:

- فيصل ذنبه أكبر بكثير من غيره، فهناك من أخذ لأنهم رأوا خط يده على نوتة دراسية لأحد المقبوض عليهم، وبعد بضع صفعات، تذكر المعذَّب صاحبَ الخط، فأُحضر الأخير، غاب عندهم عشرين عاماً. وهناك من غاب خمسة عشرة عاماً، لأنه كتب اسم شخص على دفتر هواتفه من دون كنية، فلما سألوه عن الاسم، نسي المناسبة التي سجل فيها اسم صاحب الهاتف، فاعتبر أنه يستخدم الرموز. هناك من قضى ستة عشرة عاماً، وفي كل يوم يقول له حراسه ألا يقلق، فلا يوجد عليه شيء سوى ان اسمه مثل اسم والد أحد المغضوب عليهم، وذلك يكبره سناً. ثم هل أنسى الفتاة ضاربة الآلة الكاتبة في صحيفة المدينة؟ أخطأت بحرف واحد من اسم أبو شامة وكتبت الطاء بدلاً عن الشين "أبوطامة"، ولم تلحق أن تصحّحها لأنها ضُربت حتى نسيت اسمها؟

أضاف فارس ساهماً:

- أما من لم يعودوا فقد بات نادراً أن يذكروا.

عند مدخل المدينة الأول المحسن، غرسات صغيرة موزعة على طرفي الأتوستراد، وفي وسطه، جديدة لكنها جافة وبطيئة النمو، مغبرة وكسولة. يمكث الناس الليل والنهار عندها، في أيام البرد يشعلون النار، يتحلقون في صمت وانتظار وصبر، وفي كل الفصول ينتظرون.

تنتشر الشائعات أن هناك دفعة من الرجال عائدة من مجهولها، يتركون ما بأيديهم، ويهرعون إلى هناك، ينتظرون عودة الابن أو الأب أو الأخ أو القريب، أهل المدينة أقارب، الجميع يقرب الجميع. أو ينتظرون عودة صديق خطف من صديقه في غفلة منه. كانوا يتناوبون في مهمة انتظار عودة الغائب أو المفقود، بأمل ضعيف وخوف على أمه المشتاقة لوجه ابنها، أو على زوجته المنتظرة عودته كي يخفف عنها وحدتها، وتعبها في تربية أولادهما، أو ابنته الصبية التواقة لرؤيته كي تكون معجبة بأبيها، قضت الابتدائية والإعدادية والثانوية تسألها معلماتها عن أبيها، فتجيب بصوت خفيض: غائب، مفقود. لم تكن تحتاج لكلمات أكثر، فالجميع مصاب بالغياب والفقدان، لذا تقسّم العائلة الواحدة بعضها إلى فرق للانتظار، تؤدي مناوبات ليلية ونهارية، تعود الفرقة الأولى وليس لديها أي خبر لصاحبة البيت المنتظرة عودة الغائب، فيؤجَّل الأمل إلى اليوم الثاني.

فجأة من بعيد يشق ضوء الباص الكبير برد الليل وسواده، فيتدافعون إلى الحافة الأولى، يتجمعون قاطعين جزءاً من الشارع. قبل أن يتوقف الباص تماماً، يهجمون هجمة واحدة على الأبواب والنوافذ، تعلو النداءات، أصوات رجال ورجاء نساء وأطفال ينادون

متوقعين وصول: بابا.

يردد المنتظرون أسماء غائبيهم التي غالباً ما تكون بكنية واحدة فيعيد ترددها السائق ومعاونه والركاب المسافرون في الباص، يعيدون الأسماء المناداة بتوسل لله وقدره ولكن.. من بين مئة عائلة تنتظر، تحظى عائلتان بغائبهما، وتغادران معتذرتين متمنيتين بحرارة عودة بقية الغائبين.

وضعت فطمة كأس الماء بجوار رأسها، قرأت في كتاب حتى غفت. كانت تترجّع في رأسها أغاني الموضة التي تفرض وجودها عليها قنوات التلفزيون.

"رأت أنها عاهرة، تحاول مساعدة عاهرة عجوز للهرب من الإقامة الجبرية، خمسين عاماً، في بيت العاهرات. أمسكتها من يدها المرتجفة ونـزلت الدرج الضيق العالي، تعثرت معها كثيراً وكانت العجوز لا تكف عن ذكر مأساتها في البيت الذي قدمت فيه شباب لحمها ولم تجن إلا النكران والقسوة والوحدة. تحدثت بفم مرتجف قاذفة أنفاساً قذرة، أما فطمة فكانت تحاول نجدتها خائفة من أن يباغتها أحد ويعيدها"

نامت تلك الليلة، ولم تقرر بعد:

"هل تخبر أحداً من أقاربها، أم تترك الأمر للمصادفة؟ ما الذي يجديها من إخبارهم بخبث مرضها؟".

كابوس العهر لم ينسها الورم الخبيث. كانت أنفاسها ترتد إلى وجهها وتلفح جبينها. تلطم أنفها برائحة طعمها مرّ. حاولت أن تدير ظهرها، وتستأنف نومها. لكن الكوابيس عاودتها مرة أخرى ورأت خلايا رقبتها تتكاثر عند نحرها وتتضاحك ثم تتقافز مثل حبات البوشار، رأت أن رقبتها انتفخت، وأصابع قدميها تحوّلتا إلى كتل مشوهة، الإبهام متطاولة منحنية، والأصابع المجاورة تلتف على

بعضها قطعاً لحمية غير متمايزة. علت أصوات أعمامها يغنون "نخ الجمل ما شالها". فتحت عينيها لترى الجربوع مستلقياً على كرسي طاولة زينتها. أحست أنه ينظر إليها مباشرة، كأنه ينتظر يقظتها، التفت إليها وجعل ظهره للمرآة، عينان لامعتان وقوائم قصيرة:

"متى تموتين وترتاحين؟ أتدرين؟ ستموتين عاجلاً أو آجلاً".

صوته خشن مموه. هكذا تخيلته يقول جملته ويقفز عن الكرسي برشاقة وعدم تكلف. لوّح بقائمته الأمامية لها ممازحاً. ودّعها كزائر أجنبي ثم رفع غطاء بالوعة الممر وانطلق كمن يعرف طريقه تماماً.

أغفت ثانية.. وعندما صحت رأت نفسها عارية من ثيابها، جلدها جلد نمر مبقع سميك يشبه غطاء سريرها وخلايا الورم تتناثر على البقع مثل حراشف السمك.

بحثت عن الجربوع باعتيادية في الزوايا، على ظهر الخزانة، على قبضة الباب، تحت الوسادة، على مفتاح مصباح الكهرباء، لم تجده.

كحالمة، سمعت صخباً غير مألوف يبدأ عند الباب الكبير، ثم ينتقل إلى أرض الدار.

رغم الدوار قفزت إلى عتبة الدرج الحجري.

من خلال الرؤوس المزدحمة استطاعت أن تتبين رأساً يبدو كآوونة[1] صغيرة تتخلل سطحها الناعم شعيرات نابتة. إنه أحمد أخوها، رأت هذه الشعيرات كزغب أفراخ طيور حديقتها. قطعت الدرجات:

- والله.. وحق الله.. أخي أحمد.

قبّلته من كتفيه، وتمرغت بصدره مرددة:

- الحمد لله، الحمد لله.

(1) الآوون هوالبطيخ الأصفر.

جاءتها أصواتهم مهنئة دفعة واحدة.

قال عبد الحكيم:

- عندما وصل ابن أخي أحمد لم أتذكر إلا فرحتك بعودته.

ردد العم جميل بدوره:

- ستجدين السلوى مع أحمد.

قال الأستاذ عاصم:

- سنتولى تدريسه وتعليمه ما فاته.

أما الحاج عمر:

- المهم أن لا تنسى عباداتك يا أحمد.

تمسكت لميا ببقجتها.

غادروا جميعاً، بعد أن أشبعوا العائد أسئلة من دون انتظار لجواب. كانوا مدركين أنه الوحيد الذي سيعود، لأنه لم يؤخذ يوم الجمعة، وكانوا مدركين أيضاً أنه لن يتكلم عن أي ذكرى، لأنه خائف.

- خائف؟ مهووس من الفزع، مذعور، نحن لا نجرؤ، كما أن شكله لم يكن يشبه شكل أهل الأرض.

سألته أخته:

- هل تريد أن تنام قبلاً أم تغتسل؟

- فطمة أريد أن أفطر في القبو.

- "خيو"، اغتسل ريثما أحضر لك الفطور، أجابت تطمئنه.

قلَت له بعض قلوبات الدجاج، حضّرت له الشاي، المكدوس والزيتون والجبنة واللبن المصفى جيداً والخبز الطازج، همّت إليه تسأله إن كان محتاجاً إلى من يساعده في ارتداء بيجامته التي أخرجتها من صندوق الجدة.

- ألم تجدي غير هذه البيجامة، لقد أخذوني وكنت مرتدياً

مثلها.

- أخذوا الجميع وهم لابسون مثلها.

لم يكن يرفع رأسه مطلقاً، لا يفتح عينيه، يقول كلمته ويسارع إلى خفض وجهه، راصاً يديه الممدودتين إلى جنبه. نظرت إليه يتناول فطوره ببطء ثم بسرعة، يأكل فتات الخبز الذي يسقط منه، بأصابع صفراء ناتئة العظام، يصمت طويلاً، هزيل:

"هزيل.. يكاد يتكسر على كرسيه. لِمَ لم أفرح لعودته؟"

- قال ابن عمك إنه سيخضعك لعلاج فيزيائي يمكّنك من تحريك عظامك المتيبسة.

- كدت أنسى طعم اللبن المصفى، لكن لبن أم الحب كان أطيب، هل ماتوا جميعاً؟

أجابت فطمة بأسى:

- نعم.

- ماتت أم الحب؟

- فركت البحرة "بسيف" الألمنيوم، واتجهت إلى الصنبور الملاصق للباب الكبير، لفّت الخرطوم عليه، غسلت وجهها ويديها وقدميها، جلست بخفها البلاستيكي على حوض "الهوى الناعم" وماتت. هكذا ودعتنا، مثلما جاءتنا لأول مرة بنتاً صغيرة جلست منتظرة مشورة الجد للجدة في استقبالها. وزع أهل الحارة ورقة النعي كبيرة مكتوب فيها أسماء أعمامك وأبنائهم وأسماؤكم جميعاً كأبناء للمرحومة.

نام أحمد في غرفة نذير الشرقية القبلية التي تتيح لساكنها أن يبدأ يومه أنى شاء، شرقاً أو غرباً، ينهيه أيضاً أنى شاء. جلس على حافة السرير، حائراً، كيف ينام على هذا الفراش الصوفي المنجد جيداً، والذي يشبه موج البحر؟ إنه يومه الأول، يريد المسكين أن

ينام غير عابئ بالبطولة التي أصروا أن يلحقوها به. استلقى على طرف السرير، ربما غفا.

**هناك** في المكان الذي لا يتسع لأكثر من خمسين رأساً مزدحمين، كان يحشى فيه مئتان، ينامون تسييفاً[1] "**راس وعقب**"، كتلاً لحمية، كانت يوماً رجالاً. سوف يقع برأس أي واحد منهم أو أكثر من واحد لقب المعلّم، بفتح العين وشد اللام وفتحها. المعَلَّم هو صاحب العلامة، والعلامة هي قرار ذلك العسكري الذي تصاعد في رأسه، يطلقه على ضحيته، إن تحركت، أو تنفست، أو حتى إن لم تفعل أي شيء، كم يشتاق العسكري للقاء المعَلَّم. يبدأ وجبته الشهية في فترة التنفس الصباحية للكتل اللحمية، بسلسلة من الشتائم كمقبلات، ثم يهوي بسوطه الحديدي على جسد صاحب العلامة ثم بالعصا الحديدية. بعد ذلك يرمي السلاحين، ليلتهمه بيديه، وهو يكز على أسنانه من اللذة. بعد أن يمل من يديه، سوف يسقطه أرضاً، يدعسه بحذائه الحديدي، وعندما يحس بعظام المعَلَّم تتكسر تحت قدميه، يصل إلى ذروته، ويتركه يزحف نحو باب المكان الذي تتزاحم عنده الكتل اللحمية التي تنفست حتى الاختناق. ستسمح هذه الكتل للمعلَّم أولاً بالدخول متحملين سوطاً إضافياً على الظهر أو على الرأس أو على الأضلاع. سوف يستلقي المعَلَّم منهناً في مكانه المعتاد يعاني من الأوجاع الشديدة حتى يحين الليل، عندها سيجلس العسكري نفسه القرفصاء عند النافذة العلوية "الشرّاقة"، كي يراقب الضحية المقبلة. يا لسوء حظ من يغفو، ويتقلب في نومه أو يتحرك أو يتنفس، فسوف يأخذ لقب المعلَّم كي يُجرّ في الصباح إلى جلاده ويؤكل. سيُجرّ المعلَّمَ إلى العسكري معلَّمٌ آخر كان دوره

(1) على جنوبهم.

**في الحراسة. ماذا يحرس؟ لا شيء، إنهم ميتون.**

لكن في كل ليلة يوجد حارس منهم عليهم يطلق عليه لقب "السهّير"، يقف عند دورة المياه التي يسمونها "البخشه"، يحبس نفَسَه مع النائمين الواضعين "الطماشة"[1] مترقباً بكل شعرة من جسده شهوة الجالس القرفصاء عند النافذة العلوية. لن يتجرأ على رفع وجهه ورؤية فخذي العسكري ملتصقتين بحذائه الحديدي، كمن يود أن يبصق فضلاته في وجوههم، أما "السهّير" فلن يتجرأ حتى على كرهه.

كان أحمد سهّير الليلة. وقف عند حائط "البخشه" يستنشق هواء الفضلات حابساً تنفسه، ليس قرفاً، بل خوفاً. كان أحد تلك الكتل النائمة المعصوبة العينين يعاني من ضيق شديد في التنفس، لا بد أن أزمة القلب داهمته، سيحتاج لكأس البلاستيك كي يضغط بكل ألمه على صدره حتى تنتهي الأزمة، هكذا اعتاد أن يعالج جلطة قلبه. تحرّك، غصباً عنه تحرّك، كان الوجع أكبر من الخوف. رآه العسكري من نافذة المهجع. صرخ:

- يا كلب يا حارس علِّم هذا واجلبه لي غداً وقت التنفس.
- سيدي. إنه يعاني من أزمة قلبية.
- وتدافع عنه يا كلب؟ يا.. يا.. ثم بعد بصقة سخية:
- علِّم نفسك وعلِّمه يا "شرموط".

في التنفس الصباحي، مات المعَلَّم الأول من الضربة الأولى لأنهم جروه من أزمته القلبية التي لم تكن قد انتهت، أما أحمد، فرغم الأحزمة التي لفّ جسمه بها من خرق عتيقة جمعوها وساعدوه في إحكامها، كوقاية تخفف ألم التعذيب عن المعلَّم، ورغم مئة آية قرأها ونفخ بها فقد أعيد إلى مكانه ليقضي عامين مشلولاً. ثم بعناية

(1) عصابة تشد على العينين.

ربه وحنان الضحايا شفي، بات يجر قدماً ويدوس الأخرى بصعوبة.

الإيقاظ في السادسة، الفطور في الثامنة، بضع حبات من الزيتون يتقاسمونها بالحبة، فإن زاد عدد منها عن القسمة بالتساوي، فسوف يخبأ من أجل اليوم التالي، ليس لأنهم شبعوا، بل لأنهم لم يشبعوا أبداً. ولكي تكون القسمة متساوية، يأتي الشاي في جاط من البلاستيك يسكب بالتساوي على القصعات، ما القصعة؟ هي وعاء طعام وهي أيضاً المجموعة المتشاركة عليه والتي يمكن أن تضم سبعة أو ثمانية أو تسعة. يسكب الشاي بالعدل في الكؤوس الممدودة التي تدعى "الكار" : "مرطبانات" الطحينة الفارغة، مقصوصة الفم، منها تصنع الملاعق أيضاً، تسوى أطرافها بالنار وتقسّى باليد.

أما الحلاقة، فغضب لا يغضبه رب اليهود، يُجرون من مهاجعهم بالرفس وبالدعس، يصطفون أمام مجموعة من السجناء القضائيين الذي هم في الغالب قتلة محكومون بالمؤبد، لكنهم محسودون بالمقارنة مع هؤلاء الراكعين أمامهم والذين بعد سنين السجن الطويلة لايعرفون ماهو سبب حبسهم؟ بعيون مغمضة ورؤوس تنكسها العصي إلى مستوى سيقان هؤلاء القضائيين الذين أُحضروا كي يحلقوا لهم. يصرخون بهم، يرفسونهم، يتناولون الطاسات التي بجانبهم، والتي تحتوي على رغوة قذرة جداً، حاملين في أيديهم فرشاة وشفرة غير صالحة إلا للجروح والتشطيب.

بسرعة، بغضب، بحقد، يضربونهم بأدواتهم على وجوههم. كل واحد من هؤلاء الحلاقين يرفس الراكع أمامه إلى الحلاق الذي يجاوره.

دخلت فطمة تطمئن على نوم أخيها أحمد الذي سيعاد تسجيله حياً بعد توفيته في دائرة النفوس وفي دفاتر المختار المستعجل. وجدته على حافة السرير كحد السيف، متشنجاً صلباً كلوح معدني:

"إنه نائم".

فكرت أن تنام أيضاً، لكنها العاشرة صباحاً وعليها تهيئة غداء أخيها العائد.

"من المؤكد سيأتي أكثر من ضيف، ليعرض مساعدته التي يستطيع، ويسأل أحمد إن كان قد صادف فقيدهم".

ستعد مقلوبة بالباذنجان، لديها لحمة "راس العصفور"، والباذنجان طازج. يمكنها أن تفرم صحن سلطة صيفية، وصحناً من اللبن بالخيار. تناولت المقلاة من الخزانة الصغيرة، نقعت خمسة كؤوس من الرز، قشرت الباذنجان، أخرجت مواد السلطة من الثلاجة التي عادة تكون ممتلئة. يقول عبد الحكيم عنها حين يصدر صوت محركها في شوط الراحة:

- تجشأت ثلاجة فطمة.

هّمت أن تتناول بصلة من السلة الموضوعة أسفل درج السقيفة، قفز الجرذ. في هذه المرة لم يختبئ في مكان ما، البالوعة، أو تحت الدرج، أسفل الكرسي أو الطاولة، بل وقف في منتصف المسافة بينها وبين فرن الغاز، رفع قائمتيه الأماميتين، حاول أن يستطيل بقامته الزاحفة، رافعاً وجهه في وجه فطمة. نظرت إليه بدورها بعينين ثابتتين ولم تتحرك من مكانها. اتجه إلى بالوعة خزانة الزبالة واختفى. سكبت خمسين سطلاً من الماء الممزوج بالكاز على أرض المطبخ ودرج السقيفة بوجه محتقن وصامت:

"والله الزمان زمانك".

استيقظت من غليانها على صوت أخيها الذي لم ينم أكثر من

ساعة، يسألها عن العملة التي يتداولونها في السوق. جلس على الدرجة الأولى من سلم السقيفة، كأي طفل ينوي أن لا يترك أمه في مطبخها.

- لم تخبرني "خيو" كيف أوصلوك إلى الحارة؟

- أعطوا كل سجين مئة ليرة أجرة طريق، لكن عندما وصل الدور إلي نفدت النقود منهم، سكتُّ، لم أقل كلمة واحدة، خشيت أن يؤجلوا الإفراج عني بسبب نفاد النقود، أنقذنا قول أحدهم: سيجدون كثيرين يتبرعون بإيصالهم إلى بيوتهم.

أوصلونا إلى كاراج انطلاق الباصات.

قال مقطباً:

- صدمتني هذه الباصات الحديثة، هائلة، صاج ملون ومصقول، ألواح بلور تعكس الأخيلة لماعة، نظيفة، ماسحات الزجاج، الأبواب التي تفتح آلياً، مساند المقاعد الملبسة بقطع قماشية بيضاء، تبدو من وراء الزجاج أشخاصاً ارتدوا صداريهم وجلسوا بانتظام. أحسست أن هذه العجلات الضخمة ستدهسني، كنت مثل دودة. قلت لمن معي: كأننا خراف متشابهة. فقال: مع ذلك فإننا قريباً سننام على فراش واسع، ونغسل وجوهنا بالصابون ونترك شعرنا ينبت على هواه، لنقصه على هوانا.

تبرع سائق، كان يقف بالمصادفة قرب الباص، بتوصيلهما هو ورفيقيه في سيارته الصفراء. صعدا في المقعد الخلفي، والعيون مشدودة إلى ما حل بالدنيا والناس. أمضى السائق الطريق كله يثرثر مع من كان يجلس بجواره، ولا يفتأ يستدير إلى العائدين من المجهول، يقهقه بسبب وبلا سبب. كان ظهر أحمد يؤلمه بشدة وكان زميله يرتجف، رغم الحر، ويتساءل، كل حين:

- ألم نصل بعد؟

- لم يبق أمامنا الكثير. قال السائق ضاحكاً.

قبل الوصول بدقائق توقف وقال متخذاً مظهراً جدياً:

- أنا مكلّف بتوصيلكما إلى المدرسة التي انطلقتما منها أولاً أيام الأحداث.

صدق العائدان المزحة، وسلما أمريهما للرب، فمن يقضي هناك كل هذه السنين لا يستغرب أن يرجع ويقضي ما تبقى من عمره أيضاً هناك. قال أحمد لنفسه:

"ما زال هناك الكثير ولن نزيدهم بعودتنا ولم ننقصهم بخروجنا".

أما الآخر فقد أغمي عليه.

قهقه السائق كثيراً وقال مداعباً:

- كنت أمزح معكم. بعد دقائق تصلون إلى مدينتكم وأهلكم.

قال أحمد لأخته:

- ما الذي حلّ بالناس؟ وهل أمثالنا نتحمل مزاحاً؟

تجاوز أحمد حديثه، وهو يجول بعينيه زوايا البيت مشيراً إلى ركن:

- كنت ألعب الورق مع ابن عمي، كان يسألنا ونجيبه بنكتة: شيء أسود وقلبه أخضر، نجيبه: "زلفو آكل خبيزة". أتذكرين زلفو اللحام الأسود؟

هزت فطمة رأسها ثم سألت:

- وماذا كنتم تأكلون هناك؟

- برغلاً مسلوقاً وأحياناً نصف بيضة أو بضع زيتونات نتقاسمها بالتساوي وقد يحدث شجار طويل عريض على زيتونة واحدة.

صمت للحظات غامت فيها عيناه.

**أوكلوا** إليه مهمة إحصاء الخبز ثم توزيعه مع بعض الشباب، كانت مهمة صعبة، أي خطأ في العد يعني عقاباً يصل حد القتل أو الضرب المبرح، لكن في الوقت نفسه تتيح له التحرك بحرية بين المهاجع.

استيقظ أحمد ليستمع إلى منامات أقرانه في المهجع، قال أحدهم:

- رأيتك على بساط طائراً مرتاحاً ومبسوطاً، لكن فجأة جاءك أبو شامة وسحب البساط، فهويت.

أدرك أحمد، من خلال تفسيره الخاص، أن هذه النعمة التي كان حاصلاً عليها سيحرم منها: توزيع الخبز والخروج في الممرات والباحات بين المهاجع. أحد الموزعين المساعدين لمح حارساً يخاف منه كثيراً. كان كلما صادفه في طريقه يضربه بحذائه تحت بطنه. فلكي ينجو من ضربة اليوم، رمى ربطات الخبز التي بيده عند المهجع الذي يسمى "جديد" وهرب كي ينجو من حصة الضرب، مما جعل أهل "جديد" يأخذون الحصة الأكبر. ولكن أحمد من نال الجزاء الرهيب. ضربوه بشدة، وارتمى شهوراً.

- كان المسكين الذي تسبب لي بهذا المصاب ينظر إلي ويبكي.

عند النوم تفرش العوازل التي هي ربع بطانية مخيط عليها قطعة من قماش الشوادر، لكل منهم مساحة بعرض شبر ونصف.. قضى أحمد سنين بركبتين مطويتين وظهر مقوس.

عندما تنتهي ساعة الحلاقة الأسبوعية تأتي "نعيماً" ونعيماً تعني صفعتين على الخدين. لكن ليس بأصابع الكف بل بكرباج سميك عرضه بضع سنتيمترات وطوله ما شاء العسكري له، هو لم يكن كرباجاً في الأصل، إنه سير نقل الحركة في الدبابة. بعد

"نعيماً" يعودون إلى مهجعهم الذي يسمى "جديد حنفية" كي يميز عن الجديد الآخر، بسبب وجود حنفية بجانب الباب الحديدي الثقيل، يرتمون على بعضهم كخراف.

**- لكن الخروف منذ الأزل خروف، أما نحن فلم نكن خرافاً، هناك، تمنَّينا لوكنا خرافاً، بل نملاً أو أي حشرة حقيرة. كنت أحلم بمهجع الجرب لأن لديه طعاماً أكثر. لا لم نكن نحلم بالحرية أو نهاية للحجز، كنا نحلم أن ينسونا. كنت أقرأ القرآن وقد حفظته. ثم بعد صمت، قال بتردد:**

**- قتل أحدنا نفسه، صرخ وهو في المهجع بقوة خارقة، إلى أن جاء العسكري إليه وفتح الباب، فدفعه السجين وركض. أسرع وسط دهشة الجميع، حتى كاد أن يقطع الباحات الثلاث، فما كان من الحراس الواقفين دائماً على الأسطحة العليا إلا أن رشّوه بالرصاص، ارتاح، أدركنا أنه أراد الانتحار. ربما جن لأنه كفر بكل شيء، صاح بنا أن نكف عن قراءة القرآن، أستغفر الله، يومها أتممنا ختمة عليه، ودعونا الله أن يغفر له.**

**- رحمة الله واسعة.**

**- كان "كار" الرجل وملعقته ينتظرانه. سمحنا له بقضاء ليلته السابقة في "البخشه"، بعد أن غسلناها له مع أنه لم يكن دوره في تلك الليلة. فالنوم في "البخشه" نعمة، لأن من ينام فيها يستطيع أن يفرد أطرافه على كيفه، كنا نغسل "بيت الأدب" ونمد قماش الشادر وننام.**

**سكت أحمد قليلاً، ثم هبّ من مكانه، ركع على ركبتيه أمام فطمة، يداه مشدودتان بقوة خلف ظهره، رأسه منكس، وعيناه مغمضتان.**

- هكذا كانوا يحلقون لنا وجوهنا ورؤوسنا.

أشاحت بوجهها ماسحة على رأسه:

- قم

سوف تراقب كل ما يفعل أخوها العائد في يومه، فضلاته تشبه فضلات صيصان الجيران عندما يهربون في أحيان إلى بيتها، فيوسخون أرض الدار بعصارات صفراء واهنة، رائحته خفيفة غريبة ومريضة، فضلات عينيه ومخاطه، غازات بطنه، رائحة فمه. وهو رغم حمامه اليومي الذي تصر عليه، ورغم العلاج الذي يجبر عليه كل ساعة، فإنه يتقدم ببطء شديد.

كانت جالسة على حوض الزرع خلف الباب الكبير، تسوي بأصابعها أوراق الهوى الناعم، تقلب التربة بقطعة خشب، شاردة عما تؤديه. أدارت لميس مفتاحها، سمعتها تداعب لميا:

- يا لميا لو رأى بازوليني عينيك التائهتين على الجسر بين الضفتين فسوف يخلّد وجهك في صالات السينما العالمية.

جلست بجانب خالتها تعبث بحقيبة يدها المليئة:

- ماذا بك؟ أنت متوعكة، وجهك مرهق، ستقولين لا تقلقي، خالتي، جرّبي أن تشركيني بهمك.

- حبيبتي عيشي حياتك، لا شأن لك بهمومنا، مازلت صغيرة ونحن لا نريد أن تعيشوا ما عشناه.

- لماذا تصرّون على أننا جيل غير مسؤول، جربي مرة أن تضعي ثقتك بي.

نظرت فطمة في وجه الصبية غير مصدقة، وعادت تنكش التربة.

- أين أمك؟

- تعرفين.. إما في السوق، أو على الهاتف، أو بزيارة إحدى رفيقاتها.. بصراحة يا خالتي أتمنى لو أنك مثل أمي. أجدها سعيدة.

جلستا في صمت طويل قطعته لميس:

- أين خالي أحمد.

- في غرفة نذير.

- متى أرى نذيراً هذا؟

- أحمد يتغير.

- دعيه يتغير أولا يتغير، لو أنك تستمعين لنصائح فارس لاستطعت العيش بشكل مريح.

دوار هائل فاجأ فطمة. سقطت، وانتزعت النبتة التي كانت متشبثة بها. صرخت لميس:

- وقعت خالتي.

حاولت أن تنهضها. قالت فطمة بصوت واهن:

- دعيني قليلاً، أريد أن أتقيأ.

لم تكد تكمل جملتها حتى راحت تتقيأ فوق تراب الحوض. تحاملت على نفسها واتجهت إلى الصنبور القريب، غسلت وجهها ويديها فيما هرعت الصبية لتحضر لها منشفة. أهالت فطمة التراب على إقيائها وأعادت غرز العود الذي انتزعته في إغمائها.

بات أحمد يمارس عادات جديدة تفاجئها. فما إن تمالك صحته في جو الخدمة الممتازة الذي هيأته، حتى تناسى غيابه، وتآلف مع المحيط، رغم ندرة خروجه من البيت واكتفائه بالجلوس حول البحرة واستقبال المهنئين الذين يبالغون في إكبار بطولته. ينادي فطمة بلهجة متعالية:

- فطمة.. سخني الحمام. - فطمة.. الماء ساخن جداً. - لماذا تقللين السكر في الشاي - لا أريد أن تستقبلي أحداً من ضيوفك - كفّي عن العناية بلميا - لا تفتحي الباب الكبير أمام الرايح والعائد - لا تسرفي - ألم يكن بالإمكان أن تصبري عند

زوجك بدل عيشتك هكذا؟ ما هذه العادات؟ إطعام أبو رحمون ولميا وأعمامي، يعني ماذا ينقصهم؟ - يجب أن نقطع شجرة النارنج، ونخفف من امتداد النخلة والدالية..

كانت فطمة جالسة ترشف قهوتها الصباحية على مهل، تستمع لأغنية من راديو في حضنها، عندما دخل مسرعاً:

- أريد نقل صندوق الجدة إلى الطابق العلوي.

ردت بغضب:

- لا يمكن أن أسمح بتغيير في هذا البيت حتى أموت.

- من ولّاك على كل شيء في هذا البيت؟

صمتت. صعد إلى غرفته، وصفق الباب. شعرت بدوار وألم شديد في عنقها، ربما غصة. لم تدر إلا ولميس فوق رأسها:

- خالتي ماذا بك؟ أرجوك، منذ أيام تهاجمك نوبات من الإغماء، أنت ترفضين إحضار الطبيب، أشعر أنك تخفين أمراً عنا.

ضمتها فطمة وقبلتها:

- لا تكترثي.

ثم طلبت منها أن تحضر كتاباً تقرآنه معاً.

يأبى أحمد العمل بمهنة أبيها في التخريج، يأبى أيضاً بيع القماش مع عميه جميل وعبد الحكيم. يطلب الزواج بخجل.

انغمست فطمة مع عائلتها في تأمين العمل المناسب، والزوجة.

كثير من تجار المدينة الذين استعادوا أعمالهم متصالحين كل المصالحة مع أبو شامة ورجاله، عرضوا خدماتهم في تشغيل أحمد وأمثاله، وإن لم يقم هؤلاء العائدون بعمل فعلي!

احتضنوهم، بلا بطاقة، ولاشهادة، إلا الاسم الذي احتفظوا به، وبعضاً من وصايا الجدة التي ظلت عالقة في ضمائرهم:

- تشغيل هؤلاء بركة، وسوف يرسل الله رزقهم بل وأكثر.

أو لعل مساعدتهم كانت لشعور بالذنب، فالغائبون دفعوا الأثمان عن الذين نجوا.

بعد استلام أحمد عمله الجديد، صارت نساء العيلة عصر كل يوم يتناولن القهوة حول البحرة. يقدمن اقتراحاتهن المتناقضة، المتفقة، في اختيار زوجة لأحمد العائد، فمنهن من تفضلها عازبة صغيرة، ومنهن من تفضلها متعلمة وإن تجاوزت الثلاثين، منهن من تقترح ابنة أقارب زوجها، كي تبيض وجهها مع زوجها وبيت حميها، والكنة زوجة الخال أو العم أو الأخ، تدير دفة الحديث دالّة على أخت أو ابنة أخت تتمنى أن يتذكروها، في حين تمضي فطمة في النقاش، سعيدة بهذه الفوضى، آملة قدوم أطفال جدد إلى البيت الكبير.

كل محاولات الأخوات والكنات باءت بالفشل. عاد أحمد من عمله ليخبر فطمة أن معلمه عرض عليه ابنته الوسطى ذات الشكل المقبول لتكون زوجة له. فالبنت الكبرى تزوجت إلى خارج البلاد لأنها جميلة، أما الصغرى الناعمة فيريدها ابن عمها. بقيت الوسطى لتكون بحكمة ربانية من نصيب أحمد. صحيح أنها تجاوزت الثلاثين لكنها تناسبه: "ست بيت"، طبخ وترتيب، "من تم ساكت"، طيعة. تكوي الثياب جيداً. هكذا أخبر أحمد أخته بالزوجة المختارة. أما فطمة فسرعان ما وافقت وباركت، وأدركت أن أبا الفتاة الميسور الحال سيعطيها شقة تسكن فيها.

"سأبقى في البيت الكبير وحدي، كأن أحمد لم يعد".

سارت قضية زواجه كأي زواج آخر. اختلف أهل العريس وأهل العروس على تفاصيل عديدة، منها برنامج الخطبة والعرس. قالت أم العروس بنزق:

- نحن تكلفنا الكثير من المال من أجل إعداد جهاز العروس

من "التفاصيل"[1] وقمصان النوم.. فعلى أهل العريس أن يمدوا الجهاز.

تريد عرض الجهاز الثمين أمام النسوة، ثياب السهرة وقمصان النوم، ومعطفي الشتاء والصيف، وبقجة العريس التي تتضمن بيجامتين و"روب دوشامبر" للعريس وأبي العريس الذي استعيض عنه بأكبر شخص باق من العيلة. كذلك خف للعريس، قطعة قماش لأم العريس المتمثلة بفطمة.

ترتيب الأشياء في غرفة النوم يكون بحفل يليق بالعروس، سفرة وزغاريد، والذي منه..

جهّزوا طاولة بلغ طولها ثمانية أمتار، اصطفت عليها الأطعمة المتنافسة، من منسف الخروف، والكبب بأنواعها، والتبولة، واليالنجي باليبرق والباذنجان، والسمبوسك والفطائر وغيرها من المأكولات المالحة والدسمة، بالإضافة إلى سلسلة من الحلويات المحلية، شعيبيات، بقلاوة، كنافة، كلها بالسمنة العربية التي تلذع اللسان والموضوعة نيئة من دون كيّ، كي تظهر بشكل أوضح لمن لم يميز.

أمام حيرة العريس والعروس وقلة حيلتهما، نفّذت نساء العائلة طلبات أم العروس متمتمات "الفاجر هجره ولا فجره". خلال عشرة أيام جُهّزت عروس أحمد. كلُّهم ساهموا في إتمام الزواج، ففي يوم واحد امتلأ البيت بالأدوات الكهربائية اللازمة، في يوم واحد كانت أم العروس قد أعدت حفلة تلبيس الخاتم، في يوم واحد أعدت فطمة "سفرة مد الجهاز".

مُد الجهاز في خزائن العروس ذات اللون الأبيض أمام العيون المتفحصة الفضولية، ربما اضطرت أم العروس أن تذكر أسعار

(1) ثياب السهرة.

قمصان النوم الحريرية والسراويل الداخلية أيضاً، والمحل الذي جلبت منه فخورة كل الفخر بكرم الأب، وذوقها الخاص أيضاً. مرددة سورة الفلق لرد عين الحسود.

العروس غائبة، لا يصح أن تدخل بيت زوجها إلا ليلة العرس.

وضعت المصابيح البيضاء من البورسلين على جانبي السرير، وصورة العروسين في الخطبة على طاولة الزينة بجانب باقة من الورد الصناعي، تقابلها مطبقية فرحهم ملفوفة بقماش التول الأبيض، وفيها الملبّس الملون.

أما ليلة الفرح، فبرغم إصرار العروس على إجراء العرس في صالة كصديقاتها، غير أن عناد فطمة، التي قالت كلمتها ولن تتراجع عنها، جعل أبا الفتاة يجبر ابنته على قبول أرض البيت الكبير أرضاً لعرسها.

أشعلوا المصابيح التي كانت فطمة قد نسيت مواضع مفاتيحها، وحين أنارت أرض الدار فوجئت بتساقط ضوئها على المزروعات. أضافوا مصابيح أخرى، جديدة وملونة. امتدت على الحبال دروباً أفقية وشاقولية، ملؤوا أرض الدار بكراسي بلاستيكية مكتوب خلف كل منها اسم صاحب دكان تأجير "الكراسي والشوادر، التي تنصب للأفراح وللأحزان".

رغم انهماك فطمة في إعداد صرر الراحة بالفستق، وكؤوس البوظة بالقشطة، وأباريق الماء البارد، والقهوة المرة، إلا أنها لم تنس أن تحضر طوقاً من فل أحواض الحديقة كي تضعه أمام كرسيي العروسين، وأن تنصب سجادة الجدة على الجدار، خلفهما على مصطبة خشبية جهزت خصيصاً لهذه المناسبة، التي لم تشهدها منذ زمن بعيد.

كان أبو رحمون يؤذن للمغرب، عندما تذكرت أنها لم تجهز

**الثوب الذي تريد ارتداءه في هذه الليلة.**

**تزاحمت الصبايا على الرقص مرتديات ثياب السهرة متفقات على الأغاني المناسبة، لاهيات في تنافس طفولي على رقصة أو نكتة للاستحواذ على اهتمام أمهات الشباب، العرسان المحتملين. أما النساء المتزوجات حديثاً فإن سلوكهن مختلف، صراع بين السلايف، غيرة بين الجارات، ثياب متبرجة، نصف عارية، حمرة سميكة، وكعوب عالية. وأصوات مرتفعة.**

**في الثانية صباحاً انتهت حفلة العرس، وكادت فطمة أن تنتهي معها. ودّعت الجميع مهدودة من التعب. صعدت الدرج متشوقة للارتماء في سريرها وتأمل القمر من نافذتها. تمهّلت عند العتبة الأخيرة، نظرة من الأعلى، فاجأها المكان المحشو بالكراسي البلاستيكية الفارغة المصطفة بانتظام. شاهدت كرسيها الوحيد، من الخيزران، بجانب درج القبو، كأنه سيفل بعد قليل من هذا الحشد، نسيت فوقه شال ثوبها الأسود القديم الذي ترتديه في كل المناسبات. تتردد طويلاً في شراء غيره. لكنه ما زال جديداً. ما زال يعطيها التفافاً لظهرها، وهي معجبة به، كما أنها لم تستخدمه منذ سنين. تهامست النساء بسخرية من موضته القديمة، لكن لم يعنها كثيراً، فقد كانت منهمكة في إنجاح الحفل وإسعاد العروسين.**

**في** وقت واحد طُرقت الأبواب جميعاً، بصمت وإيماءة واحدة من رجال أبو شامة. خرج أهل المدينة الباقون بعد الهجوم وتجمعوا على الجسر، حاملين الرايات والأعلام. قال فارس وهو يهم بالاختفاء عن الأعين كي لا يشارك في هذا التجمع:

- يحيّون أبو شامة، يشكرونه على أنه قتل أولادهم، هدم بيوتهم ونهب أموالهم، هاهم يصفّقون بحماس، بل بهستيريا لا

يمكن أن يرصدها أهم رجال الفكر والفلسفة والطب النفسي في العالم.

حمل أبو سليم ابنه الصغير، أركبه جملاً، أمسكه لوحة مكتوب عليها: "يا الله يا حامي تحفظ بيي أبو شامة"، اضطر إلى استبدال التاء المربوطة لـ شامة بـ ياء وإلى تغيير لهجته كي يكون الهتاف على القافية العامية. قيل إنه جميعهم عادوا إلى البيوت حاملين بصقة من لميا المجنونة.

- لكن ألم يجف ريقها؟
- ربما استعانت بماء النهر.
- بكت قناطر النهر تحت أقدامهم البليدة.
- أو بكت أنس ابنها الذي اختار منفاه في قاع النهر.

بعد أن رفع الجميع الراية البيضاء، اطمأن أبو شامة إلى أن شتيمته لهم أصبحت نشيداً صباحياً، يردده الصغار في المدرسة مجبرين. وبعد أن اطمأن إلى أن عباراته، كتبت على كرة ملونة مضيئة وعلّقت على أعلى سطح في الحارة، وأصبحت ختماً على صحون الطعام وعلى الثياب وواجهات السيارات، أمر رجاله بإعداد جداول معقدة مليئة بالأعمدة والسطور، تصرف بموجبها تعويضات لأهل المدينة إن أقروا أن موت الرجال كان من وباء نذير، وأن الدفن لم يكن جماعياً على شكل تلال، وإنما كلّ في قبره ووجهه إلى القبلة.

أمام صمت الجدة أغلقت أبواب البيوت معلنة بصمت رفض التعويض. لكن لم يطل هذا الاعتصام إذ سرعان ما استيقظوا على صوت إحدى النسوة تقبل يد الجدة، ترجوها أن توافق، ثم تندفع من الباب ساحبة معها بقية النسوة. رددن اعتذاراً ورجاء من الله ومن الجدة ومن الغائبين.

اختلطت أحاديث النسوة بين من موّتت زوجها، ومن موّتت ابنها.

بعد ذلك ملأ الطمع نفوس الكثيرين واندفع من تبقى من الرجال يطلب تعويضاً عن جدار أو أثاث، أو سجادة، أو عباءة، حذاء، أو جورب. بات الحديث الشاغل للجميع هو جداول التعويض، على أي بند ينطبق فقدان طاولة الزهر، وتحت أي بند يندرج ضياع القنباز والطربوش. وبالنسبة للأجهزة الكهربائية هل تندرج ألعاب الأطفال التي تعمل بالبطارية في العمود نفسه؟

عمّت فوضى شغلت الناس عن الغائبين. ستجد كلاً منهم حاملاً نسخة من جداول التعويض، منتحياً جانباً متمعناً فيها من دون أمل بفهمها.

قال الأستاذ عاصم:

- هذه الجداول تحتاج إلى موظف بنك لديه خبرة مصارف عشرين عاماً كي يفك تعقيدها.

وأضاف:

- نسي الناس الحارات التي اقتلعت من أصلها، الشباب والأطفال الذين عذبوا وفقدوا، وانشغلوا بالترهات.

قال فارس الذي حمل لوحاته المطعونة بحربة البندقية:

- لن تعوضني أموال العالم عن تشطيبهم للوحاتي.

كان بطوله النحيل ونظرته الساهمة وأصابعه الرفيعة المنحوتة، يضع رسوماته في أرض دار فطمة ويجلسان معاً يتأملان التخريب ويحاولان تخيّلها سليمة. لا يتجرأ أن يعرضها في مكان آخر. في واحدة منها وباللون البني قدمان متورّمتان مربوطتان بعد "الفلقة"، وفي الأخرى فتاة صغيرة تشهد مقتل أمها بخنجر في ثديها، في الثالثة وجوه مئات الأطفال المتراكبة المذعورة، تنتظر رصاص

رشاشات مسلطة عليهم.

أما مخلص مربي الأجيال فقد قال:

- من يعوّضني عن طلابي؟ راحوا، فقدوا، غابوا..لم يبق طفل أراهن عليه.

قال عبد الحكيم كشّاش الحمام:

- على أية حال فقد وُزع من التعويضات على أهل الحارة من الجمل أذنه، فيما تقاسم الجمل رجال أبو شامة أنفسهم، من دون أن يملؤوا استمارة. من يحاسبهم؟ أبو شامة لم يكن لديه الوقت لهذه الأمور.

رفض البعض هذا التعويض، منهم الأستاذ عاصم الذي عاد من حصة تدريسه ليجدهم بانتظاره، أخذوه إلى الموت ثم أعادوه بمعجزة كي يشاهد معظم كتبه عائمة في النهر.

بعد أن نهبت تجارة أهل المدينة التي كانت في الأقمشة والأغنام ومنتجاتها، باتوا يبيعون أي بضاعة، بتذلل يستعطفون الزبائن كي يشتروا، وعندما يسألون عن الحال يقولون:

- الحال واقف. وقد يتغامزون: كل شي واقف، إلا المحروس.

لمّ كل أخ لحم أخيه، موّتت الأمهات أبناءهن وأزواجهن وأخوتهن، وقبضن التعويض الزهيد الذي رممن فيه بعض الجدران التي هدمت، قششن كراسي الخيزران، منهن من جهزت ابنتها للزواج، وإن لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها. في حين ظلّ في المدينة الكثير من الأرامل اللواتي لم يعرفن إن كن أرامل أم زوجات لمفقودين إلى أجل غير مسمى، قالت أم الحب:

- بعضهن لم يتجاوزن الخمسة عشرة عاماً، صرن أمهات، ولدن أثناء الهجوم، أطفالاً لا يعرفون الآباء، فالأم هي التي تربي،

تكبّر، تأمر وتنهى، تحنّ وتعطي، تطعم، تدرّس، تصمت طويلاً خوفاً عليهم من أن يعرفوا فيسعون للانتقام.

**رن جرس الهاتف.**

**- ألو.**

**جاءها صوت متعب:**

**- كيفك، فطمة.**

**- الحمد لله، من المتكلم؟**

**- مخلص.**

**- أهلاً "أبو محمد"، كيف صحتك؟**

**أجاب بعد أن ابتلع ريقه:**

**- والله إني أودع الدنيا.**

**أوشكت على البكاء، إذن لن تودّع الدنيا بمفردها:**

**- صلّ على النبي يا أبو محمد.**

**- سئم أولادي وزوجتي مني ومن مرضي، بصراحة.. الحق معهم، أطلت المكوث في هذه الحياة، عاداتي السيئة في التوجيه والوعظ والنصح للكبير قبل الصغير، كأنهم تلاميذي في مدرسة ما زالت في نشاطها، كلما حاولت أن أخرس هذا اللسان، يخذلني، وأعاود التدخل بالذي يعنيني والذي لا يعنيني، صارت المبادئ في مهب الريح، انهارت القيم، ارتاح الجميع، ما ذنب أحفادي حتى أقلق ضمائرهم؟**

**- صلّ يا أبو محمد حتى ترتاح.**

**قال وقد تهدج صوته:**

**- اتصلت بك يا فطمة علك تزورينني في البيت، مكتبتي وأوراقي مهملة في الصناديق، أخشى ألا يوجد أحد ممن حولي**

يحافظ عليها بعد موتي.

سارعت لتقاطعه:

- العمر الطويل يا أبو محمد.

رد بصوت عصبي:

- إذا كان لي خاطر عندك لا تنسي هذا الموضوع.

أطبقت السماعة ونسيت.

اتجهت إلى عيادة طبيب الأشعة. جلست في غرفة الانتظار:

"علام السرعة؟".

هاجمها الدوار بعد حين، فقدت الصبر، رجت الممرضة الإسراع في إجراء التصوير، ماسحة قطرات عرق بارد ملأت جبينها.

استلقت دافعة رأسها إلى الخلف مهيئة مساحة كافية للرغوة الباردة التي طلا الطبيب بها رقبتها. أخذ يغير مكان ارتكاز قاعدة الخرطوم على عنقها، ملتقطاً صورة في كل نقلة. انتهى. أعطاها مناديل ورقية تمسح رقبتها وتمتم بكلمات التمني بالشفاء.

مسحت الرغوة بتمهل، جالسة على الطاولة العالية، بينما قدماها متدليتان في الفراغ متباعدتان، سرحت في عوالمها التي تأخذها وتغيّبها. طالت جلستها.

تساءلت الممرضة:

- هل تحتاجين إلى مساعدة؟

تنبهت، فانهمر نهر من الدموع.

"أدرك أن كل شيء قد انتهى، لا أحتاج أن يزودوني بمظروف جديد مكتوب عليه: حضرة الدكتور.. المحترم، يليه اسم المريضة. موجّه للطبيب وليس للمريض، هو من شأن الطبيب، أحمله لأسلّمه له مستسلمة لقراره وقدري".

تتخيّله يتعاطف معها دقائق حضورها، وعندما تغادر سيذاكر في

إضبارتها ويستعيدها كحالة فقط، ثم يستدعي المريض التالي مؤدياً عمله كما يجب، ثم يعود إلى البيت ليحدث زوجته عن الحالات، أو لا يحدثها، فالبيت للراحة ومتابعة أخبار التلفزيون، مداعبة الأطفال، تناول وجبات الطعام، استقبال الأصدقاء الأصحاء المسلّين.

بعد أن وضعت، طعام لميا، على مصطبتها، مربتة على ظهرها، كي تهدئ همهمتها أغلقت الباب وراءها. خلعت حذاءها ومعطفها ناسية الغطاء على رأسها، وضعت الأدوية بجانب سريرها واسترخت لدقائق ثم هبت إلى غرفة الجلوس، نظرت إلى الهاتف والصندوق، يوجد غبار. انتظرت أن يدق بابها أو هاتفها، فيما كانت تتردد:

"أأعد صحن شوربة؟ لا.. الشهية مفقودة".

أدارت التلفزيون، حال الطقس أعرفه. نامت بثياب الخروج على كنبتها.

شاهدت رفيق الدرج، يمسكها من يدها ويطير بها إلى السماء، تدوس الغيوم بطرف إبهامها وتحلّق بيدين ناعمتين كأيدي الملائكة التي كانت مرسومة على بطاقات العيد. يهويان إلى الأرض فيطآنها بأقدام ثابتة، يعاودان الطيران في فضاء صاف كصباح ربيع نيسان. لكن ما إن تستجمع قوتها وشجاعتها، حتى يحين وقت الهبوط إلى الأرض. ظلت في الحلم تطير وتهبط، حتى استيقظت على صوت مذيعة التلفزيون، الذي نسيته مفتوحاً تذيع برنامجاً طبياً عن التبول اللا إرادي، طالبة من المشاهدين، بدلال، أن يتصلوا على الأرقام المكتوبة، وأن تنحصر أسئلتهم بموضوع البرنامج، التبول اللا إرادي.

سمعت صوتاً يشبه ضحكة مكتومة، ينبعث عن كرسي الجدة،

**التفتت، فوجدته جالساً على الهاتف.**

**"هل تعاني من التبول اللا إرادي وتريد الاستفسار عنه؟" سألته فطمة كما تسأل أي جار.**

**"أنا أبوّل أينما أريد ولا أعي إذا كان الأمر بإرادتي أم لا. أنت التي لن تجد من يساعدها في شرب كأس ماء.. عندما تعجز. ما الذي تنجزين من لهاثك في كسح الدالية، قطف بضع ياسمينات في الثامنة صباحاً، شرب القهوة على البحرة، تنظيف ضفة النهر والحديقة من كل ما أحب وأهوى، أو من الاستماع للحاج عمر المهووس، تقديم الطعام للميا المجنونة، نشوتك وأنت تنصتين لكلام فارس الناعم الذي لا طائل منه؟ أحسن له أن يشبع أولاده الخبز، من الشرود ساعات في لوحة ملطخة بألوان مجنونة مثله. عندما تموتين سيسهل علي إقناعهم بتركهم البيت لي فالجميع بات يحفر أنفاقاً ويقلدني".**

**"لميس لن توافق".**

**"لميس ستهاجر".**

**عندما** جاءت دفعة جديدة من المقبوض عليهم إلى تلك المدرسة، صاح الحارس أحد رجال أبو شامة بآخر مثله:

- لم يعد لدي أماكن.

- أين نذهب بهؤلاء؟

- لا أدري يا سيدي، فمن لدي يموت واقفاً من شدة الازدحام.

أصدر الضابط أوامره بترحيل القدامى إلى المقبرة، ووضع الجدد بدلاً عنهم.

ازدحموا على مقاعد التدريس الباردة جائعين تعبين، كانوا أجساداً متلاصقة هزيلة بعظام ناتئة وعروق ناشفة على جلود مجعدة.

وجوه الشباب والعجزة ساكتة يائسة، لقد تحولوا إلى أطفال مستلبين سيقوا إلى الحضانة قسراً، فجلسوا في أماكنهم يرقبون الأبواب منتظرين الفرج بقدوم الأم، ولكن بدل الأم كانوا يلمحون ضابطاً جديداً غاضباً، فتغوص قلوبهم:

"القتل رشاً بالرصاص؟ أم بكلابات على الرقبة؟ أم التعذيب ثم السجن؟".

أما من رُحِّلوا فقد جمعوهم على جدار المقبرة الأثري، كان الأقوى يسند الأضعف، رغم الوهن الذي سيطر عليهم جميعاً، بدوا كدجاجات متراكبة:

"علّ الذبح يتأخر".

صدرت الأوامر بإطلاق النار، فتساقطوا دفعة واحدة كالأشياء!! ببجاماتهم الرقيقة وأصابعهم الخائفة الباردة، ابن الثالثة عشرة فوق ابن التسعين، وابن السبعين بجانب ابن الخمسين، كلهم ماتوا منتظرين رحمة أو شفقة بعيدة بعيدة.

قال مخلص:

- لم يفعلوا شيئاً إلا قرابتهم للعم نذير المختفي، لايدري بمصير أخوته، وجيرانه وأهل مدينته.

من قبل أو من بعد،لم يستطع أحد معرفة عدد الذين نقلوا بالجرافات، مذبوحين. قالت أم الحب وهي تربت على كف مطيعة:

- الجار أو الأخ، القريب أو الابن أو الأب يعتبر حبيباً، إذن كل منهم يساوي ألفاً فليس مهماً معرفة الرقم الحقيقي لعدد المرات التي امتلأت بها هذه الجرافات وأفرغت في مكان ما، شمالاً أو جنوباً، أو في خندق أحاط المدينة كلها.

ربما كان أول ذلك، أو آخره، حين جاء رجال أبو شامة صباح جمعة، ضربوا الأبواب، ففتح لهم رجل البيت، إن تبقى

رجل في البيت، سحبوه خارجاً، داهموا الغرف، ثم جروا بقية الذكور. أمروهم أن يصطفوا على جدار البيت الخارجي، تأملوا ذلهم دقائق، ثم حمّلوهم في سيارات صندوق.

منذ ذلك اليوم بات لأهل الحارة وسواساً اسمه يوم الجمعة.

لم تُسمع بعد طلقة رصاص واحدة، إلا عندما قطع أحدهم خنصر إصبعه اليسرى، وأفرغ مسدساً قديماً في رأس ابنته التي كانت مستلقية في المشفى بين الحياة والموت، بعد أن ضبطوها في سيارة مع شاب، تدهورا معاً على الطريق الغربي. لقي الشاب حتفه، بينما ظل في البنت رمق من الحياة. ولكي يبرهن أبوها على نخوته وشرفه المستعاد، قطع أصغر أصابع يده اليسرى وقتل ابنته، ثم طلّق الأم وطردها من بيته واضعاً بقية فتياته تحت الإقامة الجبرية مع الجدة والعمات.

فرغ البيت الكبير إلا من ذكرى الرجال الذين غابوا.

**تشتري فطمة الخبز، وبعد بضعة أيام ترميه متضايقة من العفن الأخضر الذي غطاه. تقطف أعواد البقدونس من حديقتها وتغسل حبات البندورة والخيار كي تعد صحن السلطة، وما إن يصبح جاهزاً وتنظر إلى ماصنعت حتى تعدل عن الطعام فتودعه الثلاجة. تصلح بنفسها أعطال البيت التي كثرت وفاقت قدراتها، ارتخاء قبضات الأبواب، نمو النباتات المتطفلة من بين بلاطات الدار، تعطّل نافورة البحرة وانسداد مجراها. لم تعد تكترث للغبار الذي غطى السطوح والجدران.**

**تنظر حولها غير عابئة بشروق الشمس أو غروبها، أو بالجيران الذين يفرحون أو يحزنون. تستيقظ ربما في الثانية ليلاً، لتفاجأ أنه ليس بإمكانها الخروج لتأمين جرة الغاز أو شراء الحليب أو بعض الفاكهة والدواء، فالحارة فارغة معتمة والدكاكين مغلقة. أما صوت**

العالم الخارجي، طبل، غناء، قهقهات، فرح بالدنيا، تفكر:

"ما شأني بزواج ابن جيراني؟".

ضعفت حديقتها، ابيضت، تشققت مثل شفاهها، باتت أوراق الكرمة صغيرة مقصوصة، تسلطت الخفافيش ليلاً على نخلتها، وصارت تصدر أصواتاً غريبة متعلقة بأغصانها العالية.

رأت فيما يرى النائم أن أبو شامة يمسح على رقبته، ويفاخر أن لديه تالولة جديدة متفكراً باسم لها، سقطت القديمة في غفلة منه، أقسم ألا يغفل عن الجديدة أبداً، بل سيشكّل معها ومع التالولة القديمة ثالوثاً لا ينسى في تاريخ المدينة والنهر، بل العالم أيضاً. كان في كل لمسة لها يباركها، ويذكر ربه، داعياً الجميع من دون كلام، مشاركته السعادة بالتالولة الغضة الطرية الفتية والتي يراهن على تميزها عن جميع ثألولات الناس، مع ذلك لم ينس أهل الحارة بعدُ التالولة التي سقطت في غفلة منه.

قال مخلص:

- فزعنا أن يحاسبنا على غفلته، فيعيد علينا الدرس الذي لقّنه لنا منذ أعوام، والذي لم ننسه ولن ننساه.

أيقظها الهاتف المبكر. جاءها صوت يتحدث بعصبية:

- صباح الخير.. فطمة.

- صباح الخير أبو محمد، ابن حلال، والله رأيتك في منامي.

- لماذا لم تأتي لزيارة مكتبتي؟ أريد أن أطمئن على الكتب في أيد أمينة؟

- تعرف أن أخي أحمد تزوج منذ فترة قصيرة، مازلنا نستقبل مهنئين، ألا ترى فارس؟

- يزورني بين وقت وآخر، الجميع مُلتَهٍ.

- سأحاول أن آتي غداً.

- لا تتأخري أكثر.

شعرت بضيق غامض، لكنها تجاهلته، نـزلت إلى الحديقة حاملة بذور النعناع التي تشبه دود الأرض، نثرتها مؤدية المهمة من دون حماس. لم تكترث لتلك الكتل السوداء التي تنبئها بعودة دودة الكرمة، التي انتهت من مكافحتها منذ أيام. أعدت إبريق شاي وبعضاً من حبات الزيتون مع قطعة جبن وخبز ثم جلست تعلك اللقمة الأولى، ابتلعتها وقامت مسرعة. وضعت الصينية على المجلى وذهبت إلى السوق فيما طعم لقمة الزيتون يملأ فمها.

لأنها تعرف معظم دكاكين القماش وتعرف أهلها فقد تعبت في البحث عن دكان جديد يبيع القماش، لتأخذ حاجتها من دون أن تخبر صاحبها عن سبب حاجتها. اشترت مترين من قماش الأطلس الأخضر وثلاثة أمتار من الكتان الأبيض.

أغلقت الباب وراءها، وصعدت إلى غرفتها. رمت القماش على السرير بنيّة توضيبه في"بقجة" تشبه بقجة الجدة قبل موتها. سمعت صوت لميس تتقافز كعادتها. تحتار في هذه الصبية التي تستطيع أن تعرف أين هي خالتها قبل أن تدير مفتاحها في الباب.

رمت حقيبتها عن ظهرها، قبّلتها من دون أن تلتفت إلى القماش الذي غطي سريعاً.

- أتعرفين، كنتِ ليلة عرس خالي الأجمل بين جميع النساء.

- لا تجاملي.

قالت الصبية وهي تستعرض بشعرها:

- كيف كنت أنا؟

- رائعة، عقبى لفرحتك يا حبيبتي، لكن بعد كم غير محدد من الشهادات، وبعد أن تتقني خمس لغات.

- أحبك كثيراً.

**أخرجت من حقيبتها أقراص "الكمبيوتر" قائلة:**

**- غداً سأبدأ برنامج الطباعة. يعني قبل أن تبدأ السنة الدراسية أكون قد أنجزت دورة في اللغة الفرنسية، ودورتين في "الكمبيوتر"، هل هذا يرضيك؟ أتعرفين؟ تريد ماما مني أن أقابل النسوان اللواتي يأتين للخطبة.**

**زقزقت الفتاة ببضع ثرثرات محببة وهي تتناول طعام خالتها ثم ودّعتها وغادرت.**

**بعد** أن صار أبو شامة المتنفذ الوحيد في المدينة، فرض على أهل المدينة إعلان التوبة أمام أكبر عدد من الناس في التلفزيون، في الصحيفة، في الراديو. صار الناس يتحلقون أمام التلفزيون متابعين برنامج التحقيق، مشفقين على المصير الذي ينتظر ضحية حلقة الليل من البرنامج اليومي، مدّعين براءتهم من معرفة الضحية.

هذه المرة كان مع أحد الفتيان الذين لم يتجاوزوا الثالثة عشرة. يجيب الفتى على الأسئلة لاهثاً خوفاً من ألا تكون إجابته هي المطلوب إعلانها. كان ابن عبد الحكيم جالساً على الأرض، عند قدمي أبيه، عندما صاح من دون قصد منه:

- هذا أعرفه.

سارع أبوه وضربه بقدمه قائلاً:

- لا تعرفه.

استمر الولد في عناده:

- كان معي في المدرسة.

جاءته "طيارة" على رأسه:

- قلت لك لا تعرفه.

لقنوا أبناءهم أساليب الحذق والقدرة على التملص من التهم

التي من الممكن أن يقعوا فيها بسبب قرابتهم من نذير هذا.

سأل صاحب البرنامج ابن الثالثة عشرة:

- ما هي علاقتك بنذير؟

أجاب وهو يغص بين الحرف والحرف:

- أعطاني شاب من طرفه نقوداً فذهبت يومها إلى الحلاق وعملت تسريحة على الموضة، كما أهداني مسبحة، ثم استأنف بسرعة:

- لكني أضعتها!

كان خوفه أن يسألوه: أين السبحة؟ فيشبعوه ضرباً إن لم يعترف بمكانها.

أسئلة مكررة، أجوبة خائفة، والمصير مقرر مسبقاً. أصبح لأهل المدينة فلسفة خاصة، آراء جاهزة يطلقونها ببراعة متفق عليها في جميع الأحوال، حتى ابن الثالثة ينظر في العيون متفهماً ضرورة الصمت. تفتقت مواهب التملص من التهم الكثيرة، فكل أهل المدينة يقربون نذيراً وكلهم متهمون متورطون معه وإن لم يتورطوا، يكفي أنهم من المدينة نفسها، وأنهم شهدوا الأحداث. لن يصدقهم أبو شامة وإن أشبعوه هتافاً وغناء ومديحاً. إن من يتجرأ ويلمّح لما حدث، فسوف يلعن من الجهتين، عقاب رجال أبو شامة معروف، أما أهل الحارة فسيتهمونه بالبهم والتهور ويتجنبونه خوفاً من جرأته المجنونة.

**أدارت مفتاح التلفزيون على القناة التي لا تمل من بث الأخبار السياسية والاقتصادية، من أسعار العملات إلى أسعار براميل النفط. كما تحرص على بث النشرات الجوية وإيصال كل الأصوات.**

**سمعت صوت تحرك الجرذ في البيت.**

**"كل البالوعات توصل إلى أهداف الجربوع".**

**زفرت من ثقل محيطها ومن ضعفها. اتصلت ببيت أختها ليلى:**

**- "عم يضيق خلقي".**

**أسرعت أختها:**

**- أحضري أشياءك التي لا تستغنين عنها واقضي عندنا بضعة أيام.**

**- أشيائي التي لا أستغني عنها؟ البيت كله.**

**- أريحي رأسك يا أختي. أم العشر أولاد لا تحمل همك. هل تريدين أن أرسل لميس لعندك؟ لكن ستفتح المدرسة بعد أيام، وعليها أن تراجع بعض الدروس مع الأساتذة الخصوصي.**

**أغلقت فطمة السماعة ومضت إلى صندوق الجدة.**

**وجد** أبو سليم الجربوع الصيغة المناسبة حين جمع أهل الحارة قائلاً:

- نداء، نداء، ممنوع الطلعة على باب الزقاق.

أراد أبو سليم تقليد رجال أبو شامة، حين كانوا يتجولون في الحارة مانعين التجول.

قال مخلص:

- كنا نبالغ في تنفيذ أوامرهم، فنمتنع عن التحرك من أماكننا حتى وإن كان مشوارنا إلى الحمّام.

بهيئة تمثيلية قال أبو سليم لعبد الحكيم:

- أنت عندما يخطئ ابنك ماذا تقول له؟

- أقول له حمار.

- وأنت يا جميل يا نسونجي عندما يخطئ شريكك في الحسبة، ماذا تقول له؟

- حمار.

- وأنت إن رأيت أحداً يُضرب "طيارات" ثم يصمت، ماذا تقولون عنه؟

- حمار، رد الجميع من دون استثناء.

هنا صاح الجربوع ظافراً:

- إذن كلنا حمير.

شكّل أبو سليم الجربوع جمعية سماها "حمار ولا عار" وبدأ بتسجيل أسماء من تبقى من الرجال.

أرسل أبو سليم طلباً مكتوباً بخط أحد الكتبة الذي يعمل في مخزن بيت "الأمّور"، خطّه بتأن شديد، وتجرّأ أن يرسله إلى أبو شامة يستسمحه الموافقة على تشكيل الجمعية، وحجته القوية كانت: أهل الحارة الأعزاء لم يتفقوا على أمر، كما اتفقوا على هذه الجمعية.

يقولون إن أبو شامة تلقى الطلب باهتمام كبير في بداية الأمر، لكنه تبين بعد ذلك، من خلال رجاله، أن الموضوع لا يتجاوز لعب أطفال. فوافق واضعاً ختمه الخاص مباركاً الجمعية، موصياً أن ترسل برنامجها السنوي وخططها المستقبلية وأسماء أعضائها مع الرتب، وعمل كل منهم.

صنع أبو سليم بطاقات تحتوي الاسم، المولد، الرتبة، بالإضافة إلى صورة حمار يشبه صاحب البطاقة. كلّفته صورة الحمار الشبيه الكثير من الجهد والبحث، جراء الخلافات بين الأعضاء، الذين كانوا يقضون أحياناً ليلة كاملة في "منزول"[1] بيت الأمّور. حين يعترض صاحب البطاقة أن منخار الحمار لا يشبه منخاره، أو أن أذنيه طويلتان أكثر من اللازم. كان أبو سليم الجربوع يضرب رأسه صارخاً:

(1) غرفة من البيت مزودة بباب خارجي تفتح لاستقبال الناس.

- كيف يمكن تأمين هذا العدد من الحمير؟

تزامنت بطاقات الحمير مع تجديد البطاقات الشخصية للناس. ازدهرت أعمال المصورين كثيراً، لم يبق شخص إلا وقدّم طلب انتساب وتجديد هوية، تيسّرت أعمال التنسيب، لم تخضع للروتين الذي يغلّف كل معاملات المدينة.

كانت تُرى تجمّعات حول كوّة تقديم الطلبات نساء ورجالاً وأطفالاً فوق سن الثالثة عشرة. أخذوا يطلقون شائعات حول استخدام البطاقات الجديدة:

- احرصوا على البطاقة، سوف تغمرها مادة كيماوية سوداء إن ثقبت.

- سوف يُعدم من يضيعها لأنه سيبقى بدون إثبات شخصية.

اختُرعت طرق شتى لحماية البطاقة الجديدة، ازدهرت أيضاً أعمال المكتبات، حيث استورد أصحابها آلة لإعادة تغليف البطاقة عدة طبقات تحميها من التلف ومن جميع الأخطار مئة عام على الأقل، آخذين بعين الاعتبار كلام العرافة.

الوصول إلى طاولة المسؤول عن البطاقات، لم يكن سهلاً، فالغجر المحيطين بالمدينة الذين لايستغنون عن غنائهم ورقصهم، يحيون أبو شامة بطريقتهم، كانوا يسدّون مدخل الدائرة، مما يجبر أصحاب البطاقات على أن يدبكوا إلى أن يصلوا إلى ختم الموظف، يصفع ورقتهم بختمه، ويعودون إلى الدبكة حتى يصلوا إلى المخرج ظافرين بالختم.

أعاد أبو شامة إلى الحارة عيد الزيتونة، وخميس مريم، لكن بأغان جديدة وغريبة. يخرجون حاملين بطاقاتهم، يردّدون نشيد الشكر ويبدأون العيد.

**غادرت فطمة البيت صباح تجديد بطاقات النفوس، فإذا بالعم جميل يهتف حاملاً راية. خرج إلى مركز الحارة بلا راية، لكنه فوجئ بأحد رجال أبو شامة يهزه ويناوله واحدة، أخذها ضاحكاً بطبعه المعهود، ومضى يلوح بها كأنه حملها مختاراً، لكن عندما شاهد أحد العابرين بلا راية، هزه بدوره، وناوله حمله مدّعياً أنه من رجال أبو شامة. ففي مثل هذه الأيام التي اعتبرها الحاج عمر من علائم القيامة، كان الكل مباغتاً ومأخوذاً.**

**انشغلوا باحتفالات عيد الزيتونة الذي ترافق مع تجديد البطاقات. ارتدوا الثياب الجديدة. ركبوا قطار الربيع الذي يدور في الحارة مزيناً بالأزهار الملونة ومكتوباً عليه: روح روحي أبو شامة والتالولة الساقطة والعالقة، وفي المؤخرة تقرأ: صباح الخير مجنونة.**

**ذرعت لميا المجنونة الجسر في هذا اليوم مئة مرة.**

**قعدت فطمة عند البحرة، تبيّض بعض الأواني النحاسية التي لم يعد يستخدمها أحد، وتقاوم دواراً، صداعاً وغثياناً، تتمتم مقهورة، فيما يصرع أذنيها صخب غنائهم ودبكاتهم.**

**غادرت** مياه النهر الكافر المدينة محملة بدماء من قتلوا. وأدرك الجدة الخرس والعمى.

ظلت تشتاق لأبنائها ولكل الذين فقدوا وربما تأمل عودتهم حتى ماتت. رتقت جراحها بخرق بالية. كانت تستعين بكرسي واطئ قديم كي تسند إليه عجزها. تدور في أرض الدار مطوية الظهر ضاربة الأرض بكرسيها بدقة واحدة تشبه الساعة. لم يستطع أحد معرفة قصدها أو حاجاتها، تضرب حجر أرض الدار بكرسيها، في الليل

والنهار، وتدور الدورة ذاتها. قد تجلس على الكرسي نفسه عند البحرة مطأطئة الرأس غائبة في شأنها ساعات، فتبدو للناظر إليها من أعلى الدرج كأنها كتلة سوداء هزيلة ساكنة مرتخية. مطوية الظهر ترفض رؤية أي وجه أمامها، حتى وجه الطفل.

ارتدت جلباباً أسود يغطي هزالها من قدميها حتى أعلى رأسها، جلباباً واحداً لم تخلعه منذ خروج نذير وقتل الرجال، إلى أن ماتت، لا تسمح لأحد أن يرى وجهها أو يرصد أي لمحة من عينيها الشاردتين. لم يرها أحد تضع لقمة طعام في فمها أو تشرب كأس ماء، لكنها ظلّت تدق بكرسيها أرضهم عاماً كاملاً.

منهم من ظن أن سبب سكوتها ندمها، ومنهم من قال إنه حزنها، وكثيرون قالوا: أبداً إنها تنتظر نذير وسوف تتكلم فور عودته. قالوا وقالوا، لكنها ظلت منكفئة تدق الأرض بكرسيها إلى أن أتى صباح يوم، لبثت ثابتة ساكنة عند البحرة، حتى علت الشمس السماء. ظن الأطفال أنها شجرة نبتت فجأة، أخذوا يدورون حولها كأي وسيلة يخضعونها ويشركونها في لعبهم، لكن الكبار الذين اعتادوا دقاتها في رؤوسهم وضمائرهم الخائفة، أدركوا أنها تعبت وماتت.

لم يحضر العزاء إلا أهل البيت والحاج عمر الذي لا يفوّت عزاء، والأستاذ عاصم، لأنه جار، ومخلص مربي الأجيال، وفارس كأن دينه مثل دينهم.

**دقة، دقتان، ثلاث.. ثماني دقات. تلتصق الساعة بحائط صالة الجلوس. منذ أن وعت فطمة وجودها في هذا البيت وهي تعطي عدد الدقات التي تعبّر عن تمام الساعة، ودقة عند نصف الساعة، ودقة عند ربع الساعة، أحياناً وبدون سابق إنذار تعطي دقة عند**

التمام إلا ثلثاً.

إنه صباح الجمعة، تستطيع أن تعرفه من بين مئة صباح، لو كان عدد أيام الأسبوع مئة.

نظرت من نافذة غرفة نومها إلى القبو ثم إلى النهر فوجدته راكداً خاملاً، كأنه يوم عطلته أيضاً. لا تدري لِمَ تذكرت عيني فارس. ألح لونهما الزيتي الذي يقترب من لون الطحلب ربما لكثرة ما سبح في النهر أيام طفولته.

"هل تأتي أختي لزيارتي،كعادتها يوم الجمعة؟ تمنت: لا بد أن يزورني أحمد وعروسه، فهو منذ خروجه عريساً من البيت الكبير لم يعد إليه، لا بد أنه منغمس في عمله".

قامت تعد قهوتها وتستعد ليوم جمعة طويل متناسية المرض. لم يكن لديها ما تطبخه أو تجهّزه لأحد. قطفت حفنة من زهرات الياسمين ووضعتها في منديل أبيض فوق التلفاز، وجلست تشرب القهوة. كان صوت لميا وهي تهمهم مع القطط في سكون صباح الجمعة يأتيها لينبهها أنه حان وقت فطورها، وصوت ابن عمر يقفز ويقفز منذ ساعة الفجر، يصيح بكلمات غير مفهومة. يذكرها بيوم غادر نذير الحارة فرضع الولد منها حليب "الرهقة"[1].

"لأؤجل الموت إلى الموت".

فتح الباب وسمعتْ خطوات لميس تقفز. كانت ترتدي قميصاً قصيراً أبيض، على بنطال من الجينـز الأزرق، وخفاً قماشياً. قوام رشيق، كتفان مكوّران.

"ترى من هذا المحظوظ الذي يستحقها؟"

قبّلت خالتها كعادتها، وقطبت بهيئة تمثيلية:

- يطلب إليكم إعداد القهوة فقط، لأنه لا يوجد مثل قهوتك.

(1) الخوف الشديد.

تقبّلها ثم تكمل حديثها :

- سنصحبك إلى البحر يوماً واحداً فقط، يعني لن تتأخري عن حديقتك، وبيتك حبيبك إلا ساعات.

حاولت فطمة أن تستفسر عن التفاصيل، لكن احتجاج الصبية أن لا وقت جعلها تذعن لرغبتها.

يفرغون لها عادة المقعد الجانبي كي تراقب الطريق وتسرح مع الخارج بهدوء وسكينة.

- سمعنا أن فندقاً جديداً قد افتتح على البحيرة بين البحر والجبل، نريد أن نتغدّى هناك، قالت ليلى بينما كان زوجها يهز رأسه موافقاً وسعيداً بمحبة فطمة لابنته الكبرى التي يفخر بتفوقها وجمالها ورزانتها :

- لميس تشبه خالتها.

تذكرت فطمة أنها منذ وقت طويل لم تسافر.

اختلفت معالم الشوارع كثيراً. يحجبون الصخر والشجر والغيم بلوحات الإعلان المختلفة الأحجام، يتبارون في توسيعها كي تشغل كل مساحة الرؤية.

" لا، ليس كذلك، بل لتصفع بضاعتهم بني آدم".

مناديل ورقية، علكة، أحذية رياضية، سائل جلي، محارم ورقية، برامج "كومبيوتر"، محارم نسائية، حفاضات أطفال، علكة مرة أخرى، أطعمة أطفال مقلية بطعوم مختلفة، لوحة فارغة هي إعلان للإعلان. شعرت بغثيان ودوار، أخذت نفساً عميقاً، تنبّهت أن هواء ربها يلفحها منذ زمن. وصلت البحر بهذه السيارة الحديثة بسرعة لم ترق لها، تريد أن تتوقف عند كل منعطف وعند كل بستان، تراقب ما حل بحقول الله وحقول الناس، لم تشاهد إلا الحقول المغلّفة بأسقف بلاستيكية تمسخ المزروعات إلى ثمار

متشابهة. لم تقبل مرة أن تشتري البندورة ذات اللون الواحد والشكل الواحد، من دون رائحة.

"أووووه.. إني أقتل الوقت بهواجسي، المنظر جميل".

نـزلت من السيارة فوجدت أن الفندق يقوم على هضبة تطلّ على بحيرة لا تشبه شيئاً، ساكنة، شفافة، عميقة تلوذ ضفافها بها، أما الحصى الملونة والمصقولة من كثرة التقلّب تحت الماء فقد بعثت لديها رغبة في وضعها تحت لسانها. جاءها صوت صهرها يدعوها لرؤية الفندق، قالت:

- أنا أحب الماء.

انشغلت ليلى وزوجها مع أولادهما في استطلاع تفصيلي لأقسام الفندق وطوابقه ودرجته السياحية وبرامجه لهذا الصيف، المسائية منها والصباحية. أخذت، من دون أن تستأذن أحداً، كرسياً من مطعم الفندق المطل على البحيرة، وجلست وقد أدارت ظهرها لكتلة الفندق الإسمنتية:

"الماء والقاع وهذه الخضرة.."

فجأة علا صوت عبر الميكروفون، طبول ودربكات وزمامير. هبّ روّاد المطعم من أماكنهم يشاركون المغني صخبه، رقصوا وتقافزوا في اتجاهات مختلفة، كل على هواه.

نظرت فطمة بهلع إلى الحشد الراقص:

- كيف اجتمع في لحظة؟ وعلام اتفق؟

الفتيات ببناطيلهن الضيقة وقمصانهن القصيرة. إحداهن رسمت خطوطاً حول السرة متعمدة إظهارها، مكتوب على صدرها "Yes". لم تستطع فطمة، التي تنصرف لفكرة ما، أن تزيح نظرها عن "yes" هذه:

"ما معنى أن تصبح الفتيات موافقات هكذا؟" تساءلت في

**سرها.**

**لم تصدق أن ينتهي هذا اليوم السياحي، كانت لميس عزاءها، لكنها في طريق العودة قالت:**

**- خالتي.. أنا أحلم بالهجرة.**

**هاجم فطمة الدوار ثم الغثيان.**

**بعد** هجوم أبو شامة وسكوت المدينة وأهل المدينة. وجّه أبو فطمة خيبته واعتلال قلبه إلى أهل بيته، من ترتيب الخزانات وقطرميزات المؤونة والأحذية عند العتبات.. إلى ضرورة الطاعة والانصياع لأي رمز قوة، ووداعاً للبطولات. كل يوم يلقي على مسامعهم محاضرة عن التيار السائد، محاولاً إقناع نفسه قبل سامعه. كان يتحدث عن التجارب التي مرت البشرية بها، وعن أولئك الذين اندفعوا، ثم رجعوا خائبين إلى واقعهم، ليكونوا أكثر تعصباً، ممن لم يرح ولم يجيء. كان إحساسه بالذل الذي تجرعه أثناء الأحداث وكان الجميع شاهداً بل ومشاركاً بتجرع نفس الكأس، لايغادر ذاكرته شديدة الحساسية.

كان يرسم دبابة ومدفعاً على ورقة، ويقرّبها من وجه فطمة قائلاً:

- سوف نقتنع جميعاً. هذه هي وسيلة الإقناع، وسيلة العصر.

**قرع باب البيت بقوة، أطلّ وجه جارتها النشطة العانس التي تتابع أخبار الجيران، تعرف ما يأكلون من مراقبة أكياس قمامتهم، وتعرف أوقات نومهم من موعد إطفاء مصابيحهم.**

**- أتدرين، جارنا الأستاذ عاصم، أخذوه، قالت وهي تلهث.**

**- من أخذه؟**

**- يعني من سيكون؟ رجال أبو شامة، أبو تالولة.**

**- لماذا؟**

**- لا أحد يعرف، "هو غميق"، ربما لأنه استمر بمحاضرته برغم مناسبة التجديد. أمه تركض مثل المجنونة، مسكينة "ما لها غيره"، حتى امرأته تركته على فقره، ثم استأنفت بخجل وبصوت خفيض:**

**- وحق النبي يا فطمة زعلت عليه، الزلمة ما بيستاهل، كل العالم ضده؟**

**كان** عاصم يطفئ الأنوار كلها فيسود الظلام، يشعل بطارية، ويسلّطها على مساحة الجدار الفارغة، ثم يبدأ بتحريك أصابع كفيه، فيظهر منقارا بطتين تتحدثان. تتعالى ضحكات أطفاله، ويتقافزون أمام بقعة الضوء، فتتقافز أخيلتهم، يغني لهم إحدى أغاني التراث فيناموا. يعود إلى غرفته، يشعل مصباحاً وحيداً ينقله بين طاولته وسريره، يمرر شريطه فوق حقيبة قديمة وفوق كتلة ضخمة من اللحف والفرش مغطاة بقماش ملون بالأسود والأبيض. يستلقي، فتصدر نوابض السرير الخالي من الفراش صوتاً، يتزامن مع آه يرددها وجع مزمن في ظهره. يربّي الحمام من أجل سلامه، وبياضه، وهديله الذي يعيد عليه تأملات جبران خليل جبران. يدافع عن أنثى الحمام معاقباً ذكر الحمام لأنه يؤذي أنثاه.

ذات مرة طارت الأنثى في كل الاتجاهات فاصطدمت بزجاج النافذة والمصباح، رفرفت فوق كتلة اللحف والفرش وفوق وسادته وسريره ثم استقرت في حضنه ووضعت بيضة.

**طمرت فطمة رأسها كعادتها تحت غطائها وأغفت:**

- كم تبقّى من هذا العمر؟ وكم ستشهد من هذا الغياب؟

لعلها كانت قد أغفت حين خُيّل لها أن "عاصم" يراقبها من خلف النافذة ويلوح لها. يد مجهولة أسدلت ستارة كثيفة، ويد أخرى علقته على دولاب الماء راحت تغطّسه وترفعه لتعود بدورة تشبه "فرّاش" الغسالة القديمة.

استيقظت من حلمها، على دقات ساعة غرفة الجلوس. كان حلقها جافاً، تملؤه مرارة وألم غامض في الرقبة. مع تأكيد الطبيب أنه لا يوجد حالياً آلام، لكنها تحس بالألم.

في ذلك اليوم الذي اختفى فيه عاصم، جارها ورفيق طفولتها، قيل إنه وقف أمام المنبر فتدفقت العبارات. أنصت الجميع وصفقوا بشدة وحيّوه، التفوا حوله. كانت دهشته من نفسه، ومن الفرح الذي لم يعرف سبيله، طوال أعوام مضت في التأمل والقلق والحيرة. جرّب دروس رجال أبو شامة، ودروس زوجته، ولم يجن، كغيره، إلا الانـزواء والابتعاد. لكنّ الفرح الذي رآه في لمعان أعين الطلاب، في التفافهم حوله، فيما يتنامى مليون سؤال في رؤوسهم الشابة جعله ينسى نفسه، ويسترسل في آراء تجاوزت الإشارة الحمراء. انسحب من بين ازدحامهم برفق، ووعدهم أنه سوف يكمل النقاش في محاضرة قادمة.

اقتربت منه جثة هائلة، همست:

- المعلم يريد أن يدردش معك.

أمسكه الحارس من كفّيه بقبضة واحدة، وسحبه ماشياً بسرعة كبيرة. كانت العصابة قاسية جداً على عينيه وخطواته متعثرة بين بصاق الحارس وشتائمه.

كان على الجدار في غرفة الدردشة عدد من الخيزرانات ذات الرؤوس المتفاوتة الأحجام معلّقة بيسر بحيث تكون بمتناول يد من

سيحقق ويسأل.

قال المعلِّم أو الذي يليه راسماً ابتسامة دبقة:

- أمك قبّلت يدي كي أعفو عنك يا شاطر.. ثم فجأة انفجر صارخاً:

- من تظنّ نفسك؟ أنت جربوع، جربوع ولاك"..

فتح عاصم فمه كي يجيب، ففوجئ بصفعة ملأته دماً. أغمض عينيه وهو يسأل نفسه كم من الوقت يحتاج كي ينسى هذه الصفعة؟ ابتلع الدم وقبل أن يحدد الزمن اللازم للنسيان، تلقى أربع صفعات أخرى، وضربتين على الأضلاع وعلى البطن.

استمرت الدردشة ساعتين. كان يحس بأجزاء جسده تارة، ويغيب تارة أخرى، وما أن يتلملم على نفسه، حتى يبدأوا معه شوطاً جديداً من الدردشة، ضرب وصراخ وشتائم وبصاق كثير.

صحا من غيبوبته.

كان ملقى على الأرض يعلوه سقف قذر عار إلا من مصباح يتدلى بائساً بضوء أصفر يختلط مع لون الجدار والسقف. لم يستطع أن يحدد التوقيت.

- ما حاجتي إلى التوقيت إذا كان ما ينتظرني سقف قذر وأرض ضيقة وجدران تضغط.

سمع حركة ما. التفت فوجد المعلم جالساً على كرسيه يتأمله واضعاً قدمه العارية فوق ركبته. أظافرها عريضة ومغروزة في اللحم.

فجأة صاح به مزبداً:

- لماذا تنظر إلى قدمي؟ وتدّعي الإغماء أيضاً يا ابن الكلب؟ ثم دفع فردة حذائه في فمه!

إن عيش حياتين لن يُنسي عاصم "صرماية" بين أسنانه. فكر بطلابه وبالفرح الذي شعر به معهم. فرح دقائق ثمنه أكل صرماية.

أنـزلوه إلى القبو فتذكر قبو فطمة: "يا للفرق بين العمقين". وتذكر نخلة فطمة، اشتهى أن يكون لهذا القبو نافذة يراقبها منها، لكن..

قرأ على الحائط أمامه: "أحب الرجل الذي يناضل وهو مبتسم" محفورة بالأظافر، وفي أسفل الكتابة حُفِر برباط الحذاء "قتلة". وكان هناك تقويم مرسوم على شكل بيضة في داخلها خطوط شاقولية وأفقية متقاطعة تضم إشارات صغيرة تتكرر لتغطي ثلاثين شهراً. قضى صاحب الخط إذن ثلاثين شهراً في هذا المكان المؤقت، وربما رحِّل إلى غيره بعد ذلك.

تناول عاصم من العسكري بيضة مسلوقة ورغيف خبز، وضعهما في جيب معطفه. أسند ظهره إلى الجدار. تذكر أنه لم يسدد ثمن حذاء ابنه للبائع. قضى الطفل الشتاء بحذاء ممزق جعل الفطر يأكل قدميه، إلى أن استطاع شراءه بالتقسيط.

أرسلت فطمة مظروفاً يحتوي على مبلغ من المال إلى أم عاصم، وجلست على الشرفة تتأمل مكتبته عبر نافذة غرفته.

وجدت زرقة السماء الصيفية حيادية. الوقت عصر، لا شيء ينتظرها في المساء، ولا في الصباح القادم أو بعد القادم سوى المرض.

دخل عصفور غرفة نومها، فدخلت وراءه، رأته يطير قرب السقف ويزقزق بصوت غريب. لم يتشوش بضيق الفضاء، استغربت، فتحت له النافذة، لكنه لم يغادر، وقف على الخزانة وغرد طويلاً، لونه أسود مع بقع ترابية. استقر على خزانتها.

"كأنه يبحث عن مأوى".

أدارت ظهرها وتركته عائدة إلى الشرفة كي تطمئن على مكتبة جارها، فرأت أحد أولاده يلعب لاهياً بأوراق أبيه المبعثرة على الطاولة.

**حين** كان عاصم في الثانية عشرة، كان يشتري الكتب ويهربها تحت حزامه من عيني أمه التي كانت تأخذ عليه وعوداً بأن الخرجية لشراء المأكولات.

قضى صيفاً كاملاً يراقب مجموعة "ميخائيل نعيمة" في زجاج المكتبة، ولا يستطيع شراءها. لطالما حدّث فطمة وعمر عنها بلا ملل، واستفاض. انتظر طويلاً إلى أن امتلأت حصالة المنزل فكسرها وهرع إلى المكتبة، إلا أنه وجد المجموعة قد بيعت. غضب كثيراً، فقص أظافره على الشرفة، وعندما مرت امرأة بتسريحة "سد العالي" رمى الأظافر فوق رأسها، واعتبر هذا المساء مساء الغضب.

بعد وفاة أبيه لم يبق نصير له في شراء الكتب. أخذه عمه إلى جاره المنجّد. كان اليوم الأول في العمل أصعب الأيام، حر ورمضان والصوف مكوّم وكل شيء واخز، الإبرة، والعقد الشوكية.. تمنى كثيراً أن يستلقي على الفراش بعد الانتهاء من تنجيده، فهو منتفخ، والتقلب عليه مع كتاب ممتع هو غاية ما ينشد. لكن صرامة معلم التنجيد كانت أشد، إذ لم تنته العطلة إلا وكان قد تعلم خياطة "تم" الفرشة وهذا ما حرمه في ذلك الصيف من اللعب مع فطمة وعمر في قبو البيت الكبير.

**ارتمى عاصم على البلاط بعد الوجبة الساخنة من الأسئلة الشائكة والصفعات البليغة.**

**فكر:**

**"هل سأعود يوماً إلى فراشي أستلقي وأنام على كتاب؟".**

**"كأن فطمة لا تكبر ولا تصغر ولا تشيب".**

**استطاع من شدة تركيزه في التداعيات أن يرى ثوبها المنزلي الفضفاض وقميص نومها الأبيض المطرز، ثياب الصلاة وسبحتها**

**ذات الخرز الناعم المحمولة في معصمها.**

**"تراك يا فطمة تحسّين بقيودي؟".**

**جاؤوا يقتادونه إلى الخارج، كان حائراً:**

**"هل يمكن أن تنتهي هذه المحنة وأنام في فراشي؟ يتقافز أطفالي على السرير فيصدر صريراً جميلاً؟ ترتمي أنثى الحمام في حضني؟ ألتهم النمورة من يدي أمي وأكمل قراءة (عالم صوفي) مستمعاً لصوت لميا مهمهمة مع القطط، وابن عمر يقفز، وعمر صديقي يردد أنه لن يبعث؟".**

**أيام** حصار المدينة. أخذه رجال أبو شامة إلى مكان فسيح مع من يريدون إعدامهم. صرخ رئيسهم: اركضوا.. أحب رؤيتكم تتراكضون مذعورين من رصاص رجالي، إنهم عطشى لظهوركم المرتعدة ها.. ها.. ها.. كانوا يتراكضون ويتصادمون، يسرعون ويلهثون محاولين صنع أقدارهم، حين وقع قسم منهم، صاح بهم مرة أخرى وهو يتبعهم على دبابته: توقفوا.. أريد أن يتساقط بعض منكم.

توقفوا بظهور تنتظر الألم والموت.

الذين نجوا بناء على الأوامر، كانوا يرتجفون وينتظرون الأمر التالي. جاءهم الأمر التالي:

- اركضوا، اركضوا..

ركضوا ولهثوا. فكّر عاصم:

"هل حياتنا الكريمة تنتظر؟ فلنركض إذن".

ظلوا يركضون، ويُنخلون، يركضون ويتساقطون تلالاً.

عندما عاد إلى حارته بمعجزة، كان أول من رأى الحاج عمر يهلوس بكل شيء من دون أن يتجرأ على ذكر أبو شامة. ارتمى على

كتفيه، وراحا في عويل طويل:

"متنا ورجعنا يا خيو.."

دُفعت الأبواب باباً وراء باب، وجرّوه مثلما أحضروه معصوب العينين. كان يفكر بسرعة محاولاً معرفة المكان الذي ينقلونه إليه.

سحبوه من السيارة وكانت قهقهاتهم تعلو وهم يربطونه إلى شجرة وينـزعون "الطميشة" عن وجهه. تعلقت عيناه بالقرنفلة الموجودة في فوهة بندقية أحد الحراس الواقفين قبالته. فجأة وبسرعة هائلة انطلقت القرنفلة باتجاهه مترافقة مع صوت الرصاص.كان آخر ما شاهد خرقة بالية عالقة بغصن الشجرة ثم غاب.

اكتفى المعلم برشقه بالقرنفلة، أما الرصاصات فأصاب بها الخرقة الحمراء.

بعد وقت غير محدد استيقظ من غيبوبته. أوقعته قرنفلة، وأيقظته ورقة شجرة يابسة ارتمت فوق أنفه. كانت السماء واسعة صافية وهادئة:

"إنها الجنة إذن".

أغمض عينيه. إذن الجنة الموعودة حقيقة وها أنا استشهدت برصاص الظالمين ودخلت الجنة.

فتح عينيه جيداً ورويداً رويداً استيقظ، فشاهد الخرقة الحمراء البالية معلّقة وممزّقة فوق رأسه.

إذن هو لم يمت.

في لحظة كأنها الفرح أدرك أنه في الدنيا وأنه قد أطلق سراحه، لكن بجولة أخيرة من التعذيب الجديد:

"مزاح سمج وثقيل".

كُتب له عمر جديد. أخذ يركض بقوة هائلة، لم يكن ليصدق أنه حي.

ربما لن يتذكر الصفعة الأولى ولن يتذكر "الصرماية" ولن يكترث بعد الآن بفرح عيون الطلاب، أو التأمل في كل ما يجري:

- علي أن أحرص على كلماتي التي ألقيها في دروسي.. طيشي هو ما أوصلني إلى هذا.

أطفاله في البيت ينتظرون وكتبه وطيور الحمام أيضاً.

استيقظت متناسية المرض. أعدّت ركوة قهوتها، وجلست في الشرفة تشربها على مهل. ما زالت حجارة الطريق القديم نائمة، فهي حتى تلك اللحظة من الصباح، لم تطأها الأقدام، والسماء تنبئ بيوم بارد بلا ضجيج مطر، أو تشويش غيوم. بدت مئذنة أبو رحمون الإسمنتية مألوفة في عينيها اليقظتين. نظرت إلى الأعشاب النابتة خلال جدران الواجهات:

"عطشى في أواخر الصيف. أيلول، وتشرين الأول، لِمَ لا يحتل هذان الشهران العام كله؟".

ربيعها في الخريف. أما في هذا العام، فالشهران لم يُخلصا لها، كما أخلصت لهما. فهي وإن كابرت، مقتنعة أنهما يحصدان الكثير من الأرواح. تذكرت مرضها، خافت من الآلام القادمة. سمعت الكثير عن أمراض السرطان، وخافت من هذا الخريف.

كانت مستغرقة في تأمل الطقس، متحاشية التفكير في الموت، حين مر الجربوع في الحارة كأنه عائد من سهرة حمراء منتشياً نعساً، اصطدم بأحد المارين. همت أن تنادي الرجل كي يقتله، لكن الرجل أخلى الطريق للجربوع، وانتقل إلى الجهة الأخرى.

علا صوت أبو رحمون بالنداء على ميت: لا إله إلا الله..

غاص قلبها، بعد كم من الأيام سينادي باسمها.

اسم الميت لم يكن غريباً. ضربت على رأسها:

"نسيتك يا أبو محمد.."

"هل ألحق أن أزوره قبل الصلاة عليه؟"

لم تلحق.

أغلقت باب الشرفة خلفها. متخيلة كتبه مائلة على بعض،

أصابعه ما زالت طرية عليها. سوف تبعثرها أصابع طائشة هنا وهناك، كي تقبض بدلاً عنها نقوداً، سوف تتفرق على رفوف غريبة عنها، وهواء لا يحمل جهودك طوال خمسين عاماً، لبناء جيل أكثر إيماناً. عاشت طقوس دفنه كلها من وراء زجاج نافذتها، استسلامه لكفنه، لحفرته، ولأيديهم تدير وجهه إلى القبلة، وتردد دعاء الميت.

قطعت شرودها وارتدت معطفها، حذاءها، غطاء رأسها، وهرعت إلى بيت الميت.

كان الرجال كعادة أهل المدينة يقفون عند الباب الخارجي، بجوار التابوت الفارغ، بانتظار الانتهاء من تغسيل الميت.

دخلت مع بقية النسوة، ووقفت وسطهم، كن يقرأن القرآن ويرتبن أشياء ضرورية للعزاء. استأذنت أهله ودخلت تراقب مكتبته. لم تطق أن تجلس، وقفت بقدّها، الذي يتضاءل، بين المعزّين.

خرجت، عادت، ثم دخلت، ثم خرجت. تذمر الرجال الواقفون عند الباب من هذه المرأة التي تكسر عادات العزاء وهيبة الموت بحركتها المترددة.

ركضت إلى بيتها، أسندت رأسها إلى حديد شرفتها:

"أدرك أنني تأخرت كثيراً، أنت في عتمتك الآن، لا تنتظر سوى تركيب شاهدتك مكتوب عليها اسمك وتاريخ رحيلك".

تركت البيت متوجهة إلى محل فارس، تتذكره في كل ندم وكل نكسة وكل خوف، تتذكره حين لا تجد أحداً.

قابلها فارس النحات كما هو دائماً هادئاً مغبراً، خمّن سبب زيارتها. سارع للقول:

- في زيارتي الأخيرة لأبو محمد وجدته يحقن بنفسه الأنسولين في خاصرته، كأنه ألف السكّر في دمه، أصابني الاكتئاب، تعبت أعصابي من صبره ومن حلمه، عدت إلى البيت، ليسيطر عليّ

هاجس السكّر. أتصدقين؟ لم أرتح حتى أجريت تحليلاً، وتأكدت أن صحتي جيدة، اطمأننت لعافيتي، وقررت أن لا أعوده مرة ثانية.

ثم استأنف بهمس:

- هذا ليس أنانية مني، لكنني متعب. غادر أبو محمد ولم يعتب حتى على السكّر أو على الأصدقاء، أو على جميع من يدّعي أنه أحب البلد كما أحبها.

صمت وهو يشعل سيجارة كانت خلف أذنه.

صمتا لبعض الوقت.

قالت فطمة بصوت باك:

- أما أنا فذنبي أكبر، أنتظر الموت، وأفهم كيف انتظره هو أيضاً، لكني خفت من زيارته، كأنني ظننت نفسي أستعجل الموت برؤيته.

عندما رآها فارس تشيح بوجهها خجلاً من الدموع التي خذلتها، خرج مسرعاً، تركها دقائق وعاد مبللاً وجهه، كانت تستطيع أن ترى بريق أخضر عينيه وقد التمع بدموعه، بعد أن أزيل غبار الحجارة عنه. نهضت وأخذت تدور في المكان.

- ما الذي يجعلك تقولين إنك تنتظرين الموت؟

- يعني هل نحن شباب؟

- السياح الذين يزورونني، يكبرونك بعشرين عاماً، وهم يتحدثون عن المستقبل كأن أمامهم عمراً آخر.

- كيف حال أولادك؟

- بخير، كيف لميا والحاج عمر وأهلك؟

- أرى أعمامي بين فترة وأخرى، قلّت زياراتهم بعد زواج أخي أحمد، تعرف، كل منهم مُلتهٍ بحاله.

- أنت دائماً تلتمسين الأعذار لمن حولك.

- أنا لا أحب أن يهتموا بي، هذا يخجلني ويربكني.
- مفهوم، مفهوم.
- ألم تعرف بالذي حدث لعاصم؟
- سمعت، ظننا أن الأحداث، وما بعد ذلك لن يتكرر، لكن يبدو أننا لن نرتاح أبداً.
- ماذا تفعل هذه الأيام؟
- كما ترين.. بعد أن أقلعت عن الرسم انصرفت لنحت الحجر، واجهات البيوت الحديثة.. علينا أن نطعم أولادنا.
- كواجهات قصور رجال أبو شامة؟ كلكم تريدون أن تطعموا أولادكم، سمعت المختار يقول هذا.
- فطمة، أرجوك، لا أحتمل..

غادرت دون أن تخفف من ندمها على أبو محمد.

نادراً ما تنام في الظهيرة، تعشق هذا الوقت الذي لا يكترث له أحد، قيلولة الصيف هي التي تجعلها تحتمل الصيف. توقعت أن يكون الجربوع قد استيقظ من نومه الذي بدأه في الضحى، لكنها لن تهتم له، فاليوم رحل أبو محمد وهي تريد أن ترتاح قليلاً.

أغفت أو لم تغف، رأت أنها أمام شلال ماء هادر يندفع من أعلى جبل أجرد، فيما تقف في واد سحيق وغريب تنادي: لميس، لميس.. رأت الرؤوس بل الجماجم، التي تراها دائماً، تتساقط عبر الشلال. لم تخف، اقتربت ووقفت بينهم، مدت يدها إلى الماء المتساقط بقوة وشربت، لم تكد تبتلع ما شربته حتى استيقظت على ضحك مكبوت هازئ، رأت الجربوع ماسكاً سبحة جدتها، يلوح بها في الهواء كمن يرقص الدبكة. قال:

"شربت ماء عكراً ملوثاً بدم رؤوس أهلك، متى تكفين عن أحلامك؟ أبو شامة يحبني، وسوف يؤمن لي مبرراً قانونياً لأخذ القبو".

قال جملته ضاحكاً هازئاً، وتركها رامياً السبحة على أرض غرفة نومها فانفرطت. كان انفراطاً حزيناً في عصر حزين، ويقظة لم ترجها. شعرت أن أجلها يقترب. فتحت خزانتها قبل أن تغسل وجهها وتناولت بقجة الكفن، فردتها على السرير، ثم فكرت أن تضعها في صندوق الجدة لكنها تراجعت:

"قد تراها لميس، فتحزن".

فتحت درجاً بجانب سريرها، وأخذت قلماً ودفتراً صغيراً،كتبت بضع كلمات توصي بها ثم مزقتها مؤنبة نفسها.

وضعت عليها معطفها، ثبتت حجابها القطني وارتدت جوربها

ذا اللون الحنطي، انتعلت حذاءها الأسود، وحملت حقيبتها التي تقول عنها لميس إنها أنيقة رغم قدم طرازها، فتيجبها فطمة: كي لا ألفت الأنظار يا ابنتي.

وصلت فطمة إلى منشرة الحجر التي يعمل فيها فارس، كان الشارع هادئاً وفارغاً ومغبر الهواء كما هو دائماً، دفعت باب المنشرة بهدوء. وجدته جالساً يدخن، لم يبدأ العمل بعد، قميصه مكوي، ووجهه شارد. أشار لها أن تجلس بعد أن نفض الغبار عن الكرسي المقابل:

- هل سأشكر حزنك على أبو محمد لأنه جعلك تتذكرين فارس مرتين في يوم واحد؟

جلست تنظر إلى حذائه، وإلى تشكيل غبار النحت عليه. تحدثت في مواضيع مختلفة محاولة تأجيل الحديث عن صحتها. ألح في السؤال عن حالها، مقاطعاً حديثها الطويل الذي لم يعتده، عن حديقتها، وعن البيت، عن لميس. كان يراقبها بقلق:

- لِمَ هذا الهزال؟ أنت منطفئة، أين لمعان عينيك؟ فطمة، لِمَ تغيبين؟ تعرفين أننا نحتاجك، يعني نحن وأولادنا. صدقيني، أشعر عندما تزورينني ونتحدث، كأنني أتعمّد من جديد.

- خيو.. أنا أودّع، أجابت بسرعة ومن دون تمهيد.

- ماذا؟ صاح فارس.

- أريد منك حاجة، قالت بإصرار.

- أنت تأمرين.

- تنحت حجر قبري على حياة عيني.

- لا..

- هذا ما أحتاجه منك، فهل تردّني؟ وإن لم ترغب، يوجد كثيرون.

قالت ثم غادرت ولم تنتظر إجابته..

اتجهت إلى كافيتريا قريبة تطل على النهر. جلست خلف الزجاج تفرك يديها، وتنظر:

"شاق انتظار هذا الذي نريده أن يأتي ولا يأتي، قد لا نستطيع أن نلتمس له عذراً".

كانت تكتب على حقيبتها علها تسطر وصيتها، فيما عيون المارة تقتنصها، رغم الشبك والأوراق الخضر واختلاف الضوء، لملمت أشياءها وعادت إلى بيتها.

صلّت ركعتي استخارة. طوت أغراض الصلاة ووضعتها على الكنبة. أطلت على أحواض أرض الدار بنظرة اعتيادية ثم عادت إلى سجادة صلاتها حتى نام رأسها.

وكما يحدث حين تنام، رأت خياماً منصوبة فوق مرتفع جبلي تجري المياه في أسفله قوية هادرة وكان هناك جمال هائجة تتقافز على أسقف الأكواخ غير المتناسقة. على كل جمل رجل ملثم الوجه ملفوف الصدر بقماش أبيض. حاولت أن تتبين ملامحه لكنها لم تقدر. وقبل أن تستيقظ رأت شحاذاً قادماً من القرية، جيبه مثقوب، يبكي عند ساعة المدينة. قدمت له صحناً مغطى برغيف، وكيس سكر، وقطعة صابون.

في الصباح كانت تطأ عتبة منشرة الحجر، أطلّ فارس مغطى بالتراب الأبيض، ملثماً كعادته أثناء عمله في النحت، رآها، أدار ظهره وأخذ يكمل عمله. وقفت دقائق تنتظر أن يدعوها للجلوس، لكنه لم يلتفت:

- أنت لا تصدق أني مريضة، وأني لا أحتمل الانتظار.

- اطلبي رقبتي، لكن لن أشترك معك في هذا الجنون، من فكّر قبلك أن يجهز قبره؟

اقتربت منه قائلة:

- أريدها شاهدة بسيطة.

شعر بأنفاسها تلامس صدره:

- فطمة نحن نستمد الشجاعة منك.

- شجاعة، من أين أحضر الشجاعة؟ هل أنا الرب؟ أستغفر الله، رصت حجابها وقالت:

- سأعد الشاي لي ولك.

قضت معظم النهار عنده، بدأ عمله بحزن وبطء، يعاند عنادها، ثم ما لبث أن اندمج كلية معها وهي تعد الشاي والقهوة، تقدمها له مشجعة مستمعة معه إلى فيروز: "وحياة ريشاتك وإيامي سوا".

أنجز لها الحلقة الحجرية تماماً، ومضى يزخرف الشاهدة. كانت تستطيع أن تشعر بحزنه من التفاف إزميله وضربة المطرقة، من قطرات العرق المختلطة بالغبار الذي غطى رموشه وجبينه.

- عدني أنك سترجع لريشتك وألوانك.

- ربما ستجعلني شاهدتك أقسم أن أترك النحت، عندها سأكون قاطعاً على نفسي وعدين، ألا أرسم وألا أنحت.

- سترسم.. فأنا حين أنظر إلى لميس أتفاءل.

أجابها:

- هذه الصبية أخذت منك الذكاء والشجاعة، أما حبها للبلد وللحارة فأنت التي لقنتها إياه، ومع ذلك أظن أنها ستهاجر في أول فرصة مثل كل الشباب الذين يئسوا.

لوحت فطمة بيدها غير مصدقة:

- أرجو أن تكون مخطئاً، كيف ستكون حياتها بعد أن.. بعد موتي.

عاد لإزميله وأخذ يضرب بمطرقته بعصبية، فراحت تعزيه بأحاديث شتى.

قالت فطمة مازحة:

- لو لم يقبروهم معاً لاسترزقتم أنتم النحاتون أكثر.

أجاب فارس وهو يمسح جبينه بكمه:

- لم نلحق أن ننسى الهجوم، أتذكرين أول مرة صادفتك فيها؟ يومها قررنا معاً أن لا نتحدث عن ذلك اليوم أبداً.

- اليوم أنا بحاجة أن نتحدث. استأنفت:

- كنتَ تبكي ذلك الطفل ابن العاشرة. رأيته بين أيدي رجال أبو شامة يضربونه ويرفسونه. ثم قتلوه وظللت أنت متوار خلف الحرش.

- أرجوك. كفى. نظر في وجهها: ويومها كنت ترتجفين من الخوف والبرد، تغسلين قدميك وتتمتمين: هل هذا دمي أم دم أعمامي؟ وتعيدين السؤال، عندما اقتربت منك، قلت لي بذعر: أنت من رجال أبو شامة؟

قاطعته فطمة:

- كان شكلك محيراً، طويلاً نحيلاً بعيون خضراء.

- ثم قلتِ: اقتلني بسرعة إذا كنت تريد هذا، لم أعد أقوى على الوقوف.

- وتسللنا إلى الضيعة المجاورة.. لنعود ونشاهد الذي شاهدناه.. أووف.

تناولت حقيبتها وسوّت معطفها ومضت، تاركة الرجل في ماض شديد القسوة وحاضر بائس. ألحقها بعينيه حتى غابت. أشعل سيجارة وانغمس في ذاته أكثر.

جاءها في المساء بعض الأقارب في زيارتهم الشهرية التي يؤدونها كواجب روتيني، صارت أكثر نـزقاً وعصبية. اكتفت بوضع الفاكهة أمامهم، لم تقشرها لكل منهم كعادتها في تدليلهم. راحت بين حين وآخر تدعوهم لتناولها، مادحة ثمار الدار التي تطيل الأعمار، تفعل هذا فقط لتملأ وقت الزيارة. لم يكترث أحد منهم لتجول الجربوع فوق سور أرض الدار، أرادت أن لا ينتبهوا إليه.

- يقال إن تالولة أبو شامة تكبر وهو فرح بها.

- تالولة أبو شامة تلمع كأن صاحبها هدهد في سرير ذهبي.

- أبو شامة يرقب نمو ثألولته على "الكمبيوتر" بإشراف إختصاصيين أجانب.

- كأنه وُلد في سويسرا.

- يتكاثر بالتبرعم؟

- أليس لديه مزاج بالنسوان؟

- أنت يا جميل لا تكترث إلا لهذا.

- هل مزاج أبو شامة مع الصبيان؟

- لا.. إنه مشغول كل الوقت، مشغول بإدارة شؤون الحارة، لكن الأمل كله في التالولة.

- ما أخبار نذير؟

- لا شأن لنا به.

- أوليس عمنا يا أمي؟

- عمكم لم يسأل عنكم.

- ربما يدبر لنا عملاً في الخارج.

- لن يدبر لنا إلا ما دبر.

- لا يحب عمي أحمد أن يتذكر اسم نذير، ولا يريد أن يتحدث أحد أمامه في أخبار أبو شامة، أو تالولة أبو شامة.

- فطمة ألا يزورك أحمد؟

- قليلاً والله يا عمي.

- ربما من خلال التالولة يستطيع نذير العودة إلى الحارة.

- الله لا يرده، ولا يعيدها أيام.

- دين أبو شامة.

- لا تشتم الدين.

- لن يجد نذير خليفة له.

- بل سيجد.

- ماما أريد "كمبيوتر" مثل "كمبيوتر" لميس.

- "شوها الموضة اللي درجت؟".

- عمتي لا يمكن العيش بدون "الكمبيوتر".

- كنا نعيش أحلى عيشة، والله الخبز والجبن والجبس في ليالي الصيف، وغسل أيدينا ووجوهنا وأقدامنا بماء البحرة، ثم الاستلقاء على الفرش التي تمدها أم الحب، الله يرحمها، صوف جز "هيك علوه" كانت الشراشف البيضاء، والوسائد العالية الطرية تدعونا للاستماع إلى حكاية الجدة، والله، ما في أحلى من تلك العيشة. كانت أيام أمان وسلام وتسلية.

ثرثروا طويلاً بأحاديث اعتيادية ولم ينتبهوا إلى شرود فطمة.

ودّعتهمْ ومضت فوراً إلى فراشها من دون أن تفكر في إعادة ترتيب الكؤوس في الخزانة بعد غسلها، أو تغليف الفاكهة في الثلاجة، أو تنظيف الأرض وقبضات الأبواب.كان التعب قد سيطر عليها. أوت إلى فراشها، بلا قراءة، مختصرة سنّة العشاء ووتره ودعاءه.

"رأته يقفز وسط قبو البيت بين الأغراض المهملة: حيوان صغير مشوه يشبه الضفدع، وجهه وجه إنسان، حاجباه مقطبان وأنفه قصير. أخذت تبكي بخوف شديد وتبتهل لربها أن ينقذها من هذا الكائن الغريب. لكنها فوجئت به يبكي بعويل يائس حتى انسلخ عنه جلده، وأصبح كائناً آخر، أخذ يركض وجلده يلحق به بلونه الأخضر المبقع".

عندما فتحت عينيها على هدوء البيت وعتمته وفراغه، أجهشت في البكاء، ماذا تفعل مع المرض؟ لابد أن تواجهه يوماً، إنه قريب، تتوقع أن تنهار بعد أيام. شربت الماء وصلّت. لا تدري لِمَ اشتهت في تلك الساعة من الليل أن تقطف ليمونة طازجة، وتتناولها مع الملح.

أحبها واختلطت هواجسه بحبه لها.

- لن تبعث، يصرعني هذا النداء، قال الحاج عمر، يفاجئني، وعندما أنساه، وهذا نادر، يأتيني متجدداً قوياً، يبدأ عند أذني الوسطى أو الداخلية، ثم يرسل إشارات تجعل جسدي كله آذاناً وسطى وداخلية، يأخذني فتجدني زوجتي متقدماً بعنقي مصغياً بدهشة، فهذا النداء يدهشني في كل مرة يأتيني، وهو يأتيني في كل الأوقات، يهزني من نومي، أتدثر بلا فائدة، يعصف في رأسي، أثناء أداء عملي، وفي حمّامي، وعندما ألاعب أولادي. لست واهماً، فإن اللجنة التي شكلتها منظمة [OO] العالمية قد أرسلت لي أحد موظفيها المهرة، كي يسرق آخر ما كتبت في دفتري الذي أحرص بشدة على إخفائه، والدليل على ذلك أن موضوعي الأخير كان حول امتزاج العناصر، امتزاج التكافؤ والتعادل، وحول مفهوم

الحار والبارد. لاحظي معي هنا. عندما قدم الموظف لي كأس الشاي وسألته: هل هوحار أم بارد؟ أجابني بخبث:

- أنت فقط من يستطيع تحديد ذلك. أتلاحظين؟

يظن أنهم يراقبونه، وما لا يستطيع فهمه هو، كيف يصلون إلى أدراج مكتبه المقفلة؟ ولكن ما الغريب في ذلك؟ وهم، في رأيه، متوصلين إلى اختراعات لم يكن يتوقعها في كتاباته السابقة.

- مؤكد أنهم يقرأون ما أدوّن دون أن يفتحوا الأدراج.

تنهدت فطمة وتيقنت أن موعد زيارة الحاج عمر لها قد حان، فهو يطرق بابها في منتصف كل شهر عربي.

أفسحت له، فتوجه كعادته إلى غرفة الجلوس. استراح على الأريكة التي اعتاد عليها، مقابل صندوق الجدة. استرخى وفرد يديه بكميه العريضين، وقبل أن يتوقف عن لهاثه، قال:

- الجميع متواطئ علي، وحده طفلي المختل هو من لا يمكنهم التأثير عليه، فعندما أجده مهتاجاً يصرخ ويقفز، لا يسمح لأحد أن يلمسه، أدرك أنهم كانوا في بيتي. عندها أنتظر حتى ينام الجميع فأطفئ أنوار المنـزل كلها وأندس تحت الطاولة واضعاً دفتري على ركبتي ومصباح الزيت إلى جانبي. أسدل غطاء الطاولة فأشعر بالأمان وتنهمر الأفكار الهامة التي سوف تقلب العالم وتفتح عهداً لم يسبق له مثيل في العدل. التفت إليها:

- كيف؟ أعترف عندك بكل ما أفعله، كأنك جدار كعبتي. تقولين: أنت واهم. ها أنا أدفع ثمن معاصيّ، فأنا لم أضحك منذ أعوام، ولم أتحدث إلى صديق. عاصم مشغول معظم وقته. أصلّي الأوقات الخمسة، أحاول أن لا أنقص النوافل، مواعيدي مع الناس بين الصلوات، قبل الظهر أو بعد صلاة العصر. يصحو أولادي على صوت قبقاب الوضوء للفجر وينامون مع آخر ركعة من وتر العشاء.

أصوم كل اثنين وكل خميس. أصوم مع زوجتي الأيام البيض من شوال، أصون جيراني، أصل رحمي، رغم أن أقاربي لا يرحبون بي وبأولادي، وكثيراً ما يدَّعون الأعذار كي لا يستقبلوني في العيد، لكن عملي مع الله. هم يخشونني، كأنني مجنون.

في الوظيفة قلت: واسطتي ربي، فضحك موظفو الذاتية. صافحني رئيسهم بكفين صغيرتين كاتماً ضحكة، ثم قال: ليس عندنا شاغر. فتحت باب الإدارة، فصرخ أحدهم: اجتماع، يا "خرا".. خرجت إلى الشارع، كان أحد الأولاد يرشق كأساً إلى السماء ويتركها تسقط من دون أن تنكسر، فينظر إلى الناس باسماً ظافراً ببضاعته، ليفاجأ بأحدهم يقترب منه ويسأله: هل هي ضد الكسر؟ بكم نصف الدزينة؟ عدت إلى البيت وكتبت عن رتل من الناس يمسكون بأيدي بعضهم، بينما عيونهم تتلصص على عيونهم.

وضعت فطمة كأساً من الليمون وأدارت شريطاً لمقرئ ذاع صيته أنه يُبكي من يستمع إليه، أحست ببعض التعب، لكنها لم تفقد صبرها:

- هذا كان من زمان ياحج عمر.

منعه أخوها أحمد من زيارتها طوال فترة إقامته في البيت بعد خروجه من السجن وقبل الزواج: ينقصنا مجانين؟ ألا يكفينا لميا وملازمتها لباب بيتنا؟

- أدرك يا فطمة حجم قوتهم وشرورهم، ولكن ماهو الحل؟

يقطع حديثه ليسألها عن أخبار نذير، ويذكرها بأيام النخلة ولعبهم. لا ينتظر جوابها:

- لم أعد أستطيع الانسحاب من موقعي، لماذا تعاقبينني بنظراتك مثل ربي؟ ألست مقتنعة معي أنني في مركز العالم؟ وضعتُ ستائر من قماش سميك على نوافذ المنـزل، وعلى محيط الحديقة.

منعتُ نور الشمس من الاطّلاع على أوراقي، أو التسلل إلى زوايا بيتي. ما أدونه يستحق الحرص، وأنا لن أضحي بنظريتي لهذه المنظمة اللعينة. وضعت برنامجاً دقيقاً لمراقبة زوجتي وأطفالي، بت أفتش ضفيرة ابنتي، قبل ذهابها إلى المدرسة، مع أنني أتألم كثيراً لدموعها بسبب تأخرها عن موعد الحصة الأولى، لكن لا ذنب لي فالحذر واجب. صرت أعود إلى البيت بأوقات مفاجئة، كي ألتقط تواطؤ زوجتي مع المنظمة، باغتتني أفتق معطفها كي أفتش عن الورقة التي كتبوا فيها تعليماتهم لها، شدت مني المعطف، وصرخت: والله إنك تشبه ابننا المعتوه، يلزمك طبيب.

قاطعته فطمة:

- كيف حاله؟

اكتفى بحركة يأس، ثم قال:

- تعرفين أن أمه أصرّت أن ترضعه أثناء الأحداث. قالت لها النسوة لا ترضعيه حليب الرهقة[1] أجابت: أريد أن يطلع خويتة[2] حتى لا يأخذوه حين يكبر كما أخذوهم الآن.

أكمل وهو يربت على صدر جلابيته وقد قطر جبينه عرقاً بارداً:

- بحثتُ بين اللوحات المعلقة في الشوارع العريضة، قرأت عن طبيب يعالج الشكوك والظنون، حدثته عن المنظمة، استمع إلي بنـزق وكتب وصفة ثم قال:

- أحضر الدواء "تهريب".

- أردت أن أحدثه عن معاصيّ، لكنه أشار إلى انتهاء الوقت المخصص. أنا أعترف بذلك ولكن أن لا أبعث، فهذا خطير جداً. أين تذهب هذه المعاصي؟ كيف أغتسل منها وأعود كما ولدتني

(1) الخوف
(2) أهبل

أمي؟ حاولت يا فطمة بكل ما لدي أن أزور قبر النبي عليه الصلاة والسلام، أن أحج إلى الكعبة، من دون جدوى، تنهدت من أعماقي عندما سمعت بجاري الذي مات في الحج أثناء "النفرة". داس عليه ثلاثة ملايين حاج، "نيّالو يافطمة على هيك موتة". والآخر الذي قضى عند "الموضأ" عندما تزحلق، فاصطدمت مؤخرة رأسه بحنفية الماء. حلمت ليلتها أنني شُنقت بالحبل الذي يشدون به لباس الكعبة، بينما كنت أقبّل الحجر الأسود. وحين استيقظت أحسست بصدري منشرحاً فدعوت لربي أن يطعمني "الحجة" مع الفوج القادم.

كانت فطمة تحبس أنفاسها،كي لا تقطع عليه استرساله، وتكتم ألماً يكاد يخنقها.

تنهدت ثم قالت تطمئن زائرها:

- لكن الجميع يناديك يا حاج عمر.

لم يعلّق، اكتفى بحك رأسه واستأنف حديثه:

- سوف أقف في "عرفة" رافعاً كفيّ إلى السماء مستغفراً ربي عن كل ذنوبي ومعاصيّ. سكت بعض الوقت، مسح جبهته وخديه وقال:

- في إحدى ليالي الشتاء جمعنا أبي حوله وسألنا بصوت خشن: من رمى قشرة الموز فوق الخزانة؟ ثم صفعني من دون أخوتي مع أنني لم أفعل ذلك، لكن مافعلته في اليوم الثاني أنني أخفيت شرشفي المبلل خلف الخزانة، ونويت إن سئلت أن أقول: لاشأن لي به. هذه أول معصية أتذكرها. ثم كانوا يقولون: دورك في الاستيقاظ باكراً لشراء ثلاثة كيلوات من الخبز وبعد العصر تسقي الدالية الكبيرة والدالية الصغيرة، لكن لا تغرقها بالماء، وعندما يحل الليل تخرج تنكة الزبالة، ترتب خزانة الأحذية، تشطف عتبة باب

الدار. كنت أشتري "كيلوين" ونصف من الخبز متأكداً أن أمي لن تزن الخبز ثانية، وببقية ثمن الخبز أشتري قطعة من المشبك الساخن ألتهمها على الفور.

أرأيت كيف أن سجلي عند ربي مليء بالذنوب المبكرة؟ كانت جدران بيوت أقاربنا وبيتنا مثبت عليها صور الأب أو الجد الذي مات، كنت أظن أن كل من تصوّر سوف يتلاشى وتبقى صورته معلقة. عندما قرروا أن يصورونني من أجل المدرسة بكيت وركلتهم بشدة، بينما كانوا يشجعونني أنهم سوف يكبرّون صورتي ويعلّقونها على الحائط.

في العشرين من عمري ذهبت أعزي صديقي بأبيه، فوجدت الشيخ يصرخ: سُمّي القلب كذلك لأنه متقلب، فحاذروا: من يستمع إلى أغنية "قدر أحمق الخطى" تعتبر زوجته طالقاً. ثم استأنف الشيخ بصوت أعلى جعل قلبي يغوص: الغناء، حرام، حرام.

خرجت من العزاء وهمست في أذن جاري:

- أنا كمن دخل يصلي أربع ركعات العشاء فعلق بصلاة التراويح.

رفع عمر وجهه المنهك إلى سقف فطمة قائلاً:

- يارب سامحني على جهلي واعف عني، أنا عبدك الضعيف.

قال وهو يبتلع ريقاً سميكاً: كنت أيضاً أضع كتاب الرياضيات في خزانة الأحذية قبل خروجي من البيت، وعند عودتي أتناوله لأدخل به تحت إبطي موهماً أمي أني تعب من الدراسة وأنني جائع.

في السينما كان عنوان الفيلم، استغفرك يا ربي، "حب وعنف وإثارة". وجدت الأماكن كلها محجوزة فقطعت تذكرة "تلقيح" وقضيت الوقت كله مستلقياً أمام الشاشة، أضايق من في الصالة والبلكون حين أرفع ساقي فتأتي في وجه الصورة، فأسمع صراخ

المشاهدين وأضحك، يا رب كم كنت جاهلاً.

صمت قليلاً وراح يمسح خديه وجبينه بكمه ثم تابع: أما المعصية التي أخجل منها ومن تذكرها فهي أنني كنت أتلصص على جارتنا سميرة، أشار باتجاه بيتها وأكمل، وقد كانت تعرف ذلك وتتهيأ لمراقبتي ليلاً عندما ترى اسوداد الثقب الذي أحدثته في الجريدة التي غطت أمي بها نافذة المطبخ،كانت تنظر بطرفها باسمة كأنها تسألني: مبسوط؟

- هل أكمل يا فطمة اعترافي لك مضيفاً آخر ما أذكر من آثامي؟

أجابت بصبر:

- أكمل.

- وضعتُ على ثقب قفل الحمام شريطاً لاصقاً كي لا يتلصص أحد عليّ. لن أخاف المنظمة، وأنا أعلن أمامك وأمام عاصم والمنظمة أيضاً أنني لن أغادر مركز العالم، هذا المكان الذي جعلني أكشف الأسرار جميعها، أنا فقط من رمته العاصفة في هذا المكان الخطير وبمصادفة غريبة.

لن يستطيعوا قتلي، حتى لا أبعث شهيداً، لكنهم سوف يمنعون بعثي بينما يلتقي الجميع بربهم، وأنا أين أكون؟ ما نفع أوراقي إن لم أمش على الصراط المستقيم، وأصل بسلام إلى الجنة أو إلى النار؟ أدرك يا ربي أنني برحمتك أدخل الجنة، فكل عباداتي يا فطمة لا تعادل نعمة البصر التي أنعم ربي علي بها. ما الذي يفعلونه حتى يجعلوا الرب ينساني؟ أخاف خطرهم وأرتبك منه، لكن هل أتراجع عن مكانتي التي وهبني الله، بعد أن وصلت إلى الحقيقة؟ اليوم أحرقت أوراقي جميعها، أصابني الارتياح.

صمت، وشرد في شأن ما، ثم استأنف محاولاً طمأنتها: لكن

لا تقلقي، فكل فكرة، وكل نتيجة توصلت إليها، هنا في رأسي، المهم أن لا تنسي أن ما وصلت إليه هو أن الديانات تلتقي، فلا خلاف جوهري بينها، الماهية واحدة والصراع كان دائماً على العناوين، كذلك شأن الفلسفات والنظريات، أنا مستعد أن أصمد أمام أرسطو والغزالي وابن رشد أيضاً.

هذا الدواء اللعين يشتت أفكاري ويخدّرني، يشل دفاعاتي أمام "المنظمة". سوف أتركه. اليوم نسيت صلاة الضحى، ولم أردد أذكار طلوع الشمس. ومنذ بدأت تناول الدواء لم أصم، ربما زوجتي محقة أنني أصبحت مثل ابني المعتوه. يجب أن أؤدي الرسالة قبل أن تتمكن المنظمة من تغييبي عن هذا العالم. سوف أمضي في الشوارع وأدعو الناس إلى نظريتي.

خرج الحاج عمر من باب البيت الكبير واضعاً ثقل همه وتعبه في بيتها.

خلّصته من ذيل الورق الذي علّقه الأطفال له منذ وقت، وتابعته حتى قطع الجسر الصغير.

غاب في الأضواء الخضر لجامع أبو رحمون.

"منذ زمن بعيد لم أر فراشة ولم يأتني خبر، ولم يحبُ طفل في أرض داري فيبلل بطنه بماء البحرة. منذ زمن بعيد لم تزدحم العصافير عند الفجر على أغصان الليمونة وتغرد فتوقظني فجراً. منذ متى لم تتحدث إلي أوراق الحديقة وترابها، أو ضفة القبو مع ضفة النهر؟ منذ وقت ليس بقصير يرسل النهر روائح وحشرات. أيمكن أن يفيض على القبو، وتختلط مياهه بتراب الحديقة؟ ماذا أفعل لحمايته، ها أنا أدفن فيه أحشاء الخروف في كل أضحى! منذ كم من الوقت غرزوا حرابهم في تراب الحديقة،كي يبحثوا عن سلاح نذير وعمامته متوهمين في ذلك الحين أنه مختبئ هنا".

إذا قالت:

- أظن أن جميع من تبقى لن يحرّك ساكناً، فلو أراد أبو شامة رد النهر عن مجراه فلن يمنعه شيء، بل ربما ينصرف الشعراء لرصف قصيد بعنوان "رد النهر عن مجراه".

سيكون الرد:

- الطامة الكبرى أن أبو شامة لا يدري بوجودك، وغير مكترث لحضورك أو غيابك، كذلك عمك نذير.. ألا تفرحين إن عاد نذير؟

- لم أشتق له، فأنا أراه في التلفزيون. تبدو عليه العافية والاطمئنان.

تجلس نساء العيلة أمام التلفزيون، يتغزلن بشيبه المترف، وبأناقته الباريسية. عدا عن أن أحداً لا يعرف شيئاً عن أولاده، إلا دراستهم وعملهم الناجح في الخارج. ما زال نذير يدّعي النضال أو يتظاهر بذلك. سيختل التوازن إن عاد إلى البلد لسبب ما.

فتحت عينيها فوجدت الشمس غائبة تماماً خلف سحابة كبيرة،

غطّت سماء نافذتها. هذا الجو السديمي كم تعشقه وكم يلائمها.

"ليس لأحد هيمنة على أحد، للشمس دور كما للغيم دور، أما دور السماء فهو إفساح الفضاء لهما، نور وظل وأزرق فاتح رطب. كانت الجدة تقول: الدنيا غطيطة[1].

وضعت ركوة قهوتها على النار وقد زادت كمية الماء على ثلاثة فناجين اعتادت أن تشربها صباح كل يوم. بانتظار أن يغلي الماء تجد دائماً لنفسها شيئاً تفعله. فتحت نافورة البحرة وخرطوم الماء على الأحواض، أرادت أن تبلل هذا السديم بالماء، شعرت أن خضرتها تحب السديم أيضاً.

كانت مرتدية قميصاً خفيفاً بأكمام عريضة من قماش كتاني خام، حوافه مطرزة بخيوط ملونة مشتقة من الأزرق توائم لونه المالح، لون الطحين الأسمر. يصل إلى ركبتيها. وفي قدميها خف من القماش نفسه، مطرز بخيوط سماوية. تقول لميس: خالتي، من ينظر إلى قدميك يظننا في عمر واحد.

رن جرس الباب الخارجي متزامناً مع دقات الساعة:

"إنها التاسعة صباحاً، من يكون؟"

الذين تتوقع قدومهم في أوقات مفاجئة لديهم مفتاح للباب. قالت بصوتها الذي يبقى ناعساً إلى أن تشرب قهوتها:

- من؟

جاءها صوت فارس:

- فارس.

فكرت:

"ما الذي جعله يزورني هذا الصباح وفي هذا السديم؟"

هرعت إلى غرفتها كي تستر نفسها بسرعة حتى لاينتظر الرجل

(1) الجو سديمي.

على الباب طويلاً. ارتدت معطف الخروج فوق قميصها وربطت شالها.

- أهلين، تفضل، القهوة جاهزة.

وضعت أمامه على رخام البحرة فنجاناً ونظرت في عينيه، رأت فيهما شوقاً واعتذاراً. قال:

- أعرف أن الوقت مبكر للزيارة، لكن عندما شاهدت السديم خفت عليك.. أنا قلق جداً.

ابتسمت:

- اشرب قهوتك.

نظر إلى قدميها وضحك:

- مرتدية معطفك فوق قميص نومك؟ ثم استأنف متخابثاً:

- أستطيع أن أرى خيوط قميصك تتباعد عن بعضها لتدعو نسمة ما أن تدخل إلى جسدك الساكن؟

خبأت قدميها تحت كرسيها وتأكدت من حجابها ثم أرخت عينيها تقاوم ابتسامة، لكن رموشها التي تفضحها دائماً جعلته يقول:

- أنت تذوبين في هذا الصباح مثل السماء والغيم، مثل الفضاء، كأنك شُكلت منها جميعاً. نظر إلى وجهها بحنان، واستأنف: حياتك مثل هذا النهر. ثم بعد صمت: سوف تهدئين. لن أصدق أنك ستموتين. أريد أن أحدثك في كل الفصول. في الربيع: أين خبأت زهرك، ولِمَ تخبئينه؟ في الشتاء أريد أن أقول: لا تزيدي الحطب أكثر، أنا أتدفأ بطلعتك. وفي الخريف: لا تنسي كتبك وعروسة الزعتر.

ضحكت:

- أما في الصيف؟

- ماذا أفعل وقت قيلولتك..؟

- في الخريف والشتاء تنشطين، مع ركود النهر. في الربيع والصيف تهدأين بنشاطه. أما في هذا اليوم الهارب من الفصول الأربعة، أقول: لن أعدّ شاهدة قبرك، بل سأكتب لك شهادة حياة، وإن أبيتِ، سأختار العبارة الحية التي تلائم شباب أحلامك. تحتاجين مرآة تطلعك على جمالك. انظري إلى هاتين القدمين، إلى لون خدودك، كيف يمكنك الحديث عن الموت؟ أرى كل هذا الجمال يحتاجك. من سيفهم على النهر، على الأشجار، على الناس. من سيجعلهم يتفاهمون؟ من سيصلّي بخشوعك؟ من يحفظ ما تبقى من الضفة ومن الحارة سوى أدعيتك؟

ضحكت:

- ها أنت تذكر الأدعية والصلاة، وأنت من كنت تسخر من إيماني.

رد هازئاً:

- شيء يجعل الكافر مؤمناً.

ضحكت:

- ما رأيك أن تتشاهد أمامي فأكسب ثوابك؟

- كنت أود ذلك، على الأقل كي أستطيع أن أتزوج مرة أخرى، وأرتاح من الزيجة النصرانية المتورط فيها.

- هيا قم إلى أولادك وكفاك.

- لا يريد الأولاد منا شيئاً سوى المال، ها أنا أنحت الحجر،كي لا أحرمهم ما حرمت منه. دعينا نتحدث معاً في هذا الصباح الخريفي، فاليوم أحد ومنشرة الحجر مغلقة.

- إذن سأعد لك حلاوة السميد، لدي جبنة طازجة.

همّت أن تتناول فنجان قهوته عندما فاجأها وأمسك يدها:

- منذ كم من الأعوام لم نر هذا السديم، ومنذ كم من الأعوام

لم ير جمالك أحد؟ عيناك الذكيتان وشفتاك وأنفك النـزق. أنت خير من يصغي. تتحولين إلى فضاء أبيض. يمكن لمحدثك أن يرسم الخطوط التي تحلو له، ويتركها ظاناً نفسه بطلاً أو فارس الزمان.

سالت القهوة. طرق قلبها، تهدلت ملامحها، رجته أن يترك يدها.

مسح خديها بأنامله:

- أحبك كما أنت، أنثى حقيقية. أخشى عليك من نفسك.

بكت.

- لِمَ تبكين؟

- على هبلي وقلة حيلتي.

- أميرة.. وإن بلغت المئة، قال وهو يلملم ما تكسر، ويدلق براحتيه من ماء البحرة على الأرض الحجرية التي تلطخت بالقهوة الذائبة.

هكذا كانت وحيدة دائماً، مكتفية بذاتها، ملتفة على نفسها، فعندما تنام تلامس ركبتاها ذقنها فتنبعث رائحة أمن قديمة، تجعلها تنتشي. مترقبة دائماً، متوجسة، على أول خط دفاع تقف،كي تدفع عنها أي سوء فهم، أو أية محاولة اعتداء على أنوثتها.

أطالت الانطواء على ركبتيها، حتى أدرك الشيب خصلات شعرها المتبعثرة على جبينها وأذنيها، وغطى الغبار أحبابها، الحديقة، والنخلة، والدرج ذا الدرابزين الفستقي، ودفاتر الغائبين، وأحباباً آخرين.

كانت تقبّل فمها في المرآة كل صباح، قبل النوم، وأثناء النهار، تلك القبلة التي اعتادت عليها.

قيل: انحناءات جسدك اللينة والناعمة قبر وسجن وقيود تبغين

الخلاص منها؟ تسلحي وحاذري إن سمعت من أحدهم غزلاً وقحاً، فأنت المسؤولة لأنك كنت خفيفة. لا تصرخي عندما تناقشين، لا تضربي الطاولة، لا تصمتي دائماً حتى لا يتهموك بالتخاذل. عند هذه الشعرة يجب أن تعملي.

وعندما كان يطلبها أحد للزواج،كانت تخجل وتذكر له اسم جارتها الراغبة بذلك.

لم يعد باستطاعتها أن تصبر على السر أكثر، فالآلام لم يعد من السهل تجاهلها، وطبيبها الذي لم يكن يكف عن نصحها بأن تأتي بمن يعيش معها، ملّ المحاولات وقل اهتمامه بها. قالت لنفسها:

"هذا من طبيعة الأمور، ما شأن الرجل بمريضة إن كانت وحيدة أو برفقة أهلها؟".

فكرت بابنة أختها لميس، لكنها سرعان ما استبعدت الفكرة:

"تعيش الطفلة مع أمها حياة ترف ومرح. كل ما تحتاجه مؤمن لها لتحقق أحلامها".

داعبتها كلمة الأحلام، ما هي أحلام هذه الصبية؟ استغربت أنها لا تعرف أحلام لميس.

بات الجربوع يتطفل عليها حتى في حمامها، وفي مطبخها. يخرج لها من درج أدويتها، ومن أحواض مزروعاتها. قد يقضم بعض الأشياء التي تفلت من انتباهها. لم تعد تحاول مقاومته، فقد انشغلت بمرضها، وبهذا التضخم في خلاياها، وهذا الورم الذي يأبى أن يتوقف عند حد، وبدوامة الأدوية التي تتناولها وفق برنامج تنفذه بدقة وأمانة، تلك الأدوية ذات الحبات الملونة، كأنها صُمِّمت كي تسلي المريض، كأي قطعة شوكولا أو سكاكر يتناولها الأصحاء بلا اكتراث للحمية. باتت الذكريات تقتحمها من دون أن تستدعيها، تختلط بحاضرها في تشكيل ضبابي مبهم ومعقد، يستلبها من أصغر التفاصيل والبديهيات التي اعتادتها في حياتها، طعام لميا وأبو رحمون، الإنصات للحاج عمر، مراقبة الأستاذ عاصم، إعداد الأطعمة لأهلها، أقاربها، رعاية الحديقة ذات الطوابق الثلاثة،

**مكافحة الجرذ.**

**"ضعف، إرهاق، ضياع، ها أنا أقضي معظم أوقات الصلاة متأخرة".**

**تستقبل لميس القلقة عليها، تسألها عن دروسها في محاولة تمويه مرضها مكثرة من التوصيات:**

**- اقرئي، اسعدي، افرحي، لا تتركي الهم يقتحمك. إن لم تستطيعي تحقيق الحلم دعيه، وابحثي عن غيره، سافري، تعرّفي على الدنيا، اختاري ما تحبين. لم نجن شيئاً من القلق.**

**حين** ولدت ليلى ابنتها البكر لميس، كانت فطمة أول من أمسكها بعد الطبيب والممرضة. شهقت وهي تتأملها: ما أحلاك!! فقال الطبيب الذي ترك ليلى في فراشها منذ قليل: هل هذه أمها؟ ثم ضرب جبينه معتذراً عن هذا الخطأ.

بالملعقة الصغيرة وبالصبر الطويل ناولت الطفلة أول وجبة طعام لها في الدنيا: ماء وسكر وأمنيات. بعد ذلك أشرفت بنفسها على غذائها وصحتها وروحها. كانت حين تمرض الطفلة بالتهاب بسيط في البلعوم تتصل فطمة بليلى عشرات المرات كي تطمئن. كانت تؤنب أختها أنها ارتكبت خطأ ما جعل البنت تمرض. وإن وجدتها بصحة جيدة، تلعب وتثرثر، تقبّل كفيها الصغيرتين وتأخذ على ليلى العهود القاطعة بأن لاتهمل صحة الطفلة أبداً.. وهكذا لم تكن ليلى تستطيع أن تنجو من مراقبة أختها الصارمة لطريقتها في التربية. حين كانت تتذمر من بعض عادات الطفلة المتعبة مثل قلة شهيتها على الطعام.. تجيبها فطمة:

- عليك أن تناوليها اللقمة بأصابعك وتجلسي أمامها قبل الطعام وبعده وتبتسمي من قلبك وتفرحي بها وتشكري وجودها و..

حين تقتنع ليلى بعدل كلام أختها تتأفف قائلة:

- كيف أفعل هذا؟ أشعر أنني أنا من يحتاج الحنان.

كبرت الطفلة وفطمة تلملم ألعابها وثيابها التي صغرت عليها وتطويها وترتبها في خزانة خاصة، كي تفردها يوماً ما وتتأمل جمال مراحل عمرها: هذا ثوب عيد ميلادها الأول، يومها جلست بين ألعابها الكثيرة وراحت تثرثر بكلمات غير مفهومة إلا لفطمة التي راحت تلبي طلباتها وسط دهشة الجميع. وهذا الكلب المصنوع من الفرو الملون نال ضرباً مبرحاً من لميس كي يعد إلى العشرة مثلها. وهذه حقيبة الصف الأول وتلك جلاءات الصف الرابع وهذه شهادة الصف التاسع و..

**وكما يرى النائم رأت مكاناً نائياً، أشجاره تثمر نساء حوريات وعليه شروق نور عال، جاء منه جنين. وضع في تابوته منذ ولادته، وسلم للبحر.. وصل إلى الجزيرة الظليلة ذات الهواء النقي، الفارغة من بني آدم، تحدث وتفاهم بلغة حيوانات الغابة.**

**بعد سنوات ماتت أمه الظبية، فشرّح جثتها..**

**أدرك أسباب الموت، فنسي مأساة فقدانه لها، وانصرف للتعلم منتشياً بانتصاره على رفاقه من الحيوانات الأخرى.**

**تغلّب على مجاهل الغابة وغموضها. راح يشرّح جثث الحيوانات الميتة أمام دهشة الأحياء. أشعل النار وأحبها، تعلّق بها كما لم يحب شيئاً في حياته. اخترع أشياء عديدة كان أولها أدوات الصيد. انشغل باختراعاته المتسارعة عن الحوار مع رفاقه الحيوانات، مما أنساه لغتهم. نسي غريزته الأولى، انصرفوا عنه بعد ما رأوا من تفوّقه وتدبيره. قرر أن يسخّر هذه الحيوانات لخدمة حيله وابتكاراته. تمكّن من الغابة فأصابه الملل، فهو الأذكى والأدهى.**

**أحس بالوحدة فأخذ يفكر بالسماء والأرض. كان كلّما اهتدى إلى تصوّر ما، يدخل في تساؤل أكبر، حتى اكتنفه الاكتئاب، والحزن، والشعور بالضعف والصغر. هنا اتجه إلى البحث عن الإله الأكبر منه، وبدأ يفكر بحيلة تجعل الله ينـزل من علياء سمائه[1].**

**ما زال هذا المخلوق ينظر إلى السماء آملاً رحمة أو رِفعة تغدق عليه، فترفعه إلى المكانة التي يظن نفسه أنه يستحقها.**

**اشتاقت** إلى الوليد وملمس جلده، إلى تقبيل أصابعه ورؤية فضلاته الأولى وسقوط سرته، واشتاقت أن تمسح جسده بالبودرة وأن تحضر أشياءه.

- يجب ألا تقل الأحزمة القطنية عن ستة. أما القميص الأول فيجب أن يكون من الشاش، والثاني من القطن الناعم.

إذا شُكِلت ساقك من الفخذ فهذا دليل حملك بالولد.

إن قالوا لك أصبحت بشعة فإنهم يبشرونك بالولد.

عندما تلدين فسوف تقدمين مغلي الشمرة بالفستق.

بانتظار إفراز الصمغة من ثديك تناولي البقدونس بكثرة فإنه يجلب الدَّرة.

انتبهي فإن قبر النفساء يبقى مفتوحاً حتى الأربعين.

أرادت أن تلد من دون علّة خارجة عنها، من دون شريك غير عادل..

استندت إلى جذع النخلة تتأمل في سماء بخلت عليها بالرجل العادل، وفي أرض تخمّرت في بطنها طينة على مر السنين، وامتزجت فيها العناصر امتزاج الحار بالبارد، والرطب باليابس، وكان امتزاج تكافؤ وتعادل.

(1) عن قصة حي بن يقظان.

كانت تقضي ليالي الخميس على السطح، تراقب جارتها، زوجة عمر تخرج ثديها من الصدرية وتدسه في فم وليدها، وعندما يغفو تضعه في سريره، وتدير ظهرها له، ثم تستلقي فتزداد ثنيات قميصها عند خصرها وتتداخل مع أصابع زوجها النائم بجانبها.

يُطفأ النور، فتهبط فطمة إلى غرفتها وتنام وسط سريرها وحيدة، لتصحو صباح الجمعة وترى القمر يرحل هلالاً، والأحمر يلطخ سروالها.

ليالي خميس عديدة قضتها تكلم نفسها على وسادتها، دم الخصوبة يكاد أن يغادرها إلى الأبد، فهل تتدارك الوقت، وتنجب ذلك الطفل الرجل الذي لا يشبهها كما لا يشبه أحداً؟ يكون سليماً معافى، تتركه ليكبر.

نـزلت إلى حديقة قبو القبو. وضعت الحمامة في العش، وجلست أياماً طويلة ترقب مكوث الأم على البيضة، من دون أن تمل أو تتعب. تريد أن تشهد تفقيس البيضة، وخروج طائر الحمام، صغيراً، ضعيفاً، مبللاً يرتجف بين يديها، سوف ترتجف معه، وتستمد من ضعفه جبروتها الضائعة وتعطيه خلاصتها، سوف تفرح به. ارتجفت أمام كلمة الفرح.

"كم أنا حالمة.. الفرح؟" لم تنتبه أن دموعها اختلطت مع صمغ جذع الشجرة.

"دبقة دموع الشجر.. فليلتصق وجهي بالجنّي الذي ما زال ساكناً ينتظر خوفي منه،كي يشق جدار بيته، ويخرج ساخراً".

شجرة النخيل في حديقة قبو القبو تحمل العناقيد المكتنـزة في بداية كل موسم، وفي نهايته تنحني باستسلام لتسقط حملها، وقد كانت تستخدم لنشر جوارب ذكور البيت الكبير، وعصر كل خميس يأتي أولاد الحارة كي يقتطعوا من أغصانها، يغرزونها في قبور

الموتى، أو يزينون بها توابيت الموتى الجدد، إلى أن صاح أحد المزارعين يوماً:

- إنها تحتاج إلى تأبير.

"كأن العنقود المذكر في متناول يدي!"

أرّقتها فتوى المزارع. قضت ليالي طويلة تفرش تحت النخلة متوسدة مخدة تنام تحتها الجذور ثخينة راسخة. كانت تخال أن جذور النخلة مثل عروق رأسها العنيد.

جربت أن تسافر إلى المناطق الأخرى، علّها تجد عنقوداً مذكراً غريباً يتناسب مع نخلتها ذلك لأن هواء الحارة الذي يحمل غبار التأبير لم ينجح في تلقيحها.

وصلت إلى منطقة مليئة بأشجار النخيل. تتمايل مع نسمات الهواء بخفر وطمأنينة، تتلامس سعفاتها من دون أن تنكمش، خضراء لامعة. منها المذكر الذي يقبل عنقود الأنثى الذي يختاره له صاحب المزرعة بلا تذمر، ومنها الأنثى التي تقبل ذكرها بلا احتجاج.

نظر صاحب النخيل إليها وهي تتأمل مزرعته بانبهار. سألها عن غرضها. كانت مرتبكة من طلبها. أحضر لها كرسياً وجلس على الأرض قبالتها.

تخلت عن خجلها قائلة من دون تردد:

- لدي شجرة نخيل في حديقة قبو القبو، وحيدة، في نهاية كل موسم تسقط عناقيدها..

صمتت ناظرة إلى أشجاره المدللة، مشفقة على نخلتها الوحيدة المنتظرة.

قام بصمت واتجه إلى شجرة بعيدة. اقتطع عنقوداً كبيراً وضعه برفق على جريد في حضنه. جلس يشرح لها طريقة تثبيته على غصن

نخلتها البعيدة الآن. ناولها إياه بعناية وودعها.

"وإذا أصابت النجاسة ذيل ثوب المرأة تطهرِّه الأرض"

أخذت طاسة من الماء وصبتها على الكتف اليمنى، ثم طاسة أخرى على الكتف اليسرى. دلكت جسدها بقطنة ممسّكة، ارتدت قميصاً رقيقاً، هبطت الدرج واستلقت على الأرض. رفعت يدها، فانحنى غصن النخل من تلقاء نفسه حتى قارب يدها، الآن يمكنها أن تقرب العنقود المذكر من النخلة المنتظرة.

اشتهت في أحلامها رجلاً يضع حبات الفستق بين أصابعها ويلتقطها حبة حبة وهو يقول: لإبهام قدمك طعم ملوحة، فأنت بحر إذن.. واشتهت أن يقرأ شعيرات يدها كأنها سطور حروفها مبعثرة، وأن يغني لها أغنية عن العشق. فتقول: أحب سطور الرجال. فيجيبها: بل تحبين صدور الرجال، عندها يحيط البيت سحاب أسود ثقيل ينشق عنه طيف يحمل غصناً منيراً.

"من اللا وجود إلى الوجود تحل الروح في الجسد الصغير وتبقى لا يأتيها فساد ولا يعتريها فناء"

لكنّ لنومها سلطاناً.

وكما يرى النائم كثر لحمها ودرَّ لبنها، أصابها الدوار، والفزع. كل ساعة تنـزل إلى حديقة قبو القبو، تشهد عملية التفقيس التي توشك أن تتم.

أغفت ساعة واحدة أو أقل. ربما كان القمر ضعيفاً أو أن غيمة حجبته، لكن الوقت كان كافياً كي تدخل كف كبيرة وغريبة، وتهرس البيضة في عشها الدافئ.

ندمت لأنها نامت، وندمت لأن العمر يغادرها بسرعة.

ظلّت تتقيأ أطراف الحمام، أمعاء الحمام وريش الحمام، كل صباح وكل عصر.

حلّت الروح في الرحم الدافئ، لكن أزهار وسادتها تحولت إلى لطخات من الإقياء.لم يعد بإمكانها أن تنام تحت النخلة التي تتأمل حملها، والأشياء من حولها تدور بتثاقل وتباطؤ. أحست أنها تريد أن تطرد السبحة المعلقة، والخنجر المزخرف، والسوط الملون، وكل أشياء الذكور.

قالت للصيدلي:

- أريد دواءً للغثيان.

فسألها:

- هل أنت حامل؟

كرهتْ النخيل والأحلام وطائر الحمام واللون الأصفر.

"ليتلطخ سروالي وغطائي بالدم صباح الجمعة، وليرحل القمر هلالاً، أو لتملأ الغيوم السماء، وتحجب القمر والشمس، ولتختلط الفصول وليحصل زلزال أيضاً".

"من الوجود إلى اللا وجود تبددت الروح وفسدت".

في تلك الليلة، بعد أن انتهى كابوسها، راقبت جارتها ترضع صغيرها، وتتشابك ثنيات ثوبها عند الخصر مع أصابع زوجها. أطلت إلى حديقة قبو القبو فوجدتها مملوءة بفضلات طائر الحمام تحت النخلة الوحيدة، التي سوف تسقط حملها بطبيعة الحال.

**"سأتغلب على الجربوع، وأعلمه درساً لن ينساه".**

**رد صوت:**

**"أنا موجود في أحشائكِ المتضخمة. أستطيع سماعك ومراقبة أحلامك وكوابيسك، أستطيع أن أصوغ لك الكوابيس.."**.

**فكرت أن تمسح على رأس الجربوع في رغبة أزلية بأن تعيد تركيب طباعه، مؤمّلة أن يكون معدن الجربوع طيناً.**

**انصرفت** إلى نفسها، وإلى حديقتها تجرب زراعة الزهور المختلفة، ومكافحة الآفات التي باتت تجتاح نخلتها. فعندما أصاب النخلة "حلم الغبار" في الأول من أيار فوجئت، لم تعتد أن ترى لهذا الشهر أية أهمية. قضت النهار في تعفير سطح الثمار بمسحوق الكبريت، وحين حل الليل، راحت تراقب الخفافيش التي تلجأ إلى نخلتها تعلق أرجلها بها وتدلي رأسها إلى الأسفل ثم تلتهم الثمار.

قليلاً ما كانت تنجح في جني ما تتوقع أنه يعادل تعبها. معظم جهدها يهدر في قطع الأغصان اليابسة، وقلب التربة وزراعة الأصناف الجديدة، وتسمية كل شجرة باسم أحد المفقودين، وكل غصن باسم أحد أبناء أخوتها أو أبناء أولاد أعمامها اليتامى، وكل حوض باسم مرحلة من مراحل تاريخ الحارة، ومراحل تاريخ حياتها.

**تزنّ الحشرات السوداء في أذنها والإقياء الأصفر يغطي صباح يومها ومساءه. لوحات الغرفة المغبرة تنظر إليها بحياد، كذلك أشياء الرجال، سبحاتهم، وخناجرهم الميتة.. وهذه الزاوية، التي أودعتها هوياتهم، ما زالت نائية منسية تنتظر من يوقظها.**

**يخترق المرض فطمة حتى العظم، والحشرات السوداء التي تهجس بها، تنهش رقبتها وأذنيها، بفجاجة ومن دون حاجة لخداع أو مراوغة.**

**رن الهاتف. فكرت:**

**"ستسألني أختي إن كنت محتاجة شيئاً ما"**

- فطمة..

صوت حزين وشاكٍ، ترى هل ستلتقيه في الآخرة، كما يقولون؟ مات على درجات لقاءاتهما، بينما هي تموت من سرطان نادر تكاد تكون حاملته الوحيدة:

- من المتكلم؟

- أنا، من أعد شاهدات قبور الأحياء.

- كيف صحتك؟

- أنا قلق عليك.. هل تتحملين الألم؟

- ما يهمني هو مدى نشاطك في حفر اسمي على الشاهدة. أريد أن تضعها في الهواء والشمس إلى أن تصبح سمراء فلا تبدو الأحدث بين شاهدات القبور.

- فطمة، لك ما تريدين لكنني لن أتصل بعد الآن أبداً.

فركها الطبيب من أذنها..

فتحت جفنيها ببطء. كان أول ما شاهدت، حزام الطبيب. قال:

- نحن جميعاً نقدر رغبتك بالوحدة، ولكن كيف تتحملين آلامك؟ أنت تحتاجين من يناولك الدواء، ويطعمك، ويسقيك و..

أشاحت بوجهها تراقب النافذة التي فُتحت واصطف عليها الحمام بازدحام منع عنها الهواء. كان هديله يعلو أكثر.

نهضت من سريرها متباطئة مصغية للأصوات المحيطة بها. "قرفصت" تلبس فردتي حذائها اللتين تباعدتا كل باتجاه معاكس للأخرى، فأدركت أن الجربوع ما زال يسرح في طوابق البيت الكبير.

نامت أياماً عدة، أو كانت غائبة في مرضها وكوابيسها حين استيقظت على أصوات أخوتها وأقاربها ملتفين حول سريرها. شاهدت رقة وحناناً غريبين في وجه عبد الحكيم، وقلقاً في عيون

جميل، أما لميس فقد كانت الدموع تبلل خديها، وليلى تربت على كتفها وهي تبكي أيضاً. رأت وجهاً جديداً: لا بد أنها الممرضة. فتحت عينيها من غيابها ورأتهم: ماذا هناك؟ منذ متى وأنا نائمة؟ ثم وجهت حديثها إلى الممرضة: ولمن هذه الحقنة؟

لم تنتظر أجوبتهم،كانت عيونهم القلقة تجيب. قال أخوها أحمد:

- اصبري.. إن الله مع الصابرين.

ردد عمها جميل:

- فطمة تحتاج جارتنا سميرة كي تعيش معها وتأخذ بالها منها.

قاطعه عبد الحكيم:

- يأخذها أحدنا إلى بيته، هناك تعتني بها نسواننا.

كان الحاج عمر يصرخ من داره:

- لن تبعثي يا فطمة.. خسارة يا فطمة.

فيما كان الأستاذ عاصم محتضناً ابنه. وصوت إزميل فارس وهو ينقر حجر الشاهدة يترجّع في رأسها.

رن الهاتف.. تذكرت بمشقة:

- الجنينة..

فجأة، دفعت غطاءها عنها، وتركت من جاء لعيادتها. وسط دهشة الجميع، بقوة غامضة، أبعدت كل ما يعيق طريقها، أزاحت الستائر، فتحت الأبواب والنوافذ. لهثت وهي تهرول، تعثرت، قامت لتعاود الركض نازلة الدرج حافية. أمسكت بالحائط والدرابزين وبكل ما يعنيها ويؤرقها:

"عند العتبة لميا، عند الدرجة الأولى عمر، عند الثانية عاصم، الثالثة رفيق الدرج، الرابعة فارس، السادسة لميس والسابعة كلهم.. وأووف من عيشتي".

تعثرت. قطعت أرض الدار إلى درج القبو الأول، الأولى لميس، الثانية الجدة، الرابعة أم الحب والخامسة..

كانت تسحب يديها على الجدارين، وتسقط قدميها على الدرجات جاهدة كيلا تهوي برأسها الذي يسبقها. كم لعبوا على هذه الدرجات، صباح الصيف وعصر الربيع وهم ينتظرون العجة والبطاطا، ما الذي حدث؟ لقد نسيتْ، نسيتْ كل شيء. لا تعرف شيئاً سوى الاستعجال في الخلاص، كي ينتهي همّ البيت، والضفة، والحارة. قطعت الأدراج بسرعة، كانت شجرة الليمون تقلقها طوال الليل فقد امتدت جرائد النخل واشتبكت مع أغصانها حتى جعلت ثمارها منهكة وأوراقها ممزقة.

بطاقة، أدهشت الجميع، ثبتت سلماً حديدياً ثقيلاً وصعدته.

تلفتت يمينا وشمالاً، جالت بعينين غاضبتين، دالية العنب.ثم راحت بهيستيريا تسحب الأغصان وتعيد ترتيبها، ترميها على بعضها ثم تباعدها، تصففها، عبثاً، إذ ما تلبث أن ترجع إلى وضعها الخطأ.

لم يروا فطمة يوماً غاضبة إلى هذا الحد.

تناولت عصا ضخمة كانت مرمية على تراب الحديقة وأخذت تضرب كل مزروعاتها، ثم تنتقل بينها وتصرخ. كانوا، من شرفتهم يرمقونها في قبوها حابسين أنفاسهم، إلى أن رأوها تتهاوى عند نخلتها.

- وقعت فطمة.

تزاحموا على الدرجات هابطين. أمسكوا بها وسحبوها صاعدين الدرج. كانت أقدامها تتلامس مع الدرجات في استجداء وتجريح. وهي من اعتادت أن تقطع هذا الدرج يومياً عشرات المرات.

طرق صوت لميس في رأسها منتحبة برقة، فيما كانت تبكي عجزها.

انتهت من مهمتها، أو أنهوا مهمتها. أعادوها إلى السرير وهي تلهث محاولة تذكر أي شيء دون فائدة. مدّت، باستسلام، ذراعاً حمراء دامية لحقنة الممرضة، وقد لطخت ساقيها ووجهها وكفيها خدوش عميقة. انتحبت لميس:

- أهذا ما كافأتها الحديقة به؟

لم تهدأ حتى وعدتها بنت خالتها أنها سوف تطلب من زوجها المهندس الزراعي أن يعتني بحديقتها.

بعد أن اطمأنت إلى وعد بنت خالتها طلبت من الجميع أن يغادروها، قالت بلطف وهي تلهث:

- أشكركم جميعاً لكني أريد أن أنام.

اعترضت أختها قائلة:

- لن نتركك وحدك، قضيت عمرك وحدك، لكن وأنت في هذه الحالة لن نوافق..

قاطعتها برجاء:

- سوف أتصل بك عندما أصحو وأحتاجك.

سمعت صوت الباب الخارجي الكبير يغلق، فتحاملت على نفسها، وقامت إلى صندوقها الخشبي المغطى بالسجاد السميك، رفعت غطاءه ففاحت رائحة الغار.

أغلقته كما كان واتجهت إلى فراشها متعبة لاهثة:

- لابد من إيجاد وسيلة تحفظ هذا الصندوق.

تضخمت البكتريا حولها وتحولت إلى حشرات سوداء تطير وتحطّ على غطاء سريرها، رغم كل محاولاتها كي تغمض عينيها وتصم أذنيها، كانت هذه الكائنات قادرة على وقف هروبها.

تهاجمها النوبة اللعينة وكل شيء يتمرغ بإقيائها اللزج. فكرت في أن تطلب من بنت أختها أن تحفظ الصندوق لديها، لكن البنت صغيرة على هذه الأمانة.

نظرت حولها. كانت الكآبة تلف كل شيء: المصباح، الجدران، السقف المزخرف، الأرض الملونة والأثاث. رأت أنها تشبه تلك العلبة الكرتونية المهملة المتوضعة على ظهر الخزانة وتوشك على السقوط، فارغة إلا من بضع كتابات عشوائية لا تعبّر عمّا بداخلها، وبضع أسهم تأخذ كل الاتجاهات الممكنة إلا اتجاهها الصحيح. كانت العلبة تشبه كل أغراض البيت المتروكة، على أمل أن تحتاجها يوماً، ولم يحتجها أحد غيرها. أما رفيق الدرج فقد كانت ذكراه مثل ذلك المصباح الذي عجزت عن التحكم به، فهو إما معتم موحش، أو مبهر متعب لعينيها وقلبها وجسدها المتعطش.

طرق الباب..

نظرت فطمة إلى قدومه متلهفة، ربما جاء من سيعتني بالحديقة. وسارعت قائلة برجاء:

"إن الطيور تهاجم حديقتي، يجب مكافحتها، وهي توسخ لي كل شيء. العصفور يمص حبات العنب على الدالية، ولا يتركها إلا مزقاً مهترئة. والدودة عادت إلى أغصان الكرمة كي تكمل على أوراقها. تأكل الطيور نصف موسم الحنطة الذي سلقته ونشرته على السطح. أما النخلة فهي تكبر كأنها في آخر أيامها. كل سنة تحمل، ثم تسقط حملها..عليك بتثبيت أكياس نايلون بيضاء على شكل رؤوس بني آدم على قمم الأشجار، وفي الزوايا. ستبدو كحراس حقيقيين، عندها تبتعد الطيور طيلة النهار. مع أني أشك بذلك فهي

لن تلبث ان ترجع معتادة وجود هؤلاء الحراس، إذ طالما استهانت بحراستي".

تناولت حبة المسكّن. وتحاملت على نفسها، حتى وصلت إلى الشرفة. أطلّت على حديقتها كي تتأكد بنفسها من إنجاز ماكان عليهم إنجازه، فوجدت الطيور قد أوت كعادتها إلى أشجار الحديقة.

تأففت:

"تبدو الأكياس كرؤوس متطفّلة".

تقيّأت وأغلقت باب غرفتها. قضت الليل مع الطيور وهي تخفق مبتعدة ثم تعود كأسْهمٍ سوداء.

"رأت الرجال يصطفون بعضهم إلى جانب بعض، عراة إلا من سراويل داخلية بيضاء مبللة، كأن زوجاتهم قد انتهين للتو من غسيلها. وقد ارتدوها دونما اعتراض. رؤوسهم تغوص في أكتافهم المتهدلة، شعورهم طويلة تغطي عيونهم ذات الجفون المرتخية. كانت صورة أبو شامة كرة ملونة مضاءة بدون نور يشع عنها، الأفق رمادي. جميع الرجال يحركون رؤوسهم التي لا رقاب لها حركة موحدة في وقت واحد. ينظرون نظرة وجلة إلى تلك الكرة، ثم ينكّسون رؤوسهم بسرعة. حطّ على الأرض أمام الرجال طائر صغير بجناحين عريضين، فرش ريشاته ناظراً إليهم بحذر، ثم عاود الطيران. لم يتحركوا ولم يكترثوا. رؤوسهم مدرّبة على النظر في اتجاه الكرة فقط.

تحول الطائر عند سريرها إلى طفلة رضيعة تلعب بأصابعها الطرية، وتبتسم ببراءة.

صوت مسنن يصرخ كأن عطلاً في محوره يعوقه عن الدوران ويصدر أصواتاً خشنة تجعل الأسنان تصطك. صف الرجال العاري إلا من سراويل مبللة لا يحرك ساكناً، فرؤوسهم المغطاة بالشعر ثابتة، وأيديهم مسبلة على الجانبين، براحة أبدية".

شاخت وتجعدت بشرتها، وتمكن الورم الخبيث من عنقها العالي، لحق بعروقها، رافق دمها، تكاثر بشكل مفزع.

دُفع باب غرفتها بهدوء:

- كأنك فارس..

دخل وهو يسحب رجليه بصعوبة. جلس بجانب سريرها وقال:

- اليوم تضعين رأسك وحيداً على وسادتك، لا تنتظرين خداً يلامس شعرك، ولا كفاً تضم أصابعك. تدفنين وجهك تحت غطائك، فينتفض عِرق بدءاً من قدمك عابراً قامتك المتعبة. تظل الدموع عالقة على أجفانك..

- في كل زاوية لطخة من إقيائي. لو سلطوا مكبّرة مجهر على أرضي، أو هواء غرفتي لشاهدوا حياة كاملة للبكتريا، بكتريا إقيائي الأصفر المستمر، إقياء لا ينتهي. في كل دوار وألم وإقياء أظن أن الخبث خرج من جسدي إلى الأبد. أغيب ساعة، لتعاودني نوبة الدوار والغثيان، ثم الإقياء. أستيقظ في الخامسة صباحاً فأرى أن لا فائدة من وجودي وأن النوبة الملعونة ستهاجمني خلال دقائق، فأعجز عن أن أتحرك من سريري، لأعد قهوتي وأبدأ يوماً جديداً، بإرادة أقوى.. كما لا أستطيع العودة لسكينة النوم وراحته.

ضغط بيده على كفها المرتجفة:

- استسلمي فطمة.

لثم كفها المغطاة بالشرشف ثم أجهش بالبكاء.

رن الهاتف بجانبها، فكرت بمن يمكن أن يتذكرها. ها هو الخبث في رقبتها ينتشر بصورة غريبة حسب شهادة الطبيب. رفعت

السماعة وقالت لمن على الهاتف:

- ألم يمتد عبر رقبتي يحيط بصدري وظهري.

أغلقت الهاتف ولم تنتظر إجابة ممن اتصل بها.

يخترق الورم اللعين جسدها ليشمل العالم كله. تأملت في أنحاء الغرفة علها تجد فنجان قهوة شربه زائر، ثم غادر، أو زهرة ملونة في كأس، أو منديلاً أبيض يلم بضع ياسمينات.

رن الهاتف مرة أخرى. ستسألها أختها ليلى إن كانت بحاجة لشيء ما. كانت تريد دائماً أن تسألهم إن كانوا يلاحظون هذه البكتريا التي تحولت إلى حشرات سوداء تغطي كل شيء.

شحب وجهها، أصبح لونها أزرق يابساً، كما شفتاها. كانت الجدة تقول لها: وجهك مثل فيء الشجر..

طرأت كل التغيرات دفعة واحدة. انتفخ بطنها انتفاخاً ناتئاً عن هزال جسدها، وانتشر الورم عبر دمها إلى الكبد والعظام.

همس الطبيب:

- إنها تمر بمرحلة الدنف السرطاني.

قالت بوهن:

- تظنون أن الموت هو المصاب الأكبر؟ أنتم واهمون.

- حالتك نادرة جداً، قال الطبيب ببطء ثم التفت إلى أقاربها: أقدر أنها غير كل المرضى الذين قابلت.. لكن عليها أن تخفف من عنادها وتبقي أحداً ما بجانبها..

قام بعيادته المعهودة لها مستخدماً أجهزته المعدنية الباردة والمعقمة.. شرح حالة الورم بلهجة طبية حاسمة وبصوت منخفض كأنه يشرح حالة التهاب حنجرة عادي.

إنها تريد أكثر، دائماً تريد أكثر، أكثر من هذا الحياد وأكثر من هذه العادية وغير هذا التعاطف المألوف.

لم تعد قادرة على الصمت بعد الآن. تريد أن تلحق بضعة أيام من هذا العمر وتقول ما لديها، حتى لو انصبت ثورتها المفاجئة على طبيبها أو أقاربها أو جيرانها.

- هكذا ينفجر صمام الصبر في أكثر الأوقات حرجاً وضعفاً. كنت تريدين فعل هذا منذ زمن بعيد لكنك آثرت الصمت والسكوت.. فات الأوان. قال فارس من بعيد.

سمعت أصواتاً هامسة تحاول ألا توقظها. فجأة غدا الهمس لغطاً. كانت أكواع أيديهم تعلو عنقها. شعرت بألم حاد:

"ماذا لو تكالبت أكواعهم الحادة على عنقي؟".

"جلس الجمهور كل في كرسيه المعد له مسبقاً والمهيأ بكتابة اسمه على مسنده. جاء حاملاً بطاقة دعوته مرسوماً عليها خريطة تدله على مقعده، وبنود مكتوب فيها تعليمات ترشده لسلوكه المفروض عليه. مع كل هذا التوضيح، تاه كثير من الأميين المدعوين، احتاجوا معونة من الحراس الذين حملوا بطاريات تنير المكان المطفأة أنواره، المكتوم صوته. كانت صورهم تتوضح كل عشر دقائق في غيبوبتها أو صحوها، رأت كثيراً من وجوه الحاضرين جامدة من دون تعبير. يصفقون معاً، ويشيرون معاً، في مكان يشبه المسرح: جدرانه، وسقفه، وأرضه مغلفة بسجاد سميك.

سحب الستار، أطلّ أبو شامة جالساً على مقعد وثير، يسلّم على الحضور برجله.

خرج أبو شامة بعد ساعات، وحيّا الحضور لوقت غير قصير ثم سمح لهم بتقديم قوائم التماساتهم. كانت أوراقهم نسخاً مطبوعة مسبقاً يرجونه فيها أن يقلع عن العزوبية التي طالت، ويتزوج كي يشهدوا ذريته. قرأ السيد التماساتهم واحداً واحداً بتأن رغم تشابهها، ثم استغرق في تفكير طويل.

حبس الحاضرون أنفاسهم منتظرين بصبر لا نظير له أن يوافق على التماساتهم.

أسدل الستار ثالثة لمدة ساعة خرج بعدها أبو شامة، وأعلن شكره لثقة الشعب، وتقديره لرغبتهم في تزويجه، لكنه أسف لأنه لا يستطيع تحقيق هذه الرغبة، فهولا يثق بوجود امرأة تستحق أن تشاركه صبغياتها في تشكيل ابن له، لذلك لا بد أن يجد طريقة أخرى. كما أن تالولته الجديدة التي نتأت في رقبته تحت أذنه يعتني بها جيداً ويكبّرها، وربما يطلق عليها اسمه "أبو شامة". نمت شعيرات حولها ومنها، فهو يداعبها كل الوقت، مغمضاً عينيه نصف إغماضة. بات الجميع يبارك وجودها، ويتحدثون عنها أحياناً بالرهبة نفسها التي يتحدثون فيها عن أبو شامة".

- ماذا هناك؟

- لا شيء، نامي.

أغمضت عينيها.

- يجب نقلها إلى المشفى، ردد صوت.

- لا يوجد فائدة، قال الطبيب.

بهدوء تدخلت:

- لا أحتاج مشفى، أريد أن أموت في البيت الكبير، ثم بعد تنهيدة وإغماضة، قالت:

- ما الذي ستفعلونه بالبيت بعد موتي؟

في الأيام الأخيرة باتت لميا تقلّص مشوارها الأبدي على الجسر بين الضفتين، وتخفف من ركضها وبصاقها، فقد جف ريقها وانكمشت عند مصطبة بيت فطمة منهكة من أعوام الركض التي قضتها قاطعة الجسر الصغير بين الضفة الأولى وبناء الخلية الذكية.

أما النهر فقد اعتاد لوحة إعلان الخلية الذكية، وبات يعكس

صورتها أكثر من مئذنة أبو رحمون.

"مشت في رتل واحد مع المئذنة القديمة وهلال قبة الجامع، ترافقها النخلة العتيقة والمتفرعة جذورها في ماء النهر. كان مسنن كابوسها يدور بسرعة هائلة ولميس تركض حاملة حقيبتها الملأى بأقراص "الكمبيوتر"، تلحقها الجدة بجلبابها منحنية تضرب الأرض بكرسيها الواطئ حاملة على ظهرها المطوي كتب أحفادها ودفاتر حسابات أبنائها، تلحقها كراسي الخيزران، وسبحات الرجال، وخناجرهم، وبيجامات الشباب الذين غابوا، ولم يعودوا. البيجامات رقيقة، والبرد شديد، والوحشة هائلة.

أمامها ثلاثة دروب.. في الدرب الأول رقدت تالولة أبو شامة في قبرها مكتوب على شاهدتها: هنا ترقد التالولة التي سقطت على غفلة منه. في الدرب الثاني، رقد أبو شامة، مكتوب على شاهدة قبره: "الميت الحي".. في الدرب الثالث، شاهدت "أبو سليم" وبقية الناس، جميل النسونجي وعبد الحكيم كشاش الحمام، والمختار حاملاً دفاتره المدونة فيها أسماء من غابوا على أنهم ماتوا. كلهم جالسون على كراسي واطئة أمام أبواب بيوتهم لابسين جلابيتهم وأخفافهم المنزلية، مترقبين نهاية حلم فطمة، متوقعين في أية لحظة حدثاً يجعلهم يحملون كراسيهم، ويدخلون بيوتهم فارين ناجين.

تابعت سيرها إلى أن وصلت إلى مرج أخضر ندي.. خلعت حذاءها وجلست عليه لترتاح تحت شمس ضحى ربيعية. كانت تشعر أنها طالبة في المدرسة الابتدائية، تملّصت من دروسها الصباحية الثقيلة، وظفرت بسكون أخضر هادئ غير معتاد، لكن حفّارة مزوّدة بأظافر بشرية هاجمت المكان وراحت تنزع وتمزق حشائش المرج الرطبة.

أخذت فطمة تبكي وتولول، إلى أن بان كل شيء:

حفرة هائلة تنطلق منها رائحة شجر الكينا الذي كان يظلل الضفة الثانية، ثم جماجم متناثرة على هياكل كانت بشرية، عرفتها فطمة من الأيدي التي كانت تلبس ساعات أصلية ما زالت تعمل بعد هذه الأعوام رغم توقف نبض اليد".

لم تحاول مرة معرفة سبب استخدام الجرافات. فإذا كانت تستخدم لنقل البقايا كما تعلم، فلماذا نقلت بقايا أجساد وثياب رقيقة؟ نعم.. الجرافات نقلت بقايا أجساد وثياب رقيقة، لكن الأرواح بقيت: كل روح بألف روح؟

وضعت إصبعها على عنقها، هنا مكان الغصات ومكان ابتلاع الدموع.

شدت بأصابعها على عنقها، إنها تختنق. انتحبت لميس:

- إنها تتألم بشدة.

أطلقت فطمة صرخة واهنة:

- الزيت جاهز للقلي.. ما الذي يجعل صوت المدفأة هادراً؟

اختلطت الألوان في رأسها.. وجدت أن بركة الزيت المغلي عميقة، وأنها عادت بنت الثالثة عشرة، تركض برشاقة إلى البحرة الزرقاء،كي تلحق صلاة المغرب.

ارتفع صوت الأذان.

همست:

- ما هوالوقت الآن؟

جاءها صوت لميس:

- صلاة العصر يا خالتي.

مدّت لها كفها:

- افرحي بحياتك يا حبيبتي.

أجهشت لميس.

أغمضت فطمة عينيها ونامت مرة أخرى.

رأت دموعها تختلط بدمائها وبنهر الجدة الذي تحدثت عن هديره يوماً. غطى الماء وجهها، هبطت إلى القاع، كان آخر ما شاهدت سماء حارتها تتعرج مع تموجات المياه، رأت الدود يأكل أصابعها، ورأت تمثالاً شامخاً ينبئها أن عظمها لن يتفتت، وأن عروقها عروق خشبية جافة. سوف تصادق التراب، وتصادق ظلاماً بلون بني خشن.

لوّحت بيدها غير مصدقة. وزفرت حياتها.

شهقت لميس مستجدية:

- هل..؟

طلعت شمس اليوم التالي، وقمر الليلة التالية. أذّن أبو رحمون كما كان يفعل. تراجع ماء النهر أو لم يتراجع. أسدلت ستائر شبابيك

البيوت وبعضها أزيح. ذهب الطلاب إلى مدارسهم والناس إلى أعمالهم.

لكن شجر حديقة قبو القبو لم يورق بعد وياسمينة الدرج لم تزهر بعد والنباتات المتطفلة على أحجار الشرفة تكاثفت وأطلقت جذورها وهددت تماسك واجهة البيت.. غير أن لميس المراقبة لما أنجزت خالتها كبرت بسرعة وهي تعبر كل صباح بقامتها المشدودة الجسر الفاصل بين الضفتين تتابع ما يجري حولها، وفي عينيها الواسعتين تتلامح كل وقت فطمة التي تستلقي بجانب قلعة المدينة، كما ينبغي لنهر..

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory